الفردوس الرجيم

الفردوس الرجيم

حسام السقا

تصميم الغلاف: أحمد فرج

رقم الإيداع:2015/ 3170

I.S.B.N: 978-977-488-369-9

دار اكتب للنشر والتوزيع



الإدارة: 10 ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور، المرج الغربية، القاهرة.

المدير العام: يحيى هاشم

هاتف: 01144552557 01147633268

E – mail:daroktob1@yahoo.com

Facebook: دار اكتب للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى ، 2015م

الفردوس الرجيم

حسام السقا

رواية



دار اكتب للنشر والتوزيع

إهداء

إلى أمي التى لم تستعن على الثقافة بكتاب ....

لكنها استعانت على الحكمة بكتاب الله ...

أُهديكِ كتابي ...

مرتع الآلهة

عن أنصاف الآلهة وأشباه الآدميين...
عن النفع مقابل الدين...
عن شركاء يتقاسمون الخراب...
وغرماء يتكاتفون على الصيد الوفير...
وأناس يرفلون بين طيات الجحيم...
عن الوثن المعبود،وانصراف العبيد...
وسكرات اللذة الآثمة،وآهات الحسرة...
عن الجنة التي غرقت...
عن مرتع الآلهة.

كوستاسيمرالدا جزيرة سيردينيا إيطاليا

عثر عليها بصعوبة.. أخيرًا وجد مفتاحًا لطريقها الوعر..ليس حذرًا بقدر ما تدفعه جزوة التحرق والشوق لزيارتها،لا يعبأ بقدر السوء الذي سيلحق به إنْ وشى أحد به،لا يفكر إلا في رؤيتها وهو يشق هذا الطريق الساحلي بسيارته الرياضية البورش الأرجوانية الحمراء، فيزأرُ محركها كأسد جريح، وتصرخ عجلاتها عند المنعطفات كطفل فقد عقله على طريق مهدته قطعُ القرميد الأسود التي تآكلت حوافها بفعل الرياح والأمطار...

لكن في أي مكان نحن؟

هنا كوستاسيميرالدا المنتجع الواقع شمال جزيرة سيردينيا، يعد أكثر المنتجعات فرادة في العالم، إنها أحد الأماكن التي لا تزال محافظة على المحتوى النوعي والبيئي لها..كوستاسيميرالدا والشاطئ اللازوردي يعود اسمه لفيروزية مياهها بين درجات الخضار والزراق ونقاء رملها البلوري هذا كما كان قبل ألف عام خلت.

لكن مع الوقت اكتسبت شهرة أخرى جعلت منها قبلة لقراصنة البحار إبان عصر الكشوفات الجغرافية التي شملت العالم بمغامرات لا تصدق، وباتت بصمة ودلالة على تقدم الأمم فكانت حركة الخروج

على القوافل البحرية رائجة، وكانت حملات القرصنة تفرد كوستاسيميرالدا لها شواطئها، فيرتع فيها القراصنة كمأوى وملاذًا لهم، هذا أيضًا ما اقترن بمشاهير المال حين اتخذوها مكانًا لقضاء أوقات راحتهم بعيداً عن أنظار المتطفلين والفضولين، فالتصقت بهم خيالات الأساطير وحكايات عن مغامرات لا تنفذ، فتارة تشعر بغرابة المكان ووحشة رواده ورهبتهم فتختجل مشاعرك، وتارة لا تنفك عينك أن تقع على ركن ما بالمكان إلا وتبدي كامل انبهارك به، فلا تعرف أيًا منهما يسبق الآخر شهرةً، المكان كأحد ملاذ الخارجين على الحقوق، أم أنه إسراف وترف بلا حساب.

مازالت البورش GT تطوي منعطفات الطريق الساحلى الذي تحفه أشجار النخيل، ومن بعيد تطل الروابي التي تعلوها أكواخ حجرية من الحجر السرديني الرملي وأخشاب الماهوجني كإرث ثقافي يطبع المنطقة الساحلية كأثر مجيد...

صباح صحو وشمس قوية في أغسطس الحار، والهواء يضرب الأنحاء بقوة محمَّلاً بملح البحر الذائب فيملأ الصدر بنفس محبب يثير الذكريات.

هذا هو شارلي إسحاق الفتى الإنجليزي الذي يعد أيقونة متأججة ثرية، من أصل عريق قوي، بصحة وافرة، نحتت عضلات جسده، وكأنه تمثال من عصر النهضة، فشكله ذو بشرة خمرية تشوبها النحاسية اللامعة من أثر الشمس وحمامات الألوان، وشعر أسود كث ناعم، شخصية تليق بأن تكون سليل العائلات الأرستقراطية

الإنجليزية، فطن واعٍ لأمره، قادر على فصل اللبس، لكن رغم هذا كله يأكله الشوق في متابعة محبوبته...

توقفت السيارة بأحد المرائب لأحد الأكواخ التي يمتد أمامها لسان صخري إلى البحر ومن الخلف حديقة زهرية عطرية ونخيلات تلقى بظلالها على الكوخ الذي تصادى بين جناباته صوت خرير الماء المتدفق من عين كبريتية، وكأنه لا أحد به..!

طرق الباب الخشبي، ولم يلبث أن ظهرت سيدة طيبة الملامح ترتدي زيًا رسميًا رغمَ حرية المكان إلا أنها كانت مديرة الكوخ لمالكته، فدخل شارلي بثقة متتبعًا أثرها بعد أن أعلمت مخدومتها أن هناك من يود الاستئذان...

دخل شارلي مارًا بجسر خشبي يؤدي إلى الشاطئ الخارجي للكوخ بصحبة مديرة الكوخ التي تركته لتوها.. مشي بضع خطوات على حبات الرمال البلورية ليقف على مقربة منها، وهي تفترش بساطًا من القش المجدول مفروشًا بأوراق زهور الياسمين والزنبق، كانت بجسم شبه عارٍ مغطى بطبقة من دهانات قرع العسل والتوت البري.

لكن من تكون هذه التي تأخذ من مرتع المجرمين حصنًا لها، وتأخذ من الفتى الإنجليزي قلبه؟؟؟

هذه هي ميولا ترباتوني في عامها الثالث والثلاثين، تملك من المال ما ينعش كوكبًا ميتًا من أرباح أعمالها في مجال الأدوية عالية التقنية وأعمال المناجم الحجرية...

هذه ثروتها، أما جمالها: فبشرة ذهبية غضة، ووجه نضر، وعينان نجلاوان زرقاوان كامتزاج البحر بالأفق، وشعر بني كث مفرود، وجسد ممشوق ونهدان كرويان وردفان طريان عملاقان، تستقر ميولًا بين أجمل ما ظهر في سلسلة البشر كأنها ليست إنتاجًا متكررًا من البشر بل طفرة لتثير دهشة الخلائق من حولها..!! فتشعر أن ذرات الهواء من حول جسدها مفعمة بالرغبة...

- حقًا..الفتى الساحر شارلي إسحاق هنا..ليت التاريخ يلحق بدوره في تسجيل هذا الأثر الماضي...

قالتها ضاحكة، واحتضنته فقبلها وقبلته فشاركها الجلوس فقالت:

- أهي مغامرة؟ أم أنك هنا عن طيب خاطر...؟

هز شارلي كتفه، ومط شفته وقال ضاحكًا:

- كالعادة إنها مغامرة.

هزت ميولا رأسها..

- حسنًا أنا متفهمة للأمر.

لم يكن من السهل على شارلي إسحاق الذي يدير ثروات أبيه في أنحاء شتى بالعالم أن يزور ميولا، فالفتى الإنجليزي يدير من خلال منظمات أبيه الإنمائية عمليات التبشير التي يديرها في البقاع التي تعاني من الفقر والقهر وحرمان الخدمات، فيصحب الرهبان والقساوسة في حملاته الإنمائية التي يطوف فيها العالم.

حتى كلامنا هذا يبدو الفتى في هالة القديس لكن الوجه المظلم في الأمر هي معشوقته؛ فميولا من الوثنيين لا تقيم للدين مقامًا، ولا تعرف للعبادة مسلكًا، أضف إلى ذلك شائعات مخاطرتها الدائمة في غالب أعمالها هذا يجعل في اقتراب الفتى الإنجليزي منها مخاطرة كبيرة لا يحمد سلوكه تجاهها لكن أيضًا هي تبادله حبًا جمًا ومشاعر سخية، فتركت رسالة بموعد ومكان لقائها مع مدير أعمالها فكان شارلي في أعقابها.

قالت ميولا وهي تضرب جرسًا نحاسيًا بجوارها:

- أرى أن فليب دروسيه أجاد عملَه، فأوصل رسالتي في ميعادها.

قال شارلي بهدوء وهو يدقق النظر في البحر الممتد أمامه:

- نعم فقد لقيته في ثلاث مناسبات مختلفة لم أوفق فيها حتى عثرت عليه بعد فترة.

قالت ضاحكة:

- يبدو أن الرقابة لا تخطئك يا شارلي.

قالتها حين حلت خادمة الشاطئ التي تواجدت كالجني يلبي أمر مولاه وأمرتها بإحضار كوبين من الشراب الروحي.

فأشاح شارلي بيده:

- لا..ليس الآن، حالتي المزاجية لا تسمح، لكنه شعر بنظرة عتاب من عينيها، فتابع:

- حسنًا..أفضل (مارتيني) مع الصودا.

- وأنا (موخيتو) بمعيار ثلاث بمقدار (والكر).

- ثلاث بمقدار والكر.. يا لمزاجك الخارق!!!!!

- الموخيتو ليس إلا شراب الروح الخفيف فهو روم مع سكر بني وثلج مجروش وصودا ونعناع، هل هذا كثير؟

أومأ شارلي موافقًا فانصرفت الخادمة تلبي طلب سيدتها، فسألها شارلي:

- هل سيستقر مقامك هنا طويلًا..؟

شردت ميولا قبل أن تجيب:

- لا أعرف، لكن فليب نصحني بمغادرة المكان في أقرب وقت، فكما تعرف مصورو الفضائح (الباباراتزي) لا يخطئون هدفهم؛ لذا أشار عليَّ بالذهاب إلى مصر، فقد رأى أن ما من أحد سيخطر على باله أن أتواجد بها.

اعتلى الاستغراب شارلي..

- لكن هل من شيءٍ؟؟ أشعر أنك تتحدثين عن شخص هارب..

اعتدلت ميولا حين أتت الخادمة بالشراب الروحي، فقالت، وقد أطرقت برأسها:

- الحقيقة هناك جمعيات حقوقية تلهث سعيًا ورائي لمقاضاتي في أعمال خاصة بالعاملين لدي، فهناك من أصيب بالأطراف المرتعشة

بسبب تركز الزئبق لديهم. وهناك من أصيب بعاهات مستديمة من أثر التجارب التي نقوم بها...

أكثر الأشياء التي جعلت شارلي نافرًا عن ميولا ليس إلحادها بقدر ما لا تلقي بالاً ولا انتباهًا لمن هم أدنى منها، وأكثر الأعمال لدى ميولا تقوم على استغلال حاجات الناس من الماديات والضروريات، فتجد أن مشاكل المتضررين منها تلاحقها دائمًا؛ لذا يعرف أنها دائمًا ما تهرب إلى أماكن متطرفة...

هنا قال شارلي،والامتعاض على وجهه:

- إذن فأنت تهربين من الملاحقة القانونية بالتعويض؟؟؟

أشاحت ميولا:

- إطلاقًا.. بل لقد حررت صكوكًا مصرفية لكل متضرر.

تابعت، وابتسامة على وجهها تمتزج بين السخرية والكراهية

- لكن مَنْ قال: إن أمثالنا ليس لهم من الأعداء جيوش؟؟؟!!! تخيل هناك من يدفع مالًا لملاحقتي عبر جمعيات ومنظمات غير حكومية للحكم عليَّ في قضايا لا ذنب لي فيها.. الكل يطمع في نهش ذيل الحوت إن لم يحصلوا على زيت كبده..ألا توافقني؟

قال شارلي مستنكرًا:

- وماذا عن الذين ذهبوا ضحايا لأعمالك؟؟؟؟

قالت وهي ترتدي عويناهّا الشمسية من مون بيلان التي ترجع إلى حقبة الستينات:

- إن من ذهبوا ضحايا لم يفنوا، بل إنهم قد أفادوا الإنسانية بالكثير، أليس لكل شيء ثمنه؟؟؟

فرد شارلي وملامح الضيق لا تزال على وجهه:

- الإنسانية؟؟؟؟! إن الإنسانية هي ألا تتم التضحية بإنسان مقابل غاية!!

هزت ميولا رأسها ونهضت:

- هذه مبالغة لا أثر لها في الواقع، يبدو أن الدين ودراسة الفلسفة قد أثرا على عقلك كثيرًا..

حسنًا وأنت إلى أين جهتك؟؟؟

كانت الشمس قد انتصفت، واستحال لون مياه البحر من فيروزي إلى برتقالي ذهبي، وحبات الرمال من كرستالية إلى قطع ذهب منثورة، حين قال شارلي:

- نفس جهتك..إلى مصر؛ حيث أعمال أمي هناك تأخذ منحنى آخر في عمل الخير، وتوفير كل سبل رفع المعاناة عن الناس، وهذا ما جلعني أمر بك أولًا قبل الرحيل إلى هناك، لكن يبدو أننا سنواجه الكثير...

لم يكد ينهي عبارته حتى اقتربت خادمة المنـــزل، فأذنت لها ميولا بالاقتراب، فعرفت أن هناك أمراً ما يخص يـــختها الراسي هناك.

فقال شارلي بذهول:

- إذن هذا البناء الراسي هناك يخصك؟ كان يجب أن أعرف هذا.

استأذنته ثم عادت مرتدية قميصًا أبيض معقودًا طرفيه بلا أزرار، يرجع بالذاكرة إلى عصر الهبيين وسروال من الجنيز قصير جدًا كلاهما من (كارل فراجا) ماجعلها أكثر إثارة، وما زادها أكثر هو سلسلتها الذهبية التي تتدلى منها لؤلؤة سوداء استثنائية بمقياس **23** مليمتر [1].

- ثمنها يمول مشروعًا تنمويًا كاملًا!!!

قالتها حين أبدى شارلي إعجابه بها وهما متجهان إلى المرائب، فأشار شارلي إلى سيارة تجانب سيارته الخارقة:

- لمن هذه؟

كانت سيارة فيات (**500**) موديل **1956** بلونها الكريمي وجوانب إطارها البيضاء مع الحفاظ على الأطر الداخلية من الكروم اللامع، اشتهرت بين مشتريها باسم علبة اللبن لصغر حجمها ولبياض لونها.....!!

- إنها خاصتي، ما رأيك؟

اعتلى الاستنكار ملامح شارلي...

- علبة اللبن هذه خاصتك؟؟!!!

ركبا السيارة وأزاحت ميولا سقف سيارتها الجلدي.. لتغمر ما تبقى من أشعة الشمس داخلية السيارة الصغيرة، وانطلقا على الطريق

---

[1] يتراوح حجم اللؤلؤة العملاقة بين 18 – 21 مليمتر.

الذي بدأت مصابيح الهيلوجين تزين أرصفته، والأكواخ وحتى الخط الساحلي للشاطئ، مما أعطى للمظهر العام مع أشعة شمس المغيب صورة تلهب الخيال.

- أشعر بأن مذياع هذه السيارة سيقفز منه لويس أرمسترونج أو بوب ديلان.

أشارت ميولا إلى مقعد السيارة الخلفي فصاح شارلي:

- رباه..! ما هذا؟ فونوجراف...

أدارته ميولا بيدها اليمنى، وهي تتابع باليسرى القيادة وعلى أنغام every day my papa لبول أنكا قالت ميولا ضاحكة:

- سيارتي لم يتوافر بها مذياع حتى.. فأردت إبقائها تقليدية متقشفة، فأحضرت هذا الفونو من جدى واسطوانات كل أساطير الخمسنيات وحتى بيتلز ورولينج ستونز على اسطوانات كهذه.

ظل شارلي ينظر لميولا في دهشة،بينما تابعت :

- كل مافي هذه السيارة يثير المشاعر ويغذي النفس بسبب تقشفها التقني، فغالبًا الترف التقني ما يخدم المادة على حساب الروح...

فعلبة التروس بها غير متزامنة كما هوالحال الآن، سقفها من جلد (الألكنترا) الفاخر يحرك يدويًا.. لوحة مفاتيحها معدنية، ولا شيء غير مؤشر السرعة...إنها الرفاهية بعينها..

هز شارلي رأسه:

- أنا حقًا لا أفهمك.

بعيدًا ظهر الميناء بأضوائه، واليخوت تتراص حول أرصفته الخشبية والصخرية، ومن بينها يخت فضي عملاق في حجم بناية، كتب عليه بخط ظاهر للعيان (هنا مقر حُكم العالم).

أنشأ هذا الميناء كريم أغاخان الزعيم الروحي للطائفة الإسماعلية لاستقبال يخوت صفوة العالم من الأغنياء، وهو ما عُرف لاحقًا باسم (بورتوشيرفو).

علق شارلي مستنكرًا..

- لم أرَ شيئًا بهذا الحجم قط، كم أنت مسرفة ومغرورة!!

لم ترد، إذ كانت عين ميولا لم تخطيء ماتراه حين قالت، وعيناها معلقة على المرآة الداخلية لسيارة تسلك الطريق ذاته، لكن بهدوء دون إثارة جلبة:

- يبدو أنك أحضرت معك متابعيك، أو ربما كان هناك من يتبعني منذ البداية، كان يجب أن أحتاط لأمر كهذا.

ثم تابعت:

- اسمع..اتبع ما سأمليه عليك..

أوقفت السيارة جانبًا، وبسرعة قفزت على مقدمتها واحتضنت شارلي بين ساقيها وقبلته بشغف بعد أن احتضنته، وأمالت رأسه بيدها، مرقت السيارة بجوارهما كالشهب، وضوؤها لمع كالبرق، لم تتوقف بل أكملت إلى أن اختفت...

أزاحته برفق، وانتظرت قبل أن تقول ساخرة:

- يجب أن تعرف متى سيلدغك العقرب؟

بدت علامات عدم الفهم على ملامح شارلي، الذي مازال مندهشًا، بينما ميولا دعته للدخول إلى السيارة، وقالت، وهى تدير مقود السيارة بسرعة:

- لا تتعجب مما رأيته الآن، إنهم مصورو الفضائح والضوء الذي برق بجوارنا ليس إلا وهج كاميراتهم.

صاح شارلي:

- سحقا..لقد افتضح أمرنا، أنا وأنت ،ثم قطع عبارته وصاح بحنق وغضب كبيرين:

- ثم إنك تطلبين مني أن أقبلك بشكل يخدم نواياهم أكثر؟!!!!

قهقهت ميولا وعلقت عينها على المرآة تنتظر المزيد..

- ليت غيرك من يقول هذا..لقد اتخذتك في وضع العشاق، فحين تظهر لهم صورنا سيتضح لهم أنها لا تصلح إلا أن تكون منشفة ينظفون بها مؤخرتهم.

امتعض وجه شارلي والضيق لازال يكتنف وجه:

- مؤخرتهم..!

فتابعت:

- فقد أخفيت وجهي خلف رأسك، وأخفيت وجهك بيدي، وشعرك الكثيف هذا أجاد دوره، وفي النهاية سوف نظهر على أننا متسكعون على الساحل الصخري، نمارس الحب ولن يتعرف أحد أبدًا على هويتنا، لا تقلق.

استغرق التفكير عقل شارلي قبل أن يقول:

- أتعرفين أن هناك مصورة تدعى (ألسيون جاكسون) مواطنتي تخيلي أنها تستعين بممثلين لالتقاط صور بزوايا وأبعاد يظهر فيها ممثلوها تمام الشبه بمشاهير الفن وإعلام السياسة، لقد رأيت لها ألبومها الأول يضم العديد من المشاهير، أراهن على أنهم أنفسهم يشكون في كون هذه الصورة حقيقية، أعتقد أنه يمكن الاستعانة بها لتشويه صورتنا.

ردت وهي توقف سيارتها الصغيرة قبل مسافة عن كوخها وترجلت منها هي وشارلي:

- لا أعتقد ذلك فلو الأمر بهذه البساطة لما كلفوا أنفسهم مشقة المتابعة وجهد الملاحقة بنا، إن ما تتحدث عنه يصلح لوحة على حائط ليس أكثر.

رد شارلي وهو يخطو بجوارها:

- لكن ما الضامن ألا يكونوا قد التقطوا ما يحلو لهم؟

- لا.. ثق بي أنا جربت هذه الحيلة مرات عدة قبلًا وما خابت أبدًا..

ظهر الكوخ بأضوائه على مقربة منهما، وهما يسيران نحوه في هدوء..حينها سأل شارلي:

- لكن كيف عرفوا بوجودك هنا؟ أليس المفترض أن ما من أحد يعرف مخبأك؟

مررت ميولا يدها عبر خصلات شعرها،وقالت:

- لا أعرف كيف هذا؟ لكن بالتأكيد بسبب اليخت الراسي هناك، إنه علامة مميزة لي.

- إذن ماذا تنوين فعله؟؟؟

غابا في الظلام إلى أن وصلا إلى الكوخ من بابه الخلفي متسللين خلسة عبر الشاطئ.

- لا أعرف أنها إشارة أكيدة على أن أغادر في فترة أقصاها فجر هذا اليوم، وإلا ستصبح صوري أنا وأنت أشهر من إعلانات كوكاكولا!!!

دخلا إلى الكوخ، وألقت ميولا بجسدها على أريكة من البامبوي تلفها جلود الحمير الوحشية، وسقط شارلي بجوارها، والتفكير أخذ منهما كل مبلغ، ثم نظرت له ميولا،وعينها تبرق، وقالت همسًا:

- أتعرف لقد أثرتني حين كنا هناك.

وقفزت تحضنه بين ساقيها وتابعت...

- هل واصلت ما كنا عليه....؟

***

في الفترة الأخيرة التي مرت بها مصر أضحى استقرار الأجانب من حملة الجنسيات المختلفة تمامًا مثل الفترة السابقة على ثورة التحرير إبان الخمسينات...

طبعًا هذا ما كان ليحدث لولا ظروف الانفتاح، لكن ما استقر عليه الجميع هو الحالة المتردية لمساويء هذا التغيّر الذي هدم مبادئ الثورة، وأيضًا استغلال كل من وطأ هذه البلاد بقدمه من أبنائها!!

الذين يجتمعون على ولائم الأجانب، وخاصة الخاصة من رجال الأعمال تتردد خطواتهم هنا بحساب.

كثيرة هي الجمعيات التي تقدم أعمالًا إنمائية في البلدان الفقيرة ولا يقتصر الأمر على مدى أعمالها، بل وعلى تأثيرها في تكوين فكر معين لدى من تقدم إليهم المساعدة.

في بيت آل ميكاروس كان حفلًا تقليديًا لا يحمل أيَّ معالم غرابة، لكن الحضور هم من أثقلوا هذا الحفل بشكل أعطاه أهمية استثنائية ورفعة غير تقليدية، رجال المجتمع وسادته رجال دين، مسلمون ومسيحيون ورجال الدولة، رجال سياسة ومال ودوبلوماسيون سفراء أوروبيون، وحتى رجال الحزب الحاكم، كلهم في دائرة واحدة تجمعهم شؤون خاصة، وأفكار تربطهم بمصالح هامة، وهذا ما يعزي إلى ثراء العلاقات الناجحة والارتباطات التي عادة ما يكون مردودها غير متوقع.

خرج كبير الخدم على الناس ببزته الأنيقة وملامحه الجامدة..

- أيها السيدات والسادة.. رجاء رحبوا بنجل السيدة ميكاروس السيد شارلي إسحاق.

خرج شارلي على الناس ببزته الحريرية من جارافاني.. وطلعته البهية...

كان من بين الناس التي لا تفوت أيَّ ميعاد من مواعيد هذا الحفل رغم عدم ثبات موعده وعدم معرفة قائمة الحضور، كانت نظراته تمشط المكان كماسح ضوئي لالتقاط الصورة المناسبة.

هنا همس الرجل في أذن أحدهم...

- هذا هو المراد...

كانت أمه هي من يدور الحفل في فلكها، في بيت لها إبان استعمار البلاد، على ضفاف النيل بالزمالك، أضف إلى أن أمه هي من تدير الأعمال الخيرية..

بينما هولم يبالِ بأسماء الحاضريين أو مناصبهم، بل صب كامل اهتمامه على أن يخطف أول العلاقات مع الفتى الإنجليزي.

كان اللقاء هنا صعبًا رغم عدم توافر النمامين والمراقبيين والصحفيين حتى ولوبصفتهم الشخصية لا الوظيفية، إلا أن التطلع إلى شخص مثل شارلي إسحاق يعد من المغامرات، بل ومن المخاطرات.

لكن بينما رأسه تغلي في قدر من الأفكار كانت نسمات الهواء العليل تطيب وجه شارلي وأمه التي انفردت به في شرفة القصر.

كان صوته هادئًا..حين سأل:

- كيف تسير الأمور يا أمي؟

- كما ينبغي أن تكون، حتى الآن الكل على قناعة برأينا، بداية بأهل البلد وحتى (أصدقائنا).

- هل من جديد..؟

اقتربت منه أمه..

- نعم، هناك دعم قوي بين جمعياتنا وبلدان غربية، لكن الشراكة المنتظرة هنا من قلب البلد....

قطب شارلي حاجبيه..

- من قلب البلد؟؟!! كيف؟؟؟ أنا أفهم أن ما من أحد سيعمل على إنماء عمل ما دون مقابل!!!

أومأت أمه برأسها...

- أتفهم هذا، لكن يجب أن تعرف أن التوغل هنا يجب أن يتم بمباركة أحدهم، أو بمشاركته عملًا ما.

فهم شارلي ما تعنيه أمه، لكنه عارض.

- لكن أمر المباركة هذا مرحلة تم تجاوزها، ثم إن إدخال أحد في شأننا ربما يضر بما بنيناه.

ردت أمه بسرعة:

- أنا لا أعرض أفكارًا أو أفرض اقتراحات، يجب قراءة الواقع، في الخارج رجل لا ينقطع عن حفلاتنا أبدًا منذ زمن، أتى لرؤياك

والتفاوض معك بشأن تجارة ما لم أجهد عقلي كثيرًا لمعرفتها، وأحسب أنه متلهف لذلك،وأيضًا بيده الكثير ليقدمه لنا.

بعد طول تفكير رد شارلي:

- حسنًا..لا بأس من مقابلته.

أشارت أمه لرئيس الخدم الذي غاب ليحضر رجلًا في بداية عقده الخامس، بقامة متوسطة وشعر أسود كث مصفف بعناية.

شارك شارلي وأمه الجلوس بعد أن صافحهما، وبدأ كلامه بإنجليزية جيدة:

- إن أكثر الأخبار سعادة لي هو حضور سيادتكم في وقت وجودي، إنه حقًا لفخر لي ولكل صفوة مجتمعي أن نتواجد في ظل نجمكم الساطع، أعرفك بنفسي،أنا رؤوف داغر أحد أكبر رجالات الأعمال والمال في البلاد.

بدأ هذا الكلام متحذلقًا لشارلي الذي لم يعجب كثيرًا به، فجاء رده جافًا لا يناسب هذه البداية.

- أهلًا بك سيد رؤوف.

بدأ رؤوف حديثه المحضر سلفًا:

- أود أن أعرب عن نوايا المشاركة التي أتمنى أن تلقى قبولًا من طرفكم، وعليه إذا حصل اتفاق سيكون الحديث عن التفاصيل أمرًا بسيطًا.

- هل لي أن أعرض عليك مكانًا وميعادًا نلتقي فيه؟

بدأ التردد والارتباك على شارلي من هذا المدخل السريع للموضوع، لكن قبل أن يرد، قال رؤوف:

- أعرف يا سيد شارلي أن وقتك لا يسع، لكن قدومك ليس بالأمر السهل تفويته؛ لذلك أعدك ألا تندم على وقت أهدرته معي، هل تقبل دعوتي؟؟؟

تردد نظر شارلي، فمالت أمه همس في أذنه، فرد بهدوء:

- حسنًا.. متى تنوي المقابلة؟

***

كانت ميولا نزيلة بأحد أرقى الفنادق بالعاصمة، كان شارلي على الطاولة المجاورة للمشهد العام للمكان؛ حيث النهر الخالد، لكن ما أن دبت الحركة بالمكان حتى ظهرت ميولا على مدخل المطعم كانت أشبه بساحرات الليل الأسود في العصور الوسطى بأوروبا، متوهجة بملابسها التي تشعر وكأن الهواء يتآكل من حولها، وأن رغبة عارمة تحيط بها، طبعًا اختلاس النظرات إلى صدرها ومؤخرتها الهلالية التي شتت العقول من حولها، غير حذائها ذي الكعب الحديدي الذي أضاف إلى مشهدها إثارة كبيرة لمن لم يلحق رؤيتها، فلم يفوته سماع دقات حذائها المفرط في الغلاء من (روجيية فيفيه) أكثر العلامات الباريسية شهرة في العالم، جلست إلى شارلي الذي لم يخفِ إعجابه بها..

- رغم المعرفة اللصيقة بك أجزم أنيفي كل مرة أتطلع فيها إليك أشعر أنها المرة الأولى التي ألقاك فيها.

تغطبت وجنتيها بحمرة خجل حقيقية...

- وأنا أول مرة أسمع إطراء كهذا.

قطعت عبارتها حين أتت نادلة خمرية اللون،تسأل بإنجليزية بسيطة:

- مساء الخير سيدي،هل تود شيئًا؟

أجاب شارلي:

- قبل العشاء أرغب في نبيذ أبيض ومقبلات.

أجابت ميولا بدورها:

- (تونيك وتر) مع (جراندين الليمون) وأوراق نعناع طازجة.

تابعت ميولا بعد مغادرة النادلة...

- كيف جرى يومك الأول..؟

حك شارلي ذقنه:

- سارت كل الأمور جيدة، بيد أن هناك ما سيطيل وقتنا هنا قليلًا.

همّت ميولا بسؤاله إلا أن النادلة أحضرت ما أمرت به، فتابعت بعد مغادرة النادلة

- هل من شيء جديد؟

- حظي الحفل الذي أقامته أمي بشهرة اجتماعية؛ فقد احتشد لديها كبار رجال هذا المجتمع من أرباب أعمال ودبلوماسيين وغيرهم،

فظهر أحد المناصرين لجمعيتنا الخيرية يود مشاركة والدي في جزء من أعماله، فكرت في التنصل منه إلا أن أمي ألحت في طلب لقائه، وأعطاني ميعادًا في أحدِ الأماكن بالعاصمة.

ضربت ميولا رأسها بيدها

- اللعنة....إذن أنت لن تتفرغ لي.

أشاح شارلي بيده نافيًا:

- لا..لابالطبع، سوف أنهي معه الأمر بأسرع وقت، لن يطول الأمر أكثر من زيارة واحدة وينتهي الموضوع.. أنا أجيد تسيير مثل هذه الأمور...

***

من يحيا في عيشة راضية لا يعبأ بحياة الآخرين، ولا يدرك مدى الفقر والعوز، أما من ولد وعلى بطنه حجر فيظن أن للغنى أبعادًا أخرى أبعد مما يظن.

لكن هالة عبد العظيم تحيا حياة مشتركة بحكم عملها، وبحكم نشأتها في أحد أفقر البيئات، هالة عاملة بفندق يترل به ضيوف من أمثال ميولا وشارلي، على طول الدوام الممتد إلى ثماني ساعات تمرح وتسرح بين تعب العمل ووجوه الترلاء الشمعية، فهالة كغيرها من أهالي مصر الكرام تحيا في أحد العشوائيات.

فالقاهرة كعاصمة تبقى أحد أكثر عواصم العالم تعقيدًا؛ بسبب ما يحيطها من أماكن سكنية لا تخضع للعقل كما لو أن من شيدها مجنون([2]).

كان مدخل الشارع الذي تقطن به هالة رطبًا باردًا كقبو منزل قديم عدا أضواء المحلات التي تسهر عادة في هذه الأثناء

بداية...القهوة إلى اليمين، بها رواد آخر الليل، فالساعة تشير إلى الثانية عشر، وأدخنة المخدر كعادة كثيرين تفوح بالأرجاء، بعدها بخطوات محل القماش لزوج سعاد أبوسلطان.

أنهت هالة خطواتها الأخيرة لتتوقف أمام منزلها، لا.. ليس بمنزل لكنه كذلك في منطقة كهذه...

البيت عبارة عن صدع كبير ممتد على أربعة طوابق، الأخير منها مائل بشكل لا تخطئه عين!! ورغم هذا تسكنه ثلاث أسر..عظيم.. أبنية أخرى بنيت بالكامل من الصفيح والخشب، وكأن الإنسان في ردة للوراء في هذه المنطقة طبعًا، تخيل شكل الخدمات التي يمكن وجودها في بنية سفلية خربة كهذه؛ مثلاً:

---

[2] تقيم منظمة GTZ الألمانية أن هناك ما يقرب من 1500 منطقة عشوائية بقلب القاهرة يعيش فيها ما يزيد على ثلثي سكان العاصمة...!!! وهو مالم تنفيه أيًا من الهيئات الحكومية..بيد أن المشكلة لا تكمن في المناطق الخربة والفقيرة ، ولكن لأن محاولات إصلاح أوضاعها باتت محل رهان على النجاح أوالفشل؛إذ إن العشوائية هنا مركبة؛أي إنها أحياء من صفيح تجاور قصورًا مشيدة .. فكيف حال هذه العشوائيات بأخرى منظمة؟وأين يتم تسريح السكان حتى نهاية إعادة الإعمار؟لذا تزخر القاهرة بكثير من أمثلة الفقر والغباء قبل سوء الإدارة وقلة الموارد ..!!
هنا تخير أنت دون خجل أيًا من المناطق التي تراها مناسبة.

الكهرباء مسروقة من التيار الموصول في الشارع، كثيرون معتادون على ذلك، والمياه تأتي من الجامع الذي يعتلي قمة الشارع؛ لأنه الوحيد الذي به دورة مياه، وماء نظيفة للشرب، وبما أن هذا هو الحال، فمن البديهي أن يغرق الشارع من حين لآخر في مياه الصرف!!

مدخل العمارة لا يستثنى عن الطبيعة الأولى، فالبرد والظلمة يغلفانه، غير أن رائحة بول قوية تشوبها رائحة كحول تلف المكان وكأنه غرفة جزارة عفنة، إنه طارق ابن صاحب العقار وصاحب هذه الرائحة أيضًا، صعدت هالة درجات السلم على ضوء هاتفها الخلوي..كان إسماعيل شقيق هالة الذي يعمل ساعيًا للبريد قد فتح الباب لهالة، فحيته، فرد التحية، وأتبعها بجملة واحدة:

- هالة.. عشاؤك بالمطبخ.. تصبحين على خير.

تقريبًا هذه هي العبارة المعتادة على أذن هالة من شقيقها، وضعت حقيبتها على الطاولة، الشقة ببساطة يمكن تخيلها من حجم البيت، فالشقة ضيقة، ومع بعض الأثاث البسيط يصبح الأمر لا يصدق، فالشقة تجسد فقر البيئة وغباء المصمم، فقد اختزل المساحات بشكل غريب؛ حيث إنه جعل الغرفتين المكونتين للشقة بداخل بعضهما، وهو ما يعرف باسم "الخزانة"، وهو تصميم غالبًا ما يفتقر إلى وجود شرفات؛ لأنها تهدر المساحة الفعلية للسكن، ثم إنها ترف مبالغ فيه...!!

أما الحمام والمطبخ فمن غير الحسن الإسهاب في وصفهما، لكن الأثاث والنظام العام – رغم كل شيء – جيدان، بل إن رائحة عطرة

تنبعث من مكان ما..آه.. لا تنخرط في الآمال، إنها رائحة المبيد الحشري الذي يطلقه إسماعيل في الأرجاء لمقاومة البعوض الذي لا يرحم!!!

في غرفتها الوحيدة التي تطل على الشارع خلعت هالة حجاب رأسها، ليتدلى على ظهرها شعر أسود كثيف، تحسست بشرتها الخمرية وأسفل عيونها البنية وشذبت حاجبيها الرفيعين أمام مرآتها، عادة ماكانت أفكارها مشوشة غير مستقرة، ويطول زمن استغراقها لثبوتها على قرار ما، من خلال نافذتها وضوء مصباح غرفتها كانت تتصفح أحد الروايات العالمية، وتسرح بخيالها مع شخصياتها، لكن أبدًا ما تخيلت أن حياتها ستنتقل إلى بعد آخر أكثر تعقيدًا...

***

العاصمة

لأكثر من ألفي عام طبعت عدة عواصم في العالم القديم بأنها إمارة العالم الغني المتحضر والمنغمس في الفقر على حد سواء، وكذلك الروايات الصادرة من إفرازات شعراء ومؤرخين عبروا عن وضع هذه البلاد، لم يتحروا الوصف الدقيق لها، بل غلبت عليها آراء شخصية وعاطفة جمة أفسدت صورة البلاد لمن انتقلت إليهم، لكن رغم التنوع والاختلاف القائم بين أي منهم تظل مصر بشكل خاص محكيًا عنها في أساطير الراويين حتى إنها كانت رسالة إلى الأنبياء، وموضع كلام في الكتب المقدسة، ورغم الأساطير والأحاجي، وهى ما شكلت صورة مصر المعاصرة من تاريخ وأحداث مهولة مرت على بلد كان في يوم ما عاصمة لبلد ضارب في القوة، لبلد ضعيف واهن يتبع الكثير من الإمبراطوريات في شكل ولاية أو عاصمة للغلال أو المحاصيل المعاشية، إلا ما من أحد يصدق وضع هذه البلاد الآن.

إنها حقًا...مرثية...بل إن الرثاء لا يجدي شيئًا.

كان محل اللقاء هو نادى العاصمة بحي جاردن سيتي الحي القديم في القاهرة، كواحد من إبداعات السكان الأجانب في البلاد، وأيضًا كأحد الأحياء التي تزكي نار الحقد في أوساط الشعب الفقير الكادح موعد اللقاء كان في الثامنة مساءً، ومحل المجلس هو نادٍ من نوع خاص جدًا، نادٍ ليس له نظير فهو أشبه بحصن مانع جامع لصفوة الأغنياء في البلاد من أشباه وأنصاف الأثرياء، فهو بمكان لا يناسب أحدًا من الأثرياء الأعضاء، أن يشاهد صحفيًا متجولًا فيه أو فنانًا ممثلًا أو مغنيًا كان، بل يجب أن ينتمي لطبقة العلو والثراء أولًا، ولا يهم ما التالي...

المكان هو آخر بناية شاهقة بأفخم أحياء القاهرة، مجاورًا للسفارة البريطانية، تم افتتاح النادي في عام 1997 م، وهو يسع لأكثر من 2000 شخص، وبما أن الأماكن محصورة فقط على أناس معينين من قبل، فقد كان من ضمن شروط النادي هو عدم التواجد لمن هم أقل من سن الرشد القانونية، وعدم ارتداء الأحذية الرياضية أو سراويل الجيتر المعتادة، قائمة طويلة لا بأس بها تقف كمصفاة للدخلاء..أهلًا بكم في نادي العاصمة.

توقفت سيارة بينتلى بروكلاندز عشبية اللون بجوار السفارة البريطانية ترجل منها فتى طويل يرتدي بذة سوداء حريرية، وكذلك قميصها وربطة عنقها من (انيا جوكيل).. بيد أن الشيء الوحيد الذي عكس الأضواء الخافتة القادمة من أطراف الأماكن في هذا الثوب الكاحل، هو صليب ملكي من الماس يزين ياقة بدلة شارلي إسحاق، الذي انحنى له كل من رجال الاستقبال كتقليد معتاد مع أعضاء النادي الكبار، في أروقة المكان، حيث الأضواء المبهرة وتماثيل عصر

النهضة البرونزية في والأركان كانت خطوات شارلي رصينة حازمة غير متغطرسة، ما إن فتح له مدير القاعة الرئيسية حتى هبَّ رؤوف من مجلسه بين رجالات الأعمال والأصدقاء، وصاح بالعربية :

– مرحبًا..أيها السادة..من فضلكم رحبوا بالسيد شارلي إسحاق، نجل اللورد إسحاق ميكاروس.. إنه لشرف أن يكون ضيفي هذه الليلة.

تقدم رؤوف داغر نحوه وتابع بالإنجليزية:

- مرحبًا سيد شارلي إنه لعظيم الشرف أن نكون في استقبال سيادتكم، إنك من أهم من حضر إلى هذا المكان منذ افتتاحه.

رد شارلي بأسلوب مهذب، بعبارات الترحيب والمجاملة بعدما استقر به المقام على مقعد مذهب أطرافه برقت من الذهب، استعانوا به خصيصًا لهذه المناسبة.. وكأن ملك الجزر البريطانية محل الضيافة.. لكن الأمر أهم وأكبر عند رؤوف...

في الشرفة الخارجية المطلة على ليل القاهرة الذي زينته أضواء من هنا ومن هناك كاشفة أبعاد الأماكن بوضوح، وكأن الحكمة أوجبت أن العلو من سمة الأثرياء يطلو على الأشياء من علٍ.

كان الحديث في البداية عن الأجواء الاجتماعية والفوارق بين هنا وهناك، والتاريخ المعاصر المشترك الذي لا يسر أبدًا، حتى أخذ الحديث المنحنى الجدي الذي أراده رؤوف داغر كبداية لحديثه، فقال، وهو مستند على متكأ المقعد الخيرزاني:

- لكن لا تزال انجلترا تلعب في ظل النظام العالمي الدولي لم تعد تفكر في الهيمنة،كما كان الأمر سابقًا...

ردَّ شارلي بهدوء:

- أكثر الأشياء ثبوتًا في الحياة هو التغيير، أليس كذلك ؟

ضحك رؤوف، وأكمل:

- أنت محق، إلا أن بلدًا كهذا غنيًا بالمصارف وبالمعاملات التجارية الناجحة ليس من السهل تجاهله، لا أخفي عليك أني كنت متابعًا لأعمال والدك في هذه الفترة من العام، وأحسست بشعور جيد لو أن شراكة من الوصل التجاري والاستثماري في أعماله التي تتخطى الحدود قد تدر الكثير، ففي حالة الموافقة سيكون هناك كامل التفاصيل عن حياتي المهنية وثقلي بالبلاد هنا...

والآن هل سمعت رأيك؟

منذ البداية وحال رؤوف لا يعجب شارلي كثيرًا.. لكن بما أن العمل أوجب التعامل مع الآخرين حتى وإن كانوا غير لطفيين فلا بأس، فرد شارلي:

- مقدمًا سيد رؤوف..إن ما تتحدث عنه ليس من اختصاصي، بل هو من اختصاص صاحب الشأن، ومهمتي هي إدارة أمواله لكن علي أن أوضح لك ماهية والدي، فهو من النبلاء، وعلى صلة بحكام البلاد، ورغم هذا فهو عصامي،بنى نفسه وعلاقاته من لاشيء،بجهد لا يصدق؛ لذا سوف يتفحص ويدقق في كل صغيرة في حياتك.

دون تردد رد رؤوف بثقة:

- وأنا لها جاهز.

قال شارلي، وابتسامة استخفاف على شفته:

- لا لن يسأل فحسب، بل سيطلع على كل ما يخصك في حياتك العادية وسيعرف أكثر مما لا تود أن تخبرنا به.

بدأ أسلوب شارلي لا يعجب رؤوف، فبادر بسؤاله:

- سيد شارلي أشعر بعدم ثقة، وهذا لا يبشر بالخير.

اعتدل شارلي في وضعيته،وقال:

- في الحقيقة سيد رؤوف نحن نكن لك وافر الاحترام خصوصًا لدعمكم لعملنا التنموي في البلاد وهو ما يعطى لكم صورة براقة قد تنفع في انتخابات أو ترشيح لمنصب ما، وأيضًا ما يدفعنا نحو عمل المزيد، لكن في الجانب العملي فأنتم معشر الأثرياء العرب في غالب حالكم لديكم بعض السلوكيات غير الحميدة...

فمثلاً: التهرب الضريبي لديكم قاعدة ليس استثناء وهذا أمر لا يخفى علينا، وهو ما لا يحدث هناك في بلاد الضباب، حيث إن الأمر مختلف تمامًا، فالله هناك من سيحصي عليك خطواتك ويتبع أثرك كصياد يلحق بطريدته.

شعر رؤوف بجرح كبريائه فاستعرض بما لديه قائلًا:

- من تظنني سيد شارلي؟؟ أنا لست صبيًا، أنا واحد من أهم رجال المال والأعمال هنا في البلاد، وثروتي كفيلة أن تضيء نجمًا

خاملًا..!! وعلاقتي بالطبقة الحاكمة أقوى من علاقتهم بأزواجهم!! لا تخشى شيئًا فأنا أعرف أيضًا الكثير عن والدك وعنك أنت أيضًا، وعن طباع الحياة المالية هناك وهو ما أود خوض غماره.

أومأ شارلي برأسه وأجاب بسرعة :

- على أي حال كل هذا يثير الشكوك أكثر، ثم لا يعد إلا بداية تتوقف أو تنمو حسب ما يحدد والدي وشركاه، فاعلم جيدًا أن في كل وقت سيتتبعونك كخرتيت يقتفي أثر بول أنثاه!!!

رد رؤوف مندهشًا :

- بول أنثاه!!!

تابع شارلي بدون تعليق...

- لكن دعني أخبر والدي بنواياك هذه.. لكن ليس قبل أسبوعين من الآن..

رد رؤوف بسرعة:

- أسبوعان؟؟؟ هذا كثير، إن أمورًا كهذه لا تتأخر أبدًا.

أومأ شارلي برأسه:

- لكن أعمالي هنا لا أود إفسادها بالسفر والانقطاع، أضف إلى أن أمورًا كهذه لا يمكن التحدث بشأنها عبر الهاتف، والآن أعتقد أن موعد رحيلي قد حان سيد رؤوف.

صاح رؤوف:

- لِمَ العجلة؟ أرى أنك تسارع إلى الرحيل.

ضحك شارلي:

- لا تقلق ولاتتسرع.. إنك تتحدث وكأن اليوم بلا غد.. أراك لاحقًا..

غادر شارلي النادي بعد بضعة دقائق هي مدة الحوار بينه وبين رؤوف الذي جلس وعقله يعمل كمحرك توربيني، فقال محدثًا نفسه:

هذا الشيطان محق، فالانتظار يجعل الفرصة أكثر نضوجًا.

***

كان شارلي منتظرًا ميولا بالمطعم الرئيسي للفندق،وكعادها.. عاصفة من الأنظار والهواء الملبد بالشهوة ورائحة العاطفة تنساب من طيات ثيابها، قبلته وسط نظرات المتطفلين الخاطفة، حتى ألهبت فؤادهم وأحرقت شوقهم، كان الكلام دائرًا بينهم وموسيقى أغنية **dancing queen** لفرقة ال **abba***[3].

****

[3] فرقة الabba الفرقة السويدية التي تلقت عرضًا في الأعوام الأخيرة لحفل يجمع أعضاء الفريق المشتت لقاء مليار دولار،لكن لم يوافق أي من أعضاء الفريق!!!

قالت ميولا، وهي تتابع المشهد الخارجي للفندق:

حسنًا كيف جرى لقاؤك مع شريكك..؟

رد شارلي وهو يتابع المكان من حوله:

- كان لقاءً سريعًا لم يسفر عن شيء... فمن كنت بزيارته كان رجلًا ممن يدعمون مشروعنا في البلاد ولكنه يود مشاركة أبي.

وضبطت ميولا خصلات شعرها بأظافرها...

- هل تراه جديرًا بشراكة أبيك؟

قال شارلي، والتفكير العميق يغلف وجه:

- لا أعرف، لكن ما قد نكسبه من ورائه هو دعم أكبر..ولكن..

نظرت له ميولا تنتظر المزيد، فاستطرد شارلي..

- إن الأمر معقد أن يكون من بين عمالك واحد عازم على مشاركتك مالك.

ضحكت ميولا وهي تتابع شارلي، ونظرات عينه تسأل عن سبب ضحكها المفاجئ، فقالت:

- أتعرف يا شارلي ما صدقت يومًا أن أكون من المتدينين، فأنت تحارب بالمال والخداع لتنشر فكرة أنت على قناعة بها دون غيرك، وكأنك تقول: (أنت خذ هذا وخذ هذه واتبع ملتي).

أليس في هذا تحايل على ظروف الناس؟؟ أليس أولى أن يدفع ربك بنعمه إلى من لا يصدقون بوجوده؟؟؟

طالما كانت هذه نقاط الخلاف بين شارلي وميولا، فقال، والضيق على أحرف كلماته يتطاير:

أولًا:

أنت آخر من يتحدث عن استغلال البشر، أما أن يدفع الله بنعمه ليصدق به الناس فأنت في قمة كل شيء جمالًا وغنى، ونسبًا أصيلًا، ولا تنعمين بنعمة الإيمان، ثم إن العبد عبد نفسه ما لم يتخيره الله عبدًا له؛ لذا يجب أن ننشر تعاليم الرب بالعظة والإصلاح، وكل مكان يَطؤُهُ الإنسان المؤمن يجب عليه أن يزينه بذاكرة حسنة وأعمال طيبة وهداية الناس إلى طريق الصواب.

هزت ميولا رأسها غير مقتنعة بما قاله شارلي، فسألته وهي تشير للنادلة:

- ألا تود أن تأكل شيئًا؟؟؟

فأجاب شارلي حين اقتربت منه النادلة:

- حسنًا..هل لي بعض المنغوليا مع قطعتي زبد من فضلك..؟

استهجنت ميولا ما طلب،وقالت:

- حسنًا..ضلوع الخراف وحساء العدس مع الخبز المحمص..

أومأت هالة برأسها مغادرة إياهم،فقالت ميولا ساخرة:

- منغوليا..! ليت أحدا غيرك طلب شيئًا كهذا..أتعرف؟ الطعام هو القاسم المشترك الوحيد بيننا وبين أفقر الناس، فأنت هنا في نزل فخم تطلب ما يأكله الفقراء في الصين..

اتكأ شارلي بمرفقيه على الطاولة:

- تمامًا مثل سيارتك الصغيرة،ألم تقولي ذات مرة:

إن هذا ترف ومرادف للرفاهية..! تمامًا أنا اخترت الطعام الرخيص، إذا كان بالإمكان أن أنتقي أجود وأشهى الأطعمة، ثم لَم لا تقولين: إن الترف هو مبدأ الاختيار من بين الأشياء، حتى ولوبدت فقيرة؟؟؟

إن الأمر يتعلق بالصحة العامة وأمراض المعدة التي يصاب بها مفرطو النعيم أمثالنا، لكن للفقر ميزة وهي الحماية من وعكات البطن التي تؤرق حياة كثيرين.. أما عديمو الحيل فليس لهم شيء سوى ما تجود به الظروف، لكن رغم هذا نبقى محل حسد الآخرين، ليس كل غني سعيدًا، ولا كل فقير محتاجًا، لكن الكل يحب أن يحظى بفرصة الثراء.

كانت رائحة العدس والخبز المحمص والمنغوليا.. أشبعت رغبة الجوع قبل الشروع في الأكل.. فبرم شارلي ورقة مالية ودسها بين أزرار قميص هالة التي قالت:

- إنه كثير..كثير جدًا سيدي.

- الخدمة الجيدة والسريعة لا تقدر بثمن..شكرًا.

- شكرًا سيدي.

بدأت ميولا بتنأول طعامها وهي تلتفت بعينها في أرجاء المكان.

- بالمناسبة..أنا هنا في موقف حرج..

مط شارلي شفته..

- لا أفهم..ماذا تقصدين؟

فردت ميولا:

- إن وجودي هنا قد يثير الأنظار، ويجب أن تعرف أنني سأبرح هذا المكان قريبًا جدًا...أراهن أن هناك من يراقبنا الآن.

اعتلى الاستغراب وجه شارلي:

- وماذا أنت فاعلة؟

فأجابت،وهى تقضم لحم الخراف:

- بعد فترة وجيزة سوف أستقر على عرشي المرمري، حتى أنزوي عن أنظار الطفوليين، وأيضًا كي لا يتبع أحد أثري ويعرف بمكاني.

أفرد شارلي الزبدة على طبقه،وقال شاردًا:

- يبدو أنك تصرفتِ سريعًا..ووجدتى مكانًا للاختباء...

قالت وهي تنهي طعامها:

- أنت ستكون أول المدعوين أليس كذلك...؟

قال شارلي شاردًا:

- بالتأكيد..أنتهي من عملي أولًا،وسأكون أول الحاضرين.

***

لطالما كانت العواصم لا تضج بأهلها، لكن نزوح الناس وخاصة من هم من الطبقات الدنيا إلى بلدان أخرى سعيًا وراء الرزق، بحيث بات يشكل أغلب أصول سكان العواصم من قاطني الأقاليم، وعواصم كبرى في العالم تُعاني من هذا الزحف الآخذ في النمو، حتى أعلن أخيرًا في عام 2007 أنه، ولأول مرة في تاريخ البشر، وعلى مر البلاد والبلدان ازداد عدد قاطني المدن على ساكني الريف، وأن الحضر افتقد خلال هذه العملية كثيرًا من رونقه بعد أن تاه أهله، وخربت مرافقه بسبب عدم توسيع جهدها على توفير الخدمة لعدد يفوق أي احتمال؛ لذا خرجت عواصم كبيرة شهيرة في العالم من كونها أحد أفضل الأماكن توفيرًا للحياة المعيشية من عمل وإقامة، وظهرت عليها أماكن كانت أصلًا قرى أو حتى أماكن نائية فوق قمم الجبال..!

مصر..أحد أكبر معاقل الهجرة الداخلية في العالم، وهو السبب في ضعف نمو اقتصادها بسبب سوء الإدارة، وتوزيع موارد المخرج النوعي للبلاد على البشر، بحيث يظل مستوى الهجرة في حدود المقبول، لا يكون الحل هو التروح إلى العواصم؛ لذلك تزخر القاهرة أهم وأكبر العواصم البشرية بأطياف من البشر غالبيتهم إما مهاجرون، أو أبناء الجيل الأول من المهاجرين، وهو ما يجعل نسبة المساحات العشوائية عظيمة بما يقترن بها من المساحات المخططة، كقزم يلهو في ظل مارد يحتضن ملايين البشر، في حين يظل السكان الأصليون كفتات ذائب في حوض كبير...

هنا المشردون والعاطلون وأرباب الأعمال الفاحشة يجدون ضالتهم في منشأ الفساد والقهر والظلم وعدم المساواة في العشوائيات التي خرجت لتطبع ملامحها العشوائية علي عاصمة مصر، أيضًا لا يتأثر أهل الريف بصفات أهل الحضر، كثيرًا في الجو اليائس هذا، بل إنهم من يصوغون قوانين تتماشى مع ما اعتادوه، فحال المناطق الشعبية ذات الخدمات المنسية تتشابه وحال النجع النائي؛ من حيث طباع بشرية بدائية، وعقول منغلقة، ونفوس معقدة، لكن وسط هذا الغمام المعتم تجد أيضًا من يشق الطريق صوب الحياة الكريمة...

هالة عبد العظيم واحدة من هؤلاء الناس الذين زحفوا مع أخيها إلى القاهرة لعل الفرصة الذهبية تستقبلهما هناك، وهذا ماحدث بعد أن استقبلهما أحد المهاجرين الأوائل، وهو خالهما العامل بأحد القطاعات الحكومية في فترة كانت الأعمال والشركات التابعة للدولة ذات مقياس للعيش الرغد، لكن من بعيد يظل المشهد العام مربكًا غير واضح الملامح.

كان لعيضا الأحف صبية ورجال وحتى نساء ينقلن له الأخبار.. فقد كان عيضا الأحف مالك لعصارة القصب بشارع طويل مظلم اللهم عدا الحوانيت البائسة التي تستضيء بأضواء خافتة، أضف إلى أن السيارات التي تقف عند ناصية الشارع والتي أصبح أصحابها مشردين بعد أن فقدوا عقود أعمالهم لشركات الأعمال الخاصة فما الحل غير أن يحولوا سياراتهم إلى أجرة لسداد أقساط السيارة نفسها، لكن فضل الأحف كبير على كل من يتبعونه فهو مالك الأشياء كلها

تقريبًا، ومن يسدد دينه يسدد الأقساط بفائدة تمامًا كالبنوك وهو ما يدر عليه مالا يحجمه عن أن يكون كالآخرين، بل هو سيد القوم وأعلاهم شأنًا، وأيضًا في هذا الجو المريب الفاسد لا يحتاج لتبرير ما يفعله أو تأويل تجارته، بل إن الظاهر هو أن القروض ترد بربا، وهو ما يجعل له مكانة أكبر من كونه مجرد رجل مال، بل كان أيضًا – صاحب عقل إجرامي يخشى الجميع الاحتكاك به، أو المثول أمامه في موقف تضاد، أيضًا هذا ناتج عن عقلية الاستكانة والانكسار التي تنشأ مع الظروف الحياتية السيئة، وهو أن الجميع في منأى عن المواجهة خوفًا منه وأن هناك حتمًا من سيأتي لطرحه بعيدًا، لكن أبدًا ما أتى شخص ليفعل..؟!

بسرعة كانت خطوات هالة تتجاوز السيارات وبعدها عصارة الأحف ومن ثم المقهى وبعدها عدة دكاكين أوشكت على الإغلاق، وأخرى ساهرة صعدت سلم بيتها كالعادة على ضوء هاتفها الخلوي.

تطلع طارق برأسه من يكون القادم؟؟؟ فوجدها هالة فاطمأن، ففتح بابه بارتباك، وأمسى على هالة التي حيته..رغم هذا سألها:

- كيف حالك ياهالة..؟

- بخير يا طارق..أرجو ألا أكون أزعجتك.

ابتسم مرتبكًا:

- لا أبدًا على الرحب..

سأل هالة:

- معذرة يا هالة..هل أبدى أحدهم أي إساءة لك..؟

هزت هالة رأسها نافية،فأومأ طارق برأسه..

- حسنًا..لو حدث مكروه ستجدينني في الجوار.

قالها، وصعدت درجات سلمها المتهالك، وسمعت همسات دائرة بينه وبين إحداهن، كانت هالة تعرف أن طارق غالبًا ما يكون مضاجعًا لإحداهن، وأنه الآن يحاول تمريرها في هدوء.

لم تهتم كثيرًا..فتح أخوها إسماعيل الباب ودعاها للدخول، كان البيت مرتبًا، فلاحظت أن أخاها شارد الذهن لم يخلد لنومه ثانية، بل إنه لم يكن نائمًا.

- لقد تجاوز الليل منتصفه بنصف ساعة..! يبدو أنك لم تنم.

نهض إسماعيل، وجلس بمواجهتها..

- نعم..لم أفعل، فقد شغل بالي أمر هام منذ عودتي من العمل، لقد زارتك سعاد أبوسلطان..

نهضت هالة وخلعت حجابها أمام المرآة لتنسدل جدائل شعرها الأسود الطويل،وقالت غير عابئة:

- أهذا ما أقلق نومك..؟لا تقلق سوف ألقاها غدًا.

رد إسماعيل:

- ألا يقلقك هذا؟. على كل حال لك حرية الاختيار، أنا لا أستطيع أن أجبرك على شيء.. فأنت بالطبع على دراية بما أتت سعاد من أجله..كان الله في عوننا.

قالها وتركها أمام مرآتها...

هذه ليست المرة الأولى التي تزور فيها سعاد هالة لكن ما تطلبه سعاد أيضًا مستحيل.. فالأحف لا يعرف أحد في محيطه لم يخضع لنفوذه الربوي القاسي عدا هالة وأخيها إسماعيل الذي لا يجرؤ حتى على رفع عينه بمواجهة شرير كالأحف.. لكن ما يطلبه هو هالة نفسها، التي يراها أفضل نساء العالم قاطبة، لكن ليس لأنها جميلة خمرية الملمح أو كروية الصدر، بل الأهم من كل هذا هو ضعفها ووهن سندها، لكنها لا تقتات من رزق هو سببه..!!

هذه الندية تثير حفيظة الأحف وهي عكس كل المحيطين به الذي يقبض على أنفاسهم بالربا إلى يوم يحشرون...لكن بأي حيلة ينفذ إلى هالة وأخيها؟

كان الصباح التالي مشوبًا برائحة الصرف..ياله من صباح..!!

كانت عادة ما تستيقظ هالة صباحًا لتعد لأخيها الإفطار، وتلحق بعملها بعد الظهيرة، لكن هذا الصباح لم تنعم بنوم جيد بسبب محرك سيارة السحب الهالك، وهديره الذي يطن الآذان..!

كانت السيارة في دورتها الأسبوعية تأتي حسب الميعاد لكسح ما في قاع المسجد من مياه صرف..الغريب أن المناطق العشوائية طفيلية

في خدمتها، فهي لا يصلها الماء إلا من خلال صنابير عمومية تتصل بما يتصل بالأحياء الراقية لكن الصرف بدائي وغير صحي، بل هي غرف كبيرة تحفظ ما تحفظ من صرف ولا تصرف إلا بكسحها وشفط ما في قعرها.. كل هذا من لدن فكر حكيم لنظام إداري رشيد...!!!!

لكن المسجد هو بقعة الاتصال بالناس فهو ليس جامعًا بالمعنى البديهي، بل هو كل شيء عدا الصلاة!!!!

فالمشردون يتخذونه مأوى لهم، وغالبًا لا يُرفع الأذان إلا في أيام الجمع، ليس للعبادة بداهة بل للوجهة الاجتماعية التي يصبغ الناس أنفسهم بها، لكن الأهم هو النفع الواقع على الناس من الجامع؛ فالتيار الكهربي، والمياه تأتي منه بشكل شبه مستمر.

لايزال محرك السيارة يهدر بحشرجة كمن على حلقه حجر.. حان موعد مغادرة هالة لبيتها.. كان الشارع تسري فيه المياه بشكل يتعذر معه السير، أضف إليه الوعورة وعدم التمهيد، فبات من المستحيل أن تعبر هالة حتى باب المترل، على جانب الطريق المائي وبمحاذاة البيوت والحوانيت..شقت هالة طريقها ما إن وصلت إلى ناصية الشارع حتى نادت بها فتاة لا خمرية ولا بيضاء ممشوقة من لباسها تبدو الأهمية التي لا تخفيها أضف إلى المصوغات الذهبية التي أثقلت طرفيها وعنقها، عيناها حادتان بفعل الكحل الذي طوق جفنيهما، وأحمر شفاه فظ فجعلها أشبه بملكة القلوب بعالم (أليس) الخيالي.

هذه هي سعاد أبوسلطان التي أوقفت إحدى السيارات بإشارة منها، فما أن توقفت حتى اتسع ثغرها بابتسامة عريضة لهالة...

- ظننت أن أعمال الكسح ستعطل يومك..

- إنه أمر اعتدناه منذ زمن.

- هل أوصلك إلى وجهتك..؟

بدت الشوارع ككل الشوارع والطرقات المصرية تتحور من سيئة إلى جيدة، ومن ثم إلى جيدة جدًا.. من حيث البنيات والتمهيد، حتى أشكال البشر، إنها نمطية الحياة المشوهة التي تخلط بين ما هو عشوائي ومنظم بشكل تشعر أن كلًا منهما يحتضن الآخر..كان الحديث دائرًا بين هالة وسعاد حين قالت الأولى:

- لا أعتقد أن هناك حاجة ملحة لاصطحابي بسيارة لعملي.

- إن ما أنوي الحديث عنه ملح أكثر من أي وقت مضى.

وضبت هالة حجاب رأسها بمرآة مقصورة السيارة في حين تابعت سعاد

- أرى أنه من الضرورى جدًا أن تنظر الفتاة صاحبة العقل الراجح، إلى من يود خطب ودها، وأعتقد أنك كذلك.

- لا أعتقد أن المكان مناسب عن الأحاديث الشخصية الآن يا سعاد.

كان الفندق ببنايته الشامخة بدأ يظهر في الأفق...

- من قال إني سأفعل... الأمر كله خدمة ومحبة لبنت بلدي التي أراها دائمًا في حال لا يليق بها...

كانت السيارة تتجاوز الأماكن والسيارت الأخرى بسرعة فوقفت بعد أن اجتازت إجراءات الأمن أمام الفندق النيلي...

- حسناً ياهالة أراك الليلة..وليكن نقاشنا باستفاضة دون تلميحات.

- حسناً.

ضحكت سعاد بصوت هائل، وقالت:

- إنه فعلًا كذلك.. لن أكل من ملاحقتك...وداعًا...

ضربت على باب السيارة من الخارج فدارت السيارة بلفة واحدة عاكسة اتجاهها.

هالة تفهم جيدًا ماتعنيه سعاد وهي كمدينة محاصرة بقبضة ناعمة لكن ببساطة قادرة على عصرها..! لكن بأي شيء تفك هذا الحصار؟ وهى أهون من قشة في ربطة حطب.. لكن مالبثت أن تبخرت الأفكار من رأسها وغاصت في عالمها المترف.

***

هذا الجانب من الجحيم..!

لا يلتقى المار بالأحف إلا فيما ندر عابرًا لطريق أو مارًا ببيت فهو من المشاهد غير المعتادة.. تمامًا كمن يرى فتى سينمائيًا يجاوره في الزحام، أو أحد الأماكن العامة!!

لكن لا يغيب على الأحف أن يظل على رباط مع المحيطين به.

حتى يندمج وسط جموع الناس ولايفقد ارتباطه بهم ويظل مسيطرًا على مجريات أمورهم.. وأكثر ما يربط الناس بالأحف هي صلاة الجمعة!!! رغم أن ما من أحد يهمه أن يكون مصليًا أوعابدًا ناسكا.. لكن حين يحضر الأحف صلاة الجمعة تنحر الذبائح وتقام الولائم،إذن نداء الحاجة هو ما يجمع الناس بالأحف..لكن لا صلاة ولا عبادة!!!!

صباح الجمعة.. حيث الحشود المتكورة فوق بعضها.. للصلاة الظاهرية.. كان الجامع في حلة جديدة جميلة، فلا نيام ولا متسكعين، ولا أي من الأشياء التي تعوق الصلاة، فمكبرات الصوت والقابس الصوتى ودورة المياه والسجاد الجديد والأعمال التي لا تتوقف في ترميم الجامع وإقامة مرفق لمشفى الجامع أمور عادة ما يتم بها حصد قلوب الناس،مشردين وعاهرات وبسطاء ومرابين وشيوخ ومتعجرفين، أطياف من البشر لا تجدها إلا في تكدسات عشوائية مشوهة، لكن الجامع الوحيد لهؤلاء هو الدين والتمسك به كأحد الصور الاجتماعية التي لا مناص منها، حتى لو كنت تعرف أن ما من أحد سيحاسبك على صورتك هذه.

صورة وردية للجامع الذي ستقام به شعائر صلاة الجمعة التي سيحضرها الأحف!!!

هنا يأتي الأحف على جمع المصلين، حتى إن أحدهم شطح، وقال إنه لا صلاة إلا بالأحف...!!

خطبة طويلة تمل منها العقول وتنصرف عنها، وكلها أمور لا تدل إلا على فراغ المعنى وركاكة المضمون، وبالطبع مبالغات لا تحصى عن أحداث لم تحدث، بل أخذت الخطبة صورة الراوي في النجوع يتحدث عن علي أو محمد، كمن يتحدث عن عنترة العبسي أو أبي زيد الهلالي، أساطير الأولين...كلها لجذب عقول الجهلاء!!

بشارب رفيع أسفل أنف كبير وعينين جامدتين وكتفين عريضين يغطيهما وشاح من قماش ثقيل، أسفله جلباب أبيض، سار بين الناس وجاور أحدهم بالصف الأول المحجوز له مسبقًا.. بإشارة من يده قطع الخطيب خطبته بشكل واضح وبدأ بالدعاء ليس للقتلى الفلسطنيين ولا لإخواننا في العراق وأفغانستان، أو ببعث طير أبابيل على قوم يكفرون، بل النداء كان بالمدد في روح الأحف والاستعاذة به في كل الأمور واللجوء إليه حين الحاجة، أصبحت الخطبة والدعوات كصوان انتخابات!!!

وأقم الصلاة.

بقامته الطويلة نهض فتسقط الأنظار على صاحب القامة، إنه الأحف، وعلى عكس الخطبة انتهت الصلاة سريعًا، حتى لا يمل صاحب المولد الديني؛ فالأحف كوثن معبود في ظل دين شوهته أفكار

أتباعه، كل منهم حسب ما يراه، لكن الأهم من الدين أو صلاته هو ما بعد ذلك...

ذبائح الأحف يموج بدمائها الشارع تكاثرت الناس عليها لتدعو للأحف بطول العمر والاستعاذة به عند الحاجة، على أنه صنم، أو إله واجب على الخلق اتباعه من دون الله الحق، وهذا ما يدعو الناس إليه؛ ففي ظل جوع وحرمان تتبدد القيم وتلغي مفاهيم المنطق، فيصبح الدين كغيره من الأشياء التي يتخذ منها منبرًا حرًا، لكل من يصعده أن ينبئ الناس بخبر يخيفيه، مدعيًا أن خير القول هو ما يتفوه به، فإما أن تعزف الناس عنه، أو تجيء بعقولها المسطحة وأمعائها الخاوية، فتتشكل حسب ما يصيغه ويأمر به...

لا تجد من يشكك في الأحف ولو للحظة، فلا تفكير، ولا عقل حاضرًا، بل الحواس والغرائز تغمرها الخيرات مما يحل بالدين والعقل في مراتب لاحقة، دماء على الأرض، وقرآن من مكبرات الجامع، وحشود من الناس تلطخ نفسها بدم الذبائح، وهو ما تعارف عليه الناس في مثل هذا العرس...

المنطقة تضج بهذا الصخب والصراخ والفرح والجنون، ونهش الكبد حيًا، أيضًا تمسكًا بأحد مظاهر الدين، وأنه سنة عن الرسول الكريم الذي دعا الناس بالصدق والاعتدال، فراح الناس إلى المغالاة فيما دعا فانشقوا عنه كأن أنبياء جددًا قد حلوا بالناس...

أقرب الصفات الحيوانية للإنسان هو الإنسان نفسه!!

في غرفته خلف العصارة الفقيرة التي لازال محافظًا على كونها عصارة صغيرة، لا تسمن،ولا تغني من جوع.. كان الأحف يراقب الناس من خلف زجاج نافذته، حال ما دخل عليه صبي العصارة:

- سيدي..الست سعاد تود الدخول، هل أذنت..؟

أشار بيده دون أن يستدير، فمشهد الناس حول الذبائح يستغرق كامل عقله، كأن تفصيله سطر لتوها..لا يريد تفويتها...

سعاد بقامتها الطويلة وعيونها المكحلة وثيابها الفضفاضة، وأساور يدها البراقة، جلست تتطلع للأحف الذي كان يتابع ازدحام الناس على الذبائح، كقط يتربص لصيده.

ما إن مل النظر حتى استدار بمقعده الدوار.. بسبابته وإبهامه، يداعب طرفي شاربه الرفيع، وتحدث دون مقدمات:

- لا جديد..الأمر كما هو لاحراك فيه منذ آخر مرة، ولا شيءَ جديدًا، أنت أحسن من يفشلن.. لو اعتبرنا أن الفشل حسن ارتباك ورهبة وتوتر شحنوا الجو خاصة مع نبرته الهادئة، فجاء صوتها ونظرات عينها تتحاشى السقوط عليه.

- ليتك انتظرت الأخبار السارة... فاليوم هو الفصل فيما نخططه، أبشر ولا تتعجل.

بنفس اللهجة، وعيناه جامدتان:

- حسنًا..أراك مساء، وخبر جاد بين يديك..

غادرت العصارة، وقد تلوثت واجهتها بالكفوف الملطخة بالدماء، كانت غاضبة، لا تجد طريقًا سالكًا لهدف الأحف...

أفسح لها الجميع الطريق، وهي حائرة، وعقلها يغلي، دون منفث، الأحف يريد شيئًا أبسط من أن يشغل رأس بعوضة،هالة.. يراها الأجمل والأفضل، وأنها الشيء الطاهر كالندى الذي سيغسل به ما اقترفه من آثام..

الأمر يبدوكساحر مسخ كل المخلوقات إلى مسوخ مشوهة، لكن يبقى سر بقاء حياته في دموع أميرته التي لا ترغب في الاقتراب منه، ورغم هذا لا تملك من القوة إلا...لاشيء..لاشيء البتة...

بأفاعيل الساحر وألاعيبه، لم ينجح الأحف في الذهاب إلى هالة، ومواجهتها بما يرغب فيه، ربما أن الأسطورة ذكرت أيضًا أن الساحر لا يقوى على الظهور وسط الناس، فالأحف بظروف نشأته الغليظة والفظة يستكبر أن يتودد لآل عبد العظيم، ويصاهرهم مباشرة، بل يسوق كل من له علاقة بهالة، أو أخيها، آخرها دفع بهجان أبي طرف بأن يعرض مالًا، وسكن أفضل لقاء أن يحيا وسط أحضان محبوبته، لكن إسماعيل أغلق بابه حين رأي أبا طرف على أعتابه...

مرة أخرى حاول الأحف أن يجر إسماعيل إلى الاقتراض منه بالربا، لكن الأخير رفض الأمر بكل بساطة ودون جدوى لم يحصل الساحر على شيء من ثوب أميرته، آخرها أطلق سلاحه السري، هو وسعاد صديقة هالة المقربة، وتعرفها منذ أن حلت مع أخيها نازحين إلى العاصمة القديمة...لكن سعاد تطلب مهلة، لكن الساحر يملك روحًا

من الهلام المائع لا يعرف الإمهال ولا الإهمال في أمر يخصه.. فهو رغم قسوة قلبه وشراهة نفسه وحبه الجم للأذى يان كحيوان تأكله الشهوة حين يعرف ميعاد حلول أميرته...

لكن هذا لا يعني لإسماعيل إلا ضغطًا شديدًا على أعصابه، يكاد يجن ولا يعرف ماذا يفعل، ولا يعرف أي حجة منعت (شيئًا) مثل الأحف من اختطاف هالة وزجها في حيازته دون أن يخالفه أحد.. وقبل أن يتنفس إسماعيل بحرف يضحي جزءًا من مائدة أناس تظهر لهم أجنحة غشائية كالخفافيش حين يحل المساء...!!!

جلست سعاد بمكتب التصوير الذي يملكه الأحف.. دقائق وخرج رجل بجلباب فضفاض وذو شعر مصفف ولحية حليقة ووجه أبيض وشفتين داكنتين كأثر الدخان...

سألته سعاد في حدة:

- متى تنتهي هذه اللعبة..؟ أنا لا أرى جدوى من كل ما نفعله، كان متابعًا لأحد الصور التي التقطها لأحد السيدات، فصاحت بحنق:

- كل العمل أنا مكلفة به، لا أرى منك إلا اللامبالاة.

استدار هنا، وجلس بمواجهتا، ووضع بعض صور على سطح مكتبه، وأخذ نفسًا عميقًا.

- اهدأي..كل هذا بسبب هالة بمجرد حلولك عليها ضيفًا، وإقناعها بما تحمليه من خبر، لا أعتقد أنها تمانع في أمر يتمناه كثيرون، ويكفي التمهيد الذي قمت به هذا الصباح.. أنا أعرف النساء

وطباعهن، إن التأثير يجب أن يكون مستمرًا، وبجرعات صغيرة، حتى لا يفلت الصيد من الفخ..

نظرت له سعاد غير مقتنعة بما يقوله فهو غيرمُقنع، وإن كل ما قاله لا يعد إلا تنفيثًا لغضبها..

***

كانت قاعة الطعام بنادي العاصمة اقتصرت على اثنين من الرواد في هذا الوقت قبل غروب الشمس التي ألقت بظلالها على الأشياء، بينما كان لقاؤه مع داغر ضروريًا وحاسمًا حسب قوله، كان هذا أحد مستشاري رؤوف في أعماله المالية بالخارج، فقال المستشار وهو يدس قطع لحم في فمه:

أرى أنه من العجلة يا سيد رؤوف عقد اتفاقات شراكة في الوقت الراهن..

جاء رد رؤوف سريعًا، معك حق... لكن الخسارة تزداد كلما طال عليها الوقت أليس كذلك...؟

أومأ الرجل برأسه وتابع طعامه، فقال رؤوف:

- أرى أنني اقتنصت أقرب الفرص المتاحة أمامي، فرجل مثل ميكاروس كالحاوي، قد أعيد من خلال شراكتي معه قيمة أصل الأموال التي خسرتها في بورصة بلاده. ثم لا تنسى أن ميكاروس هذا هو من يقدم التقارير الخاصة بالبلدان ذات الأداء الاقتصادي المتدني،

على أنها قادرة على الوفاء بالديون، فتدفع لك البنوك تمويل مشاريع بلادك، وهذا يجعل بلدنا تعيش على حد الكفاف.

نظر الرجل له، ثم ابتسم، وأشار إلى جيب سترته..

- هذا بسبب ما يدخره السادة من مال.. وليس لشح الموارد.

فضحك رؤوف، وتابع الرجل...

- هذا الكلام نظريًا صحيح، لكن أرى أن خوض غمار شراكة الآن ونحن على أعتاب استحواذ على أراضٍ في جنوب سيناء قد يفتح علينا عين الإعلام التي تتحدث حول أعمالنا.

ضحك رؤوف – لو أن هذا سبب لما ترددت لحظة في عقد الاتفاق، منذ متى وكلام الإعلام له أثر على الناس غير إثارتهم ومن ثم تنصرف الرياح بلارجعة.

ثم فتح ذراعيه على مصراعيهما..

- نحن هنا في حرية مطلقة، أنت تتحدث لغوًا على أوراق الصحف البالية، وأنا أحصد أراضي ومالًا، أنت تتغنى بالأغانى الوطنية عن حب هذه البلاد، وأنا من يمسك بالحب الحقيقى لها.. هذه هي المسالة...

ضاقت عين الرجل متشككًا، فلحقه رؤوف

- أعرف ما ستقول، إن المغامرة لا تحتمل، لكن أيضًا لن أترك أموالي بلا مالك..

هز الرجل رأسه وقال محذرًا:

- حسناً لكن القيود بالداخل تتزايد سيد رؤوف والعيون تتابعنا.. والضريبة أيضًا ستكون عالية.

ظهر الارتباك على وجه رؤوف الواجم...

- لا تقلق، كل شيء سيكون على مايرام... فأنا أعرف كيف أرضي عيون المراقبين، ثم إن هذه الأراضي بالصحارى لأبتاعها لقاء مال...

وأشار رؤوف بيده إلى أعلى وتابع

- بل بمباركة من رب العالمين...

***

كانت الثامنة مساء...ويوم عطلة لهالة.. حين دق بابها، فتح إسماعيل الباب ليجد سعاد في أناقتها المعتادة وابتسامتها السمجة، التي تحمل أكثر من معنى، باردة لا حياة فيها، سألت عن هالة فأذن لها بالدخول.. لم يحضر النقاش مباشرة فقط تابعه من خلف باب حجرته الصغيرة.

كان اللقاء كلقاء غريمين متضادين حين قالت سعاد:

- لا يعجبني حالك.. يا بنت عمي؟

ببرود...

- شكرًا يا سعاد...لكن لا حاجة للإشفاق.

- أنا لا أشفق عليك، أنا فقط أود أن أحيل حياتك البائسة هذه إلى جنة.

اقتربت منها هالة

- أي جنة..؟ إن ما ترمي إليه لا يسمى إلا جحيمًا..

هنا شعرت أن الحديث أتى إلى نقطة مناسبة ..

- إن الأحف لا يتودد لأحد أبدًا.. وأن يسوق إليك أكثر من شخص في أكثر من مناسبة فهو لخطب عظيم، ليتك تفهمين.

تحسست هالة أساور وقلادات سعاد البراقة..

- أتعجبك..؟

- لا.. إنها من سخاء من عاث في الأرض فسادًا وأبقى الشر فيها، أنا لا أحب أن أكون مثلك.

لا تزال سعاد تتحين الفرصة للانقضاض...

- أرى فيك من هو أنسب من يرتدي الذهب والماس، لكن – أيضًا – لا أفهم عذرك.

رجعت هالة بظهرها إلى مسند مقعدها..

- حسنًا يا سعاد لنتحدث عن الأمور بصراحة، أنتِ تتحركين بأمر من الأحف، وأتيتِ لنيل ودي في الموافقة على الارتباط بالأحف.. ألا تري في هذا مبالغة؟؟ فأنا لا أريد أن أرتبط بشخص ماجن فاجر، يقود المنطقة بين الدعارة والربا وسوء المصير...

انفجر هنا صمام أمان سعاد.

- أنت محقة...فالأحف جعل منك قيمة ذات اسم، وجعل منا أقزامًا وحطامًا على مينائك، أنتِ أبخس من...

رفعت هالة يدها في وجه سعاد تستوقفها.. وضغطت على حروف كلماتها.

- أنا فعلاً كذلك، إن كنتِ تظنين أني لا أعرف من أين أتى عليكِ هذا النعيم، فأنتِ مخطئة.. هل تتذكرين كيف كنتِ يا سعاد عندما حللت أنت وزوجك ضيوفا هنا..؟ هل يعقل أنه في غضون عامين أويزيد ترتدي حُلى من ذهب؟ وزوجكِ حافي القدمين الذي أضحى اليوم من كبار تجار القماش...؟ كل هذا حين أخذكما الأحف، وصور منكما شخوصًا مشوّهة ومسوخاً منسوخًا شخصيتها بشخصه...

من منا الآن الأبخس والأقل سعرًا؟مضاجعتك للأحف بمباركة زوجك..؟ أم زوجك الذي يقترض بالربا لقاء أن تنعما بنعيم زائف؟

هجرتك الداخلية وحلمك وطموحك أثمرت بما كنت تحلمين.. لكن ما قيمة أن ينعم الإنسان بالحياة بلا روح..؟

هنا ارتبكت سعاد من وابل الحقائق الأليم هذا، لكنها لامت نفسها من جديد محاولة الرد، لكن هالة واصلت بأعصاب جامدة:

- كم يدفع زوجك للأحف فائدة لدينه...؟

هنا وكأنه بات من المستحيل المقامة، فأجابت بعين منكسرة:

- لا أعرف...

حسنًا..6% وهي فائدة بسيطة خصوصًا وأنها موحدة.. متى حصد الأحف غلته الأخيرة...؟وممن؟

لم ترد سعاد فأشاحت هالة بيديها...

- إنها أمور بديهية، معرفتها أوضح من شمس صيف أغسطس.

نظرت هنا سعاد لهالة بنظرة مرعبة رهيبة :

- حسنًا.. أيتها الفصيحة المتحذلقة، لكن الأمر لم ينتهِ. كما تحبين ولا تلومين إلا نفسك...سلام...

قالتها واندفعت مغادرة لتغلق الباب وراءها بعنف...

هنا خرج إسماعيل من خلف باب حجرته مسرعًا لساحة العراك.. كانت هالة ترتجف كهرة صغيرة في ليلة شتاء قارص، ودموعها تبلل وجنتيها بغزارة، فما كان من إسماعيل إلا أن احتضنها واحتواها...

أمر بالغ الصعوبة ومستحيل تخيله إلا إذا تصورت فردًا واحدًا بمجابهة فرقة عسكرية رومانية في غابات بلاد الغال.. ببراعة أظهرت هالة قدرة فائقة في مواجهة رسول الموت وأزاحته وقهقرته، وهو ما أصاب في نفسها الرقيقة كثيرًا.. ليت أحدًا من عائلتها بجوارها هي وأخيها.. هنا قالت بصوت خالجه البكاء:

فليرحمنا الله.

نادي (عرب أحرار).. تأسس هذا النادي مع بداية الحركة التحريرية للبلاد التي انتشرت من ثم في كامل الدول العربية والتي ناهضت أشكال الاحتلال في بقاع العالم العربي، أسسه أحد أبطال الحركة الثورية ليشمل لقاءات الطبقة المحافظة الأرستقراطية وقتها خاصة في الفترة التي سبقت أكثر ثورات مصر التحريرية والنضالية في العصر الحديث ثورة 19، وظل النادي على نشاطه في لقاءات تقليدية إلا أن نشاطه السري لازال قائمًا إلى أن جاء عمل الضباط الأحرار، وقلبوا نظام الحكم الملكي إلى جمهوري، وولى الاحتلال، وحل الجلاء.. إلا أن أبطال الأمس أضحوا اليوم من أصحاب الفكر الرأسمالي عوضًا عن الفكر الناصري الاشتراكي...

هذا مفهوم لدى الكثيرين؛ فلا مباديء ولا قيم أمام النفع والمادة، وهذا أيضًا يفسّر كون الانقلاب ما هو إلا إتاحة الفرصة لعفن الخبز أن يظهر على السطح..!! عكس الثورة الجماهيرية التي تتأجج بأفكار ثورية تنطلق مما كان، وتعدّل ما هو كائن لتأتيَ بما سيكون...

ورغم هذا لم يفقد النادي بريقه،بل تغير جلده وقلبه وروحه مع الانفتاح، الذي جد في فترة ما بعد الحرب العربية الإسرائيلية وأضحى اسمه (جراند تامري)، وهو الاسم الذي أطلق عليه من قبل أحد الأجانب وكلمة (تامري) تعني بالهيروغليفية القديمة (مصر) الذي أعاده في ثوبه الجديد، هذا شجع الأندية الاجتماعية العالمية؛ أمثال روتاري وليونز إلى مد فروع لها بمصر.. وهذا ما كان له أن يحدث إلا مع الانفتاح الذي روّج له أحد أبطال الفكر الناصري، وهو عبد العزيز حجازي الذي كان وزيرًا في أيام الناصر، ورئيسًا للوزراء أيام المحرر السادات...

طبعاً كان الأمر في غاية الغرابة، أن بطل الاشتراكية بالأمس منادي اليوم باسم الرأسمالية وهندسة الانفتاح.. من هذا الباب الواسع الذي قاده أبطال الفكر الاشتراكي، بدأ نوع جديد من الناس، لم يكن ليظهروا في فترة الناصر، أطلق عليهم أصحاب الأعمال الحرة أو رجال الأعمال، وبدت الصورة أكثر وضوحًا أنهم أداة الرأسمالية التي تتحرك بحرية، لكن بعد فترة أخذت هذه الصورة من القتامة بعد فضائح عن التهريب والاتجار بالأعمال غير المشروعة وتوريد شحنات فاسدة من كل شكل ولون...

لكن الآن أخذت هذه الأداة في تحوير موارد الدولة إلى صالحها وهو ما عزز موقفها المالي بشكل مذهل.. لكن كيف لهم هذا؟

كانت البداية بتنصيب أصحاب الأعمال في مراكز ذات حيثية من وزراء وأعضاء مجلس الشعب مع منتصف التسعينيات؛ حيث كانت البداية خجولة وتعاظمت وتوحشت بعد ذلك لتطول بعد ذلك أعضاء الحزب الحاكم، وهو ما يفيد المبدأ النفعي الفردي الذي صوره أبطال الأمس من أصحاب الانقلاب العسكري الذي لا يدل إلا على ثورة لصالح فرد أو فئة نزقة باسم الشعب؛ لذا كانت كل أعمال الوزارات وهيئات البلاد من لدن أعمال شيطان رجيم، ومن كان صالحا بات فاسدًا.

عليه العوض في بر مصر....!!

كانت اللقاءات هنا مستمرة بين وزراء ونواب ورجال دين ودوبلوماسيين، كان رؤوف داغر بين الحضور ذكيًا، يستغل الفرص بشكل جيد يعرف كيف يدير الأمور بشكلها الصحيح...

كان الحديث بين نائب ووزير حين قال الأول:

حين نبدأ الاستجواب تتقدم أنت بعرض ردك من خلال هذه الأوراق ليظهر السؤال والجواب بنسق سليم ولاتنسى البداية إنها أهم من الإجابة نفسها.

وناوله لفة أوراق طالعها الأخير بغير بال.

في حين تسامر رجلان حول تبادل زوجاتهما ورأي الأول في زوجة الثاني والآخر في الأول...!

هنا كانت السيدة عليا بلفاتح جزائرية الأصل التي تزوج بها رؤوف، سيدة في منتصف الثلاثينيات ذات قوام ممشوق وجذع ممدود وشعر مفرود وعيون سوداء واسعة تطل منها هيبة ورصانة وتقف باتزان لا ميوعة فيها.

كان هذا الاحتفال السنوي بنادي جراند تامري الخيري بفعل التعاضد بين الطبقة الغنية والطبقة الدنيا من أعمال تنموية والفاعليات التي تقام في هذا النادي تبقى رهن مقدور أعضائه لخدمة المجتمع.. موسيقى ومرح وفرح، لكن في حدود الأرستقراطية التي تطل من المكان..طاولات ومقاعد تكسوها مفارش بيضاء وخدم بملامح جامدة منتشرين بالمكان.. القاعة تحفها أضواء دافئة بين الأصفر الشفقي وحمرة الغروب، فتسقط ظلال باهتة على الأشياء صحفيين كثر وعدسات تصوير تلتقط ما يسمح لها فقط.. في زاوية تحجبها ستائر حمراء شفافة تسمح برؤية ما خلفها بشكل ضبابي.

قال روؤف والتردد يطل من عينه:

- لكن حبيبتي ليس الليلة مناسبة؟!

فقالت، ونظرات التهديد والوعيد في عينها:

- لكنك وعدتني أن يكون لقاؤنا الليلة..

أومأ رؤوف برأسه في حدة

- حسنًا...

قالها فداعبت طرف ذقنه بسبابتها المدببة وأظافرها المشذبة وجبهته التي انبتت قطرات العرق بعد أن جف ريقه.. فأزاحت الستار لتتركه وحيدًا.

رغم الهيبة ومظاهر الغطرسة والتعالي يبقى رؤوف داغر حبيس شهوة ابنته المنتقمة لأمها من زوجة أبيها الجديدة.. كانت خطتها إنهاك القوى العصبية لعليا التي لم تر أبدًا ما يحدث بين داغر وابنته.. لكن تتكهن به، وأول ما فعلت أنها أشارت إلى أن زوجة رؤوف المبجلة على علاقة بأحد رجال النادي من خلال أصوات لها أثناء جماعها معه وهي تئن تحت وطأة ذنبها.. لكن داغر لم يصدق ولم يبالِ، لكن قدرة ابنته فاقت الخيال، فلجأت إلى مراودته بأن يضاجعها، وفعلًا تغلبت على هذه النقطة، وضاجع رؤوف ابنته ثلاث مرات صريحة!!

لكن ما تود الليلة عمله هوأن يجامعها على فراش عليا، وترى الأثر الأكيد على لقائهما...

في نهار اليوم الثاني.. لم تفلح سارة في تنفيذ ما نوت فعله، لكن أيضًا لم تفوّت إرباك أعصاب عليا؛ ففي حديقة المترل الفسيحة كانت سارة على الأرجوحة وما أن رأت أباها حتى دعته لدفعها.. في كل مرة يدفعها كان يتواصل الحوار بينهما..حين قالت:

- لم تفلح ليلة البارحة أليس كذلك؟

ودفعها فأطلقت ضحكة رقيعة مفتعلة ملأت سماء الحديقة، وعادت فقال:

- أفضل أن نتوقف هذه اللعبة السخيفة.

ودفعها مجددًا.. ثم عادت فأمسكت بيده التي تطوق خسرها ومالت برأسها للخلف لتهمس في أذنه:

- إنها لم تبدأ حتى يا والدي العزيز!!

فدفعها.. لمحت سارة عليا تقف على درج الفناء تتطلع إليهما من بعيد، فأوقفت سارة الأرجوحة وأبدلت سارة مكانها مع أبيها الذي دفعته، وجلست على حجره بالمقابلة ألصقت وجهها بوجهه، فقال بصوت مخنوق:

- سارة أيتها المجنونة..الخدم بكل مكان ماذا...

قاطعته ضاغطة على أسنانها، وهي تدفع يديه نحو فخذيها

- تحسس أردافي..يا أبي!!!

كانت ذراعه تحيط بكامل ظهرها وبطرف قدمه يدفع الأرجوحة التي لم يطل مشوارها كما في السابق، مما جعل سارة تتمكن من حجر أبيها أكثر وهي تضحك في جنون.. كانت عليا ترتجف كورق الخريف.. لا تصدق ما تراه.. فاندفعت للداخل هنا، أوقفت سارة لعبتها القاتلة، ودفعت بنفسها إلى الخلف فسقطت وسقط أبوها عليها.. فضحكت وضحك لضحكها، وقال بنفس لاهث:

- يا لكِ من ماجنة.. أشعر ببلل ما صار في سروالي الداخلي..!!!

ضحكت بشدة...

- حسناً لنقيم حفلنا الليلة....

خلال العقد الأخير تم بيع الكثير من الأراضي لغير المصريين.. هنا القول بأي رقم لا يفيد؛ لأن عمليات البيع مستمرة حتى الآن.. لكن المشكلة الرئيسة تكمن في شروط التملك التي تخدم الملاك خاصة فيما يتعلق بالميراث من بعد المالك الأصيل...

الغريب أن أيًا من الأراضي التي تم بيعها كانت في الأصل صالحة للزراعة، بل الأدهى أن كلفة زراعتها أرخص من غيرها..!! لكن ولأسباب كثيرة تحولت هذه الأراضي إلى ملكية خاصة للأجانب...

ميولا ترباتوني...

طبعًا الأمر بالنسبة لها لا يعدو إلا نقطة في محيط ثرواقا التي لا تنبض، وطبعًا شراء أرض أو الحصول عليها بأي شكل شرعي أو غير شرعي يبقى من السذاجة أن تنفق من الوقت للتفكير فيه...!!!

أرض خضراء واسعة لا ترمي ببصرك في أي شطر إلا وطالعت الخمائل الخضراء وأزهارًا وحدائق غناء.. وسط هذا أوقف شارلي سيارته البروكلاندز المترفة، تخيلوا أن داخليتها يغطيها جلد 16 بقرة كاملة البدن مربوطة بقرابة ثلاثة آلاف قطبة...!!

مشي شارلي على طريق مهده الحصى والزلط المرصوص بعناية حسب حجمه ودرجات لونه...

كانت هذه هي الزيارة الأولى لشارلي لمقر حكم ميولا.

رغم اعتياده على الحياة بين جنبات القصور والقلاع الملكية إلا أنه ما من شيء أذهل عقله مثل بناء ميولا هذا.

قصر منيف على طراز ميدتشي الروماني، أسقف تحملها أعمدة نحتت على أشكال تماثيل عصر النهضة.. درجات سلالم من رخام (فيورنا) مصقول بشدة يعكس الضوء كالمرايا.. رغم الطابع الروماني العام.. كان مدخل القصر على الطابع الأندلسي، فالبوابات ذات الأطر الهلالية الحمراء، والأعمدة الرخامية مؤدية إلى البهو الرئيسي على الطابع العثماني بالمبخرة النحاسية العملاقة التي تتوسط البهو الكبير وزوايا الأرابيسك التي تزين الأركان مع الأرائك المنخفضة العلو والعميقة الجانب...

غير حبات الفسيفاء الفارسية رطبة الملمس ومصقولة، تعكس ألوانها مع أطياف الضوء المتسرب من النوافذ العملاقة التي رُسم على زجاجها بجعات كاسلات..

لكن عرش ميولا كان أكثر إبهارًا.. مقعد من المرمر نحتت تفاصيله بعناية بالغة وبصبر لا يصدق، زينت أجزاء منه بأحجار الأوبال الزرقاء والياقوت الأحمر، افترش تحته فراء نمر (سيكاريسكا) أحد أكثر النمور الآسيوية ندرة وفراده ففراؤه يطول بضعة مليمترات بعد سلخه.....!

كل هذا كانت تقوم على العناية به أكثر من خمسين خادم وخادمة هندية حفاة الأقدام.

خطت ميولا إلى عرشها وجلست عليه تراقب شارلي المذهول

- كيف ترى قصري..هل أعجبك؟

- أكاد أجزم أني ما رأيت شيئًا كهذا من قبل.

ابتسمت ميولا والخبث يملأ عينيها..

- لا تتعجل إنه المدخل فقط!!!

سقطت عين شارلي على أحد الأركان.. كانت لوحة بحجم جدار لأربع أطفال مبتئسين وضلوع صدورهم نافرة رغم ابتسامة مريرة تكتنف وجوههم السمراء، فأشار شارلي إليها بسؤال مستنكرًا :

ما هذا؟

ردت ميولا باللامبالاة:

- هذه أحد الصور التي التقطها حيث كنت في أحد رحلات العمل بإفريقيا...أطفال في عمر السابعة تقريبًا.. لكن وبحق أشعر أنها تجعل الأمور أكثر راحة، فابتسامتهم تدخل إلى القلب السرور...!

علامات الضيق خيمت على وجه شارلي..

- أنا مندهش كيف تزينين قصرك بصورة أكلها الفقر والجوع وآيات الألم..؟

نظرت له ميولا بشك..

- لا أعرف..لكنها تثيرني بشكل ما.

نظر لها شارلي بضيق

أنتِ تمتعين نفسك بألم الآخرين.. فكون أن أحدًا يلتقط صورة لمجموعة مشردة يعرف بألم جوعهم لمجرد التمتع بها ودون تقديم العون لهم فهو إثم كبير، أما كان هذا القصر كفيلًا بسد حاجة الجوعى والعطشى في البلدان الفقيرة؟ كيف لكي أن تعرفي بشيء كهذا وتنفقي ما تنفقين؟؟؟

تنهدت ميولا..

- لا أعتقد.. ثم إن مكافحة الجوع والفقر لهو جهد أكبر من حبات ياقوت أو أوبال ولم لا تقول: إن هذا القصر قبل إنشائه قد فتح ثروات على أطياف متعددة من البشر؟ فالخدم لدي أكثر من خمسين خادمًا وخادمة..فراء النمر هذا بماله يسد جوع عشرات الأسر الهندية الآن..

قاطعها شارلي..

- لكن هذا مضاد للأعراف والبيئة..

تهكمت ميولا..

- بيئة..؟ لا أرى أنك مقتنع بما تقول، فهذا ترف لا يفهمه العامة في البلدان الفقيرة ما دامت الأمعاء خاوية فلا مانع من أكل الحيوانات نفسها لا سلخ فرائها وبيعه...

نهضت ميولا وسحبت سكيناً رفيعًا حادة من فوق طاولة نحاسية كبيرة وتابعت...

- أترى هذه يا شارلي..؟

أومأ شارلي فتابعت..

- هذا السكين صنع من ضلوع الجاموس الوحشي الذي يترح بعشرات الآلاف في موسم هجرته بمحمية (بسرنجتي) الطبيعية..انظر كيف صنعت..؟

تناولها شارلي ودقق النظر فيها..بينما تابعت..

- إنها خفيفة كالذبابة،حادة كشفرة حلاقة، بل إنها أكثر كفاءة وصلابة من سكاكين (فيكتورنوكس) السويسرية، بل والأكثر غرابة أنها تشبذ نصلها تلقائيًا كأسنان فأر.. أليس في هذا بدعة وحرفة عالية...؟

أومأ شارلي ولا زالت نظرات الضيق تتبعها..

- صحيح...

- حسنًا.. إذا عرض هذا السكين بأوربا فإن قطعان الجاموس الوحشي سيفنى سريعًا لقاء صنعها، لكن انظر من المستفيد بأثمانها؟؟؟

أشاح شارلي بيده...

- لا تخبريني أنها الأمم الجائعة، بل عصابات التهريب وقاطعو الطرق.

هزت ميولا رأسها نافية..

- لا.. بل إن ثمن هذا السكين الآن سد رمق عشرات الجياع هناك، هذا واقع، إذن ستقف البيئة وحيدة مقابل إعصار الجوع العاتي، والآن هل انتقلنا إلى الغذاء؟

كانت المحطة التالية قاعة الطعام؛ حيث المأدبة التي أعدتها له...

بنيت قاعة الطعام على النمط القوطي بأحجار البازلت والجرانيت لكن أكثر الأشياء طرافة هي الثريا التي تتدلى من سقفها، فالقاعة بالكامل لا يسلك في جدرانها سلك كهرباء واحد؛ حيث إن الإضاءة تأتي من أضواء الشموع التي تحملها الثريا وحتى الأركان تضاء زواياها بأضواء شموع (الألكسترا) التي لا تلقى بسناجها (الهباب) الأسود في سماء القاعة.

الطاولة من الحجر منحوتة قوائمها على أشكال وجوه ميولا وشارلي الذي فوجئ بهذا غطى سطحها بأخشاب الجوز، مطعم بأسلاك الذهب وحبات المرجان.. كانت عامرة بأنواع فاخرة جدًا من الطعام.

الديوك الرومية الكبيرة التي احمر لحمها أثر نقعها في النبيذ الأحمر ليومين كاملين، أسماك (سان بيير) النادرة ذات اللحم الأحمر، وسرطانات البحر مع صلصة النعناع، والبرغموت والشمر، مما أعطاه رائحة تزكم الأنف حتى الشبع...!! لحوم أبقار (كيانينا) التي اشتهرت بأنها اللحم المميز لدى قياصرة روما وبط (هاروم) الإنجليزي المحشو بقطع الفواكه الموسمية، إضافة إلى (شارتيلون) أو بيض المحار الذي يدفع بحلقات من الطاقة كالقنبلة الذرية...!!

وفي النهاية.. الكافيار الإيراني، أو الكافيار الملكي الذي يؤخذ من أسماك الحفش وبالأخص الاسترجون وهو أجود الأنواع وأغلاها، من بحر قزوين ليتوّج قائمة مأدبة ميولا الفاخرة...

أخذ شارلي بشدة بوهج الشموع واللون الأحمر يغمر الأشياء.. حتى استقر به المقام على المائدة..

بدأ شارلي يتناول طعامه وميولا، والصمت لزمهما عدا النظرات التي تبادلاها تحمل الكثير من الوعود التي ربما تتحقق الليلة.. لكن شارلي بدأ حديثه.

- بصراحة إن أكثر ما يثير دهشتي أن لكِ قدرة على امتلاك ما تريدين.

ابتلعت ميولا طعامها قبل أن تقول:

- الحقيقة ليست كذلك، لكن الأمر أيضًا لا يخلو من الإبداع في قواعد اللعبة..

- الإبداع في قواعد اللعبة..؟لا أفهم!!

توقفت ميولا عن أكلها وبدأت بالشرح..

- الحقيقة.. أن هناك قاعدة تكاد تكون مشتركة بين غالبية من يتعاملون في البلدان الفقيرة، أولاً:

أن حكم الإدارة بها يتقلد زمام الأمور بفكرة الراعي والأغنام.. لسهولة السيطرة عليهم.. من ناحيتي المال والدين؛ لذا أنا لا أرى أن الدين إلا وسيلة للهيمنة أكثر من وسيلة للإفراج الروحي، كما تدعو أنت هم أنصار الأديان...

الشق الثاني: المال، وهذا الشق الذي أرى فيه منفذًا جيدًا لكثير من الأشياء، الحياة الرغدة والمتع وكل ما يخطر بعقلك؛ لذا أنا ابتعت هذه المساحة الهائلة لقاء بضعة ملايين لا أكثر.. أما هناك في بلادنا فالأمر يكاد يكون مستحيلًا.. من أجل هذا أرى أن صفقة إبرام عقد شراكة مع أحدهم هنا يدر عليك أكثر مما تتخيل...

حل الليل.. سهر حتى الساعات الأولى للفجر...

كان الأمر فرصة لميولا التي رأت في شارلي فارسها.

على فراء النمر كانت المضاجعة في أوجها.. شارلي بجسده الصخري، وطاقات شارتيلون والكافيار الإيراني تسري في عروقه، فرفع فخذيها العملاقين ودفع بجهده بين شفريها بينما تصيح بلذة وتضحك كسكرات مخمور...!!

كانت قطرات دموع بقر البحر الأندر في العالم تشد من عضلات فرجها فتحيل النشوة إلى متعة استثنائية؛ فالخدار الذي شل أعصاب ميولا ظهر على عينيها النصف مفتوحتين وشارلي الذي يتحرك كمكبس في سيارته الرياضية الخارقة...! أوصلها لرعشة الشبق كفتاة بكر حالمة...

كان هذا زواج الآلهة، أو هكذا قالت إحدى الخادمات التي استرقت السمع والبصر لأقرانها!!!!

***

كانت علاقة عليا بداغر لا تتعدى كونها مجرد أمور تحيط بها منافع لكلا الطرفين فداغر رأى أن يعزز من قوة استثماره في بلاد المغرب العربي، فاستأثر لنفسه بأفضل النساء هناك نسبًا وشرفًا، فكانت عليا بلفاتح من نصيبه.. أيضًا لهذه الأخيرة أمور تسعى لحصدها فهي ترى أن الاقتران برجل ذي نفوذ في بلد كبير يتحكم فيه كيفما يشاء حسب أهواءه فهذا لخطب عظيم يستحق اللهث وراءه، لكن من بعيد يقف ماضي رؤوف داغر حائلًا بينه وبين زوجته الجديدة، فذرية رؤوف من السيدة راوية حسين التي رحلت عن عالمنا إثر حادث سير أقسمت أن تحيل حياة أبيها إلى ضنك، وهي تملك من المؤهلات ما يعينها على فعل هذا.. فهي من ناحية تجيد إثارة مشاعر الآخرين، وتتعرف بسرعة على مآخذهم، وما يتناسب معهم من ألوان التعامل، وكذلك نقاط سلب قوهم.

أضف إلى هذا فجورها البين وعدم حيائها، فوجدت في عليا ضعف المرأة العاشقة لحياة الثراء فحلت هي محلها خصوصًا مع رجل طار عقله وبات يرى في ابنته مكبًا لشهواته، لكن أيضًا هذا لا يعني أن تفقد عليا مكانتها تجاه زوجها.

لم يكن لداغر أي مقاومة أمام ابنته.. وأيضًا لم يكن لهما مواعيد مسبقة لكن لسارة ميعاد محدد هو أن تظهر كل مفاتنها أمام أبيها في حضرة عليا!!

بقميص من (ناعومي) حصري الإنتاج تتجاوز شفافيته ال50% فيظهر من خلفه نهدها الكروي الغض وسروالها الحريري الرفيع (ريكويل) حضرت سارة العشاء.. جلست بمواجهة أبيها الذي جاورته عليا.. بشعرها البني الأحمر فردته على صدرها لتزيد من وهاجها الجنسي.. فباتت كطاووس يستعرض ألوان ريشه الزاهية في موسم التزاوج.

بدأ الارتباك من جديد على ملامح عليا التي لم تنبس ببنت شفه وأيضًا لم ترفع عينها عن مفاتن سارة...

في حين ظل داغر يراقب موقف التضاد بينهن، دون أن يعلق...

ارتشف حصاءه الساخن وهكذا فعلت عليا. بينما ظلت سارة تراقبهما ونظرات التلذذ تتابع عليا العاجزة عن النطق، وتتابع أباها بلوعة وحرقة مصطنعه تزيد من غليان وارتباك عليا.

- ألن تأكلي؟؟؟

قالها رؤوف بصوت خافت مترددًا بين أن يزيد حرج عليا أكثر وبين أن يكسر تبلد هذا الموقف الرهيب...

لكن الإجابة جاءت غير متوقعة وبفظاظة...

- عذرًا يا أبي، هل أكلت من هذا؟ إنه يبقيك بصحة أفضل.. وقدرة أكبر على التحمل.. فآخر مرة كنت هشًا ضعيفًا كحبة قمح!!

كاد الطعام يتوقف في حلق عليا...بينما ابتسم رؤوف في حرج:

- إنه دسم جدًا..يا سارة، وأنا...

قاطعته وهي تنحنى أمامه فيتدلى ثديها وشعرها أمامه ليشكلا رعشة قوية أسفل ظهره فينتصب طرفه، وقالت في دلال، وخبث مقيت:

– أبدًا.. إنها صدور الحمام مع الخبز والمايونيز وصلصة الليمون.. ألا ترى فيها نبع قوتك الناعمة؟؟؟

كانت الأفكار تتردد في ذهن عليا ككرة البليارد بين أن تغادر هذا الوضع، أو أن تبقى بما أن الأسوأ لم يحدث بعد، في حين بقي رؤوف متحيرًا، وقطرات العرق تبلل كف يده البارد من فرط التوتر، بينما سارة تعرف ما التالي...

فكما تقول صوفيا لورين أن الهمس واللمس كافيان لإضرام نار الغريزة في رجل مسن حتى...

لم تتوقف سارة على تثبيت نظراها المفعمة بالعاطفة الآثمة لأبيها والاستفزاز لعليا.. نهضت بحركة بذيئة ليتحرك ثديها ليزداد الأمر أكثر جحيمًا، بينما الاثنان ظلا بلا حراك كتماثيل من الشمع!!

من خلف رؤوف احتضنته سارة وداعبت بشفتها السفلى أذنه وهي همس بكلمات الحب والمعاشرة وبيدها اليسرى تسري على صدر أبيها وباليمنى تطعمه طوعًا منه صدور الحمام...

فحين غرست عليا رأسها في طبقها وتختلس النظر بطرف عينها، موقف حصري لا يتكرر لإنسان عادي إلا مرة واحدة في عمره كله، وربما لا يحدث أصلاً، ففي مثل هذه الأمور تظل النجدة حلمًا لا يمكن تحقيقه لكن رنين الهاتف كان كفيلًا بأن يكون طوق النجاة لعليا التي قفزت ملبية نداءه، وهو أمر ما كان ليحدث أبدًا في وجود الخدم.

ردت بصوت خفيض..

- حسنًا.. حسنًا ليلة غد لا تعاود الاتصال هنا.

كانت خطوات ساقها مترددة في عودها إلى طاولة العشاء، لكنها صرخت منادية أحدهم بتنظيف المكان؛ لأن سارة وأباها قد غادرا.

في الطابق العلوي اقتربت عليا من باب غرفة سارة المغلق للتنصت، لكن لا شيء...ألصقت أذنيها بالباب، لكن لا جدوى....

عرق يدها غطى مقبض الباب.

لكن لا أحد في الداخل...

- أين ذهبا؟؟؟

رغم معرفة عليا بما ينتظرها، إلا أنها اتجهت نحو غرفتها، ودفعت الباب...

وجحظت عين عليا من هول ما رأت...

***

- هالة...؟!!

دقت الباب بقوة،فصاح إسماعيل...

- صبرًا..صبرًا..

فتح بابه ليجد هالة واجمة شاردة لا تنطق.....

ألقت بحقيبتها،ولم ترد التحية، وألقت بجسدها على أقرب مقعد، فخاطبها إسماعيل...

- ما الأمر هل من شيء...؟

قالت بذهن شارد:

- لقد تمت زفتي، أنا خارج الخدمة الآن....

صدم إسماعيل لكن تدارك لاحقًا....

- لا عليك...لن نسقط ضحية الجوع والتشرد، فأنا بخير...

نهضت لتواجه :

- أي خير؟ أقول لك فصلت من العمل...! أليس هذا بشرٍ بين..؟ وماذا تفعل جنيهاتك القليلة مقابل الحياة المريرة التي نصبح ونمسي فيها؟؟؟

طلع الذهول على إسماعيل الذي لم يفهم سر عدوانية هالة المفاجئة، لكنها الصدمة وتأثيرها الواضح.... راقبها في صمت وهي تغلق باب غرفتها...

ألقت بجسدها على الفراش ولم تغير ثيابها،وسقطت وسط الظلام، حين سمعته بالخارج يقول:

- على المرء أن يظل مستعدًا للمصائب حتى لا يسقط بلا قيام أبدًا،

لم تعلق.

قد يكون الفصل عن العمل من المنغصات لأي شخص،لكن الأمر يختلف عند هالة التي لا يعد العمل بالنسبة لها مجرد إحراز نقاط للرزق وكسبها..بل هو ملهى تذوب فيه .. فالعمل هنا ليس أداة لكسب المال أكثر منه كونه مفرّغًا لشجون هالة، وهالة تهرب بالعمل في الفترة المسائية لكي لا تظهر كثيرًا أمام الآخرين، فبينما هي في عملها يكون الآخرون نيامًا، وبينما الناس في النهار معاش تكون هي بين النيام حيلة ابتدعتها من خلال عملها لتُمسي كهرة شريدة بين الطرقات...

فهالة ليست أنثى بالمعنى البديهي للكلمة، بل هي من الخناث!!!

تحظى بشكل الإناث بثديهن وشعرهن، وحتى أردافها تبدو مثالية بشكل يجعل الأحف في حيرة من أمره.. لكن الحقيقة أنها تملك أداة الرجال إضافة إلى خصيتين ناضجتين وهذا دون التباس مع فرج النساء...

فلذلك تتجنب هالة ارتداء البنطال بشكل تام، وهو أمر يجعلها أكثر أنوثة ويؤكد على اعتمادها بين النساء وهي غيرهن، لكن حتى هذا لا يدفعها دفعًا هربًا من الحقيقة التي تراها خزيًا وعارًا، بل الحقيقة أن من يعمل يكسب احترام الآخرين بشكل أو بآخر، الأمر أشبه بسلاح تملكه بمجابهة قاطع طريق...!!

هذه الصورة حقيقية في المناطق التي تتكدس بالعاطلين، وكم يعطيك هذا مظهرًا براقا وهو ما يبقيها قوية أمام هجمات الأحف وأعوانه، لكن الأمر يتغير بسرعة بشكل خطير كمن فقد مشعله أمام ذئب جائع...!!

لما جاء إسماعيل وهالة الحالمان بالحياة الطبيعية لم يكن الدافع بسبب قهر الظروف لهما بل إن مولد هالة بشكلها المخنث والازدواجية الجنسية هذهَ قد أضرم النار في بيت عبد العظيم حين أوعز له أحد الدجالين أنها عقاب من الرب، وأن هذا عادة ما يحدث لمعاشرة الإنس للجن...!!

طبعًا من يعاشر الجن غير الإناث؟

هنا قتل الرجل زوجته في عرس باركه الجميع أنه يبرئ دمه من وصمة العار...!! فقد أشعل بها النار وعند المصارف الزراعية وزع رماد جثتها!!!

طبعًا العادة غلبت على ما تمليه الصفات البشرية المتحضرة التي غالبًا ما يفتقد لها أهل الصعيد بسبب جفاف الحياة وضيق الرزق والأفق،فرأى العديد من الناس أن ما فعله عبد العظيم من الأعمال الخالدة العظيمة.. وحان الآن دور ذرية الشيطان.. أن تلقى مصير أمها.

لكن للأقدار تصريف آخر، فقد هرب إسماعيل وأخته التي لم تتجاوز عامها الثالث وقتها.. بمعية أخيهما الأكبر عبد القادر عبروا خلالها القرى والنجوع حتى القاهرة.

حين علم خالهم بما حدث، سارع الرجل باحتضان الطفلين، ولما عاد عبد القادر اقمم بخيانة الإنس لحساب الجن، ومن بعدها لم يتلقوا أي أخبار عنه...

كان صعبًا على طفلة فهم مغزى الأحداث والوقائع الأليمة، وأن ما حل لأمها ولأسرقما كانت سببًا فيه...

ترعرعت وكبرت وشبت هي وأخوها، واختصا بأحد الدراسات النهائية بجامعة العاصمة، وكعادة كل النازحين اختفت آثارهما وسط الزحام، ولما مات خالهما أصبحا أكثر انغلاقًا ووعدا نفسهما بأن ما من شيء يفرق شملهما.

لكن حتى الآن لا تعرف هالة أباها ولكنها تراه نسخة من الأحف أو الأخير هو نسخة منه، لكن صدمتها أهما ترى أن القاعدة الأعم من الناس هنا يرون فيه المخلص لمشاكلهم وحمل همومهم بغض النظر عن الوسيلة التي يتبعها.. أمر صدمها كثيرا لكنها ماذا تنتظر من أناس اعتادوا على أن يكون ولى أمرهم قوادًا مرابيًا، فالأحف ليس إلا أداة شريرة قاتلة لا يعرف أحد ما يرمي إليه ولا فيما يفكر ولا كيف يتصرف...

في الصباح التالي.. كان من المنتظر تنفيذ مخطط سعاد الموجه نحو هالة، لكن لم يحن العقاب بعد، وبالتالي تحاول هالة إخفاء سقوط سلاحها من قبضة يدها...!

حتى ولو دفعها الأمر إلى الخروج في ميعاد عملها إيحاءً لغيرها من المراقبين، أنها لا تزال كما هي ولا شيء تغير...

كل هذا وهي حتى الآن لا تعرف ما الذي يمنع مسخ نشوة الروح والخلق من سحقها؟!

حتى ساعات الفجر الأولى كاد عقل هالة ينخلع من مكانه من فرط استرجاع الذكريات ومحاولة البحث عن البدائل التي غالبًا ما تصل إلى طريق مسدود.. ولا حل واقعيًا.. تناهى إلى سمعها أذان الفجر من أحد المساجد البعيدة؛ لأن الأحف أشار ذات مرة إلى أن صوت أذان الفجر يزعج منامه فمنع الأذان!!!

لكن هل تأتي النجدة من الأبعاد لتنصرها مثل صوت الأذان الذي يشق عباءة الليل كسيف المنتصر في سبيل الله ليدعو الناس إليه؟؟؟

ربما...

***

سان مالو بريتانى شمال غربى فرنسا

يقول الخبراء: إنَّ الاقتصاد يرتكز على ثلاثة محاور عملاقة في إطار آلة الرأسمالية العالمية التي تفرم وتفتت آلاف الملايين من العمال لصالح فئة قليلة تقوم على محاسبة الناس وإدارة شؤونهم من أجل الزيادة وكثرة الإنتاج والربح، فيعمل الاقتصاد حول العالم على ثلاثة أقطاب: إذ إن هناك من يدر المال، وطائفة أخرى تديره، وثالثة تجني حصاد ما تفعله الطائفتان السابقتان، وهذه هي الفئة المراد الحديث عنها.

يتحرك اللورد إسحاق ميكاروس النبيل الأصيل هذا السيد الذي يعرف قيمة قلب لندن النابض من خلال أعمال كبريات البنوك على فتح مسابر المخاطرة عن طريق إقناع مديري البنوك بها في مجال تمويل المشاريع التنموية في البلدان الفقيرة، وهذا بناء على توصيات من وكالات اقتصادية دولية تحدد مستوى الائتمان وتمويل المشاريع بالقروض، فيبقى هو بوكالته التي تحمل المقطع الأول من الاسم الثاني (ميكا) مراقبًا لأعمال الاقتصاد في بلدان العالم الجائع، ما يدر عليه ربحًا خياليًا، هذا من خلال أعمال شركته لدراسات الجدوى.. وهذا ضمن المخطط المذكور في دعم الإعانات.

فما تأمر به الولايات المتحدة الأمريكية في شأن بلد ما لا يتلكأ إسحاق في ذكر حسنات هذا البلد، فتدفع البنوك بقروض تمويل ميسرة، لكن ما العائد على البنوك من إشراكها في دوامة الإعانة هذه..؟ فمن ناحية أخرى يقف كعقبة في البرلمان الإنجليزي لوقف تسيير قانون توقيع غرامات على المديرين المتجاوزي الحد الأقصى للمضاربة، وهذا سر قوته وسحر تألقه بين من يجنون المال، لكن الجانب الآخر من المحيط زاخر بنوع نادر من المفترسات.

فما من أحد سقط واندثر وعاد بقوة يملأ السمع والبصر مثل جاك دودن اشكنازكي... هذا الثري الألماني الأصل المستقر بأمريكا، وكامل أعماله هناك، خاض تجارب عدة أصقلت رأسه بمواهب قال عنها ذات مرة: إنه لا يعرف كيف ولا متى اكتسبها؟ فهو أشهر من تعرضوا لسرقات، وأيضًا أكثر من انهاروا سريعا وما لبث أن عاد سريعًا ذكاء حاد، وبصيرة حديدة، وحس دقيق نحوطرق النصر، وجسور العبور إلى النجاة...

وهذا القصير ذو الأطراف القصيرة والوجه الطفولي هو جيفرى تايرون مكنمارا، قيل عنه: إنه مثل بائع البازار يبيع أبخس الأشياء بأعلى الأسعار، فهو مالك لشركات المضاربة في الأسواق العالمية تضارب على كل شيء وأي شيء، بداية من مباريات كرة القدم وحتى أفول الأسواق وهبوط وصعود الأسهم.

كان اللقاء المرتقب بينهم هنا في بريتاني، شمال غربي فرنسا، أحد المنتجعات التي تعد مفخرة لقاء السادة الإنجليز، فهي منطقة ساحلية

تطل على القناة الإنجليزية يوفد إليها من اللوردات وأصحاب المال الإنجليز كثيرون، حتى أن الملكة إليزابيث الثانية زارتها ذات مرة بصفة غير رسمية، وأبدت إعجابها بها ووصفتها بأنها قطعة بريطانية مما أثار حفيظة الفرنسيين.. محلات فاخرة.. أسواق ممتعة.. وحياة زاخرة.. وليالي ساحرة ولحظات زهو براقة يعيشها أناس سعداء...

كان الكوخ الصيفي الذي يقضي به اللورد إسحاق إجازته مطل على القناة، وشريط خشبي يصل بين الكوخ ونقطة ما في الماء بعد الشاطئ.. رغم الجو والمناخ المضطرب في الأنحاء إلا أن هذا لم يعكر صفو الرجل الذي يتنقل في محيط كوخه بحثًا عما تجود به الطبيعة من أخشاب وأحطاب، بسترة شتوية من صوف خشن أخضر اللون، وبنطال جلدي يعلوه حذاء من جلد الحمير الإسبانية يصل إلى ما أسفل ركبتيه...

مسح على شعره الأبيض بالكامل بيده التي تخللت الأوساخ أسفل أظافره، وبعينيه البنيتين لمح الآخرين يتابعان أعمال الصيد، بينما كان هناك شاب يافع بمعيتهما.

كانت الحياة مرتدة فقيرة تهزم القوي، ورغم هذا يشعر الجميع بالمتعة حسبما ذكروا؛ فالكوخ بلا إنارة أوكهرباء طيني، ومن القش لكن كمأوى يغني كثيرا.. رمال بيضاء تمتزج به، والبحر رغم مساوئ الطقس إلا أنه لا يموج كثيرا.....

كانت جودة الطعام مرضية رغم النار التي طيبت جوانب السمك لم تكن قوية كفاية .

بحث إسحاق حوله كثيرًا فسأله شارلي عما يبحث.

- اللعنة..يبدو أني لم أحضر أبخس شيء وأهم شيء..الملح...

ضحك مكنمارا ذوالعينين الزرقاوين..

- حسنا وماذا نحن فاعلون برأيك...؟

تحسس اشكنازكي لحم السمك،وقال بصوتهِ الهادئ..

- أعتقد أنه لم ينضج بعد،لكن لدي الحل

كان المغيب قد حل حين ألقت النار بظلالها، وطقطقة لحم السمك وهو ينضج تسيل لعاب الملتفين حولها.. فقال اشكنازكي، وهو يتحسس مسحوقًا ترابي اللون على راحة يده:

- حين ينضج لحم السمك سنضع هذا البارود عليه مباشرة.

صاح الجميع مندهشين:

- بارود..!!

هنا ألقى اشكنازكي بمسحوق البارود على اللحم بشكل منثور..

وقال ضاحكًا:

- أنا أعرف أن أيًا منكم لا يعرف هذه الحيلة.. هذا هو البديل المناسب للملح، هذه فائدة معسكرات الكشافة التي تقضيها مع من هم أكبر منك سنًا...

تطلعوا إلى البارود الذي تبلورت حباته مع اللحم، لكن لم يجرؤ أحد على وضع شيء في فمه إلا بعد أن أقدم اشكنازكي أولاً..

- آه..إنها رائعة..

قال شارلي،وهو قاطب حاجبه متذوقًا..

- طعمها مملح حقًا.. لكنها كمثل من شوى لحمًا على حمم بركان.. أشعر فيها بطعم الصدأ...!

فقال والده،وهو يمضغ ما استصاغه من لحم:

- رغم عدم استساغتي لها كاملاً إلا أنك حقًا رائع اشكنازكي..

في حين لم يسمع اشكنازكي الثناء من مكنمارا الذي جلس يحدق فيهم فسأله اشكنازكي:

فيمَ شرودك ياماك؟

رد الرجل:

- لا أدري ربما أشعر أن لطعمها مذاقًا جديدًاآخر.. فكيف لنا ألا نتذكر الملح ونأتي ببارود..!

رد اشكنازكي:

- إنهما رصاصتان من مسدسي كفيلتان بما نتذوقه الآن.

قالها الرجل وحل عليهم الصمت، وقد باتت الظلال الحمراء ترتسم على وجوههم التي طالها الشخوص والشرود...

قطع حبل الصمت السيد إسحاق حين وجه حديثه لابنه.

- كيف حال أعمال أمك في مصر..؟

أومأ شارلي برأسه:

جيدة تعرف كيف تدير شؤونها هناك..

ومضغ قطعة أخرى من لحم السمك المملح بالبارود..

لم يكن شارلي متأكدًا من أن أباه سوف يوافق على شراكة المدعو رؤوف، لكن هذا ليس خيارًا أكيدًا، فلكي يبقى كيان الجمعية الإنمائية قائمًا في البلاد ودون حسيب يجب أن يكون الدفع من شخص مثل داغر...

فتابع شارلي..

- الحقيقة يا أبي أن هناك من لم يكتفِ بالدعم والمساندة فقط لأعمالنا في البلاد.

اعتدل أبوه وانتبه ماك وجاك حين تابع شارلي.

- إن الأمر أشبه بالاختبار المباغت، ففي الزيارة الأخيرة تعرفت على رجل يدعى رؤوف داغر لا أرتاح له كثيرًا، قال: إنه يود لو أن يشاركك التجارة، في الحقيقة تعاملت مع الموضوع على أنه ليس لي يد فيه، وأن الأمر بيدك، وأن لك شركاء، هذا ولم يتوقف عند هذا الحد، بل إنه أشار إلى ثروته، وأنها طائلة إلى مالا يقدر عليه غيره؛ لذا عرفت بمكان تواجدك وجئت أخبرك لعل في الأمر خيرًا...

ابتسم إسحاق،وقال:

- أعتقد أن الأمر يستحق النظر فيه.. هل عرفت ما الدافع لديه لمشاركتنا؟

أومأ شارلي برأسه:

- في الحقيقة لا،لكنه قال: إنه في حالة الموافقة سيعرض عليك كل ما يخصه.

غاب إسحاق في تفكير عميق وهو يزكي النار بمزيد من الحطب الجاف ليستعر لهباها بينما اشكنازكي ومكنمارا صامتان كالسمك في الماء!!

فقال اللورد:

- وما النفع العائد علي في حالة مشاركته..؟

مط شارلي شفته في إشارة إلى عدم معرفته، فتابع الرجل حين نهض مكنمارا ليحضر نبيذًا..

- قبل أن أصدر حكمي على الرجل يجب أن تعلم بعض المسلمات.

قالها، وأمسك بكوب من النبيذ الساخن، وهكذا فعل الآخرون فاستطرد..

- اسمع ياشارلي يجب أن تعلم قبل أي مشاركة عدة معلومات عن شريكك،فمثلًا:

من أين أتى بماله الذي دون غيره؟ هل من بين أصوله مال مغسول؟ كيف يحسب خطوات المخاطرة التي نسميها حرب الأمتار الأخيرة..؟ هل هو دافع للضرائب؟ هل له أعداء قدامى، لم يتم تصفية حسابهم بعد...؟

وأكد قبل أن يرشف من قدحه:

- وهذا أهم شيء.. الأعداء القدامى، هل تفهمني شارلي؟؟؟؟

أومأ شارلي موافقًا.

- نعم تمامًا، هذا ما أخبرته به، لكن أنا أرى أن قيمة الشراكة معه قد تفيد أقصد أنه سيقلب الطاولة علينا إذا رفضنا، وأيضًا هو من سيعطي الضوء الأخضر لنا للمواصلة.

ضحك إسحاق ساخرًا..

- ضوء أخضر...! ما حسبت أنك تناقش الأمور بهذه الطريقة..!

- يجب أن تعرف يا عزيزي أن أعمالنا ممتدة في أثرها التاريخي منذ زمن لم يكن لا لرؤوف هذا ولا لأبيه وجود، وعلى أي حال يجب أن تعرف أن العمل لا يتوقف على شخص بعينه.

شعر شارلي هنا أن أباه بدأ يعطي الضوء الأحمر للمناقشة، وأن دفة الموضوع ستتغير فقال:

- لكن أنصار الأمس ولوا، وحل بدلًا منهم أتباع جدد، فهل أعددت لهم ما يرضيهم؟

أنهى إسحاق كوبه،وتركه جانبًا،وقال بلهجة حازمة:

- أنت لا تعرف بعد كيف تسير الأمور هناك.. هذا المدعو رؤوف لا يعمل بمفرده، وبالتالي فهناك من يراقبه تمامًا مثل من يعلم بوجود أعمالنا لديهم، وأي عمل نخص به أحدهم دون الآخر فلتعلم على الفور أننا بذلك نضع شاهد القبر على أعمالنا هناك.

ألقى شارلي قدحه في إهمال حين قال، وقد علت نبرة الحديث:

- أفهم ما تعنيه جيدًا، لكن ماذا لو أنه قد وضع هو شاهد القبر بيده، هل سنربح من بعده شيئًا؟

لازال مكنمارا واشكنازكي يتابعان صامتين، يستخلصان من الحديث عبرة، فربّت إسحاق على كتف ابنه، وقال بهدوء ليحد من إثارة مشاعره:

- لا أعتقد هذا.. سوف أضرب لك مثلاً...

وأشار إلى مكنمارا واشكنازكي.

- أترى هذين السيدين.. رغم ما يربطني بهما من علاقة صدق وود إلا أنك صعب ارضاؤهما في علاقتهما المالية، فلا يمكن أن تزيد من كفة أحدهما إلا وأن تضيف نفس المقدار في كفة الآخر، فما بالك بأناس نعاملهم من جهة المال فقط، لا يربطك بهم لا عادة ولا تقليد، ولا حتى صداقة، فقط المنفعة، وإلا فكيف نسوق أعمالنا من بين أعينهم؟؟؟

نظر شارلي إلى اشكنازكي ومكنمارا، والصمت بات عليهما ملكًا، وهما يتابعان، وقال لأبيه:

- لكن ليس لدى تصور كامل بما تفعله بالضبط.

نهض إسحاق يتمطأ،ثم قال:

- الأمر بالغ التعقيد لكن لتعلم أن أعمال البنوك في تسوية أي من المعونات التي تحظى بها هذه الدول يأتي بمقابل أن نحصل نحن على مانريد لذلك عملي هنا حساس ودقيق لا يحتمل الخطأ، فأعمال مؤسستنا تحيل بعض المعطيات الخاسرة إلى جيدة، فنعلن ما نريد لقاء ما ندفعه.. هذا يكفي لتعرف كيف تسير الأمور.

بعدها كان حديث إسحاق كالأصداء في عقل اشكنازكي الذي اختمرت برأسه فكرة عرف بها مكنمارا حين ابتسم الأول في صمت.

***

كانت شمس أغسطس تلهب الناس بأشعتها الحارقة.. لكن ما كان الأكثر حرقة هو نبأ غرق مجموعة من أبناء المنطقة على الساحل المتاخم لليبيا..

كان العزاء ليس إلا صراخًا وعويلًا، وسبًا وشتائم على الحظ العثر الذي ألقى بالفتيين الهاربين إلى قاع البحر.

حالات الهجرة غير الشرعية كثيرة لا تتوقف.. خاصة من البلاد الفقيرة والضائعة في بئر الحرمان والنسيان، محاولين أن ينجوا بأنفسهم

من شر العوز ومد اليد، بعد أن دفعهم نظام تلك البلاد إلى الفرار من أحضان أوطانهم، فلا يحظون بالعيش ولا ينالون إلا الشهادة...

كومة من البشر التفت حول البيت الذي امتلأ بالصراخ والنحيب على الفقيد.

جاءهم الخبر عن طريق أحد المعارف الذي توسط لأبنائهم في سفر عبر البحر إلى الساحل المقابل،حيث النعيم هناك يوعد بالكثير.

كان هذا وسط غيمة من الغبار والتراب الذي أثارته أم الفقيد وزوجته...

كان وقت الظهيرة حين خرجت هالة إلى حيث عملها الوهمي، لم تتمكن من متابعة ما يحدث، لكنها تعرف الفقيد جيدًا، فهو أحد القادمين من الجنوب يحاول ضرب الطريق إلى أي فرصة مواتية لكن بلا فائدة.

جماعة من الشباب المثابر المتعلم ارتطم حظه العثر برتابة الحياة وعدم قدرتها على استيعابهم...! لكن كيف لهم تدبير المال؟

- ماذا الآن..أنا فقدت ابني؟هل سامحتنا في المال؟

كان الجميع حاضرين: أبو طرف وسعاد ويتوسطهم الأحف الذي امتزجت علامات الكُره واللامبالاة حين قال:

- أنا لا أفهم..ألم يبلغك أحدهم أن لا شيء يسقط الدين..؟

وتبادل نظراته مع سعاد وأبي طرف لكن بلا رد، فأجاب الرجل بصوت مبحوح:

- يا معلم عيضا الرحمة، كيف أسد فائدة الدين، وأنا لا أملك أصل الدين أصلًا؟

وسقط على الأرض، والبكاء ونحيب صوته يملآن المكان، يتوسل الأحف، لكن الأخير لكزه فرده إلى مكانه إلا أن الأحف استنهضه وأمسك بتلابيبه.

- اسمع.. إن لم تدفع ما عليك.. أعدك أن أسقي المنطقة بالكامل من دمك. ما رأيك..؟

وانهال على الرجل كحيوان مجنون أو ذئب مسعور بالضرب حتى أدمى وجهه، وتكدمت أجزاء من جسده الهزيل، فواصل الضرب إلا أن سعاد هدأته، وأوقفت الضرب، وقالت صارخة في وجهه:

- اهدأ..اهدأ..اسمع..هذا لن يرد لك مالك،هناك سبيل آخر...!

أرجعه أبوطرف إلى حيث كان، وساعد الرجل على النهوض، وزوجته وزوجة ابنه الفقيد ينتحبون في صمت، تشاورت سعاد مع أبي طرف حول ما خطر على بالها من حل، وهمست في أذن الأحف...

فزفر الأحف والقرف والغيظ يكتنفان وجه الأسمر المسود، ما لبث أن حلت ابتسامة ماكرة على شفته التي لوثها الدخان، وأحالها إلى اللون الأزرق الكئيب قبل أن يقول:

- اسمع..إذا فارق ابنك الحياة فعلى الأقل لن تلحق به.

ثم نظر لسعاد..

- يالك من شيطانة....

***

كانت هالة في حالة من عدم الاستقرار، وقدرتها على التحمل باتت تنبض لقاء الضغط الواقع عليها، لا تعرف إلى أي طريق تتجه، بل إنها قررت الهجرة، بعد أعوام قضتها هي وأخوها في مراسلة أشخاص عديدين في بلدان شتى، لكن بعد حادث الوفاة تردد إسماعيل كثيرًا في خوض هذا المشوار المرير.

قد يسمع المرء بتجارب وأخبار الأسلاف، لكن لا يهتم حين يرى أن الأمر على مقربة منه، وأن أحدهم سقط فيما كان يود الشروع فيه، فإن تجارب الآخرين تظل محفورة في ذهنه، مشكلة الأخبار أنها تحمل من الكذب والتأويل الكثير، لكن الواقع القريب لا يكذب.. ماذا تفعل؟ والخطر المحدق حولها يتحرش بها، وبالكاد أخوها يسد حاجات البيت، لكن إلى متى؟ كان السؤال لا يزال يخالجها، لكن هل يعقل أن تتحول نهايتها إلى حضن رجل يتكون من هلام تتوسطه قطعة من حجر وعقل يطن كالطبل!!

هل من ضمن الخيارات أن تتوجه لسعاد وتسألها طلب الرزق والعمل؟ بالطبع لا.

حاولت هالة جاهدة العثور على عمل إلا أن الفرصة لا تزال بعيدة.

كان الأمر أصعب من التخيل وأقوى من أي احتمال، تخيل إنسان بدأ حياته لقيطًا مشردًا مهددًا بالطرد من الدنيا، والخوف يزرع أفدنة في قلبه الحزين، تتخفى من الآخرين، تتوارى بين ثنيات النسيان والفقدان، لكن رغم ضيق نفق حياتها واسوداده إلا أن هناك من يرى

فيها طريدته، هل مصيبتها تعوز المطاردة؟ فهي تكره جسدها الذي أساء لها كثيرًا، فلولا هذا أيضًا لما طردت من عملها بعد أن حاول أحد النزلاء استمالتها، فكشفت له عن حقيقة ما تخفيه، فكاد الرجل أن يسقط مغشيًا عليه!!

فكرت أن تكشف بصراحة لسعاد عما تخفيه من سر، لكن كيف سيكون الوضع؟؟ ليست لها خيار غير التخفي والهروب والهروب ثم الهروب...

***

الشيطانة...!

بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ظهر فكر ينادي بأن على أمريكا أن تبدأ بتحصين نفسها، وليس هذا بغريب، لكن الغريب أن هذه التحصينات وحدود دفاعها تبدأ ليس من عند أرض الأمريكان بل تبدأ أولًا وقبل كل شيء عند الأعداء، أي إن خطوط دفاعها هي خطوط هجومها ومواجهتها مع العالم، أسفر هذا الفكر المتطرف المجنون عن حربين في بلدين مسلمين على أنهما مستنقع الإرهاب، ولتبرير هذا ادعى صاحب الحرب أنه يطهر مستولدات الشر وهي تبدأ من الإدارة السياسية الظالمة للبلدان التي ينشأ عنها نفور شعوبها لعدم قدرة هذه الشعوب على مواجهتها بسبب القبضة البوليسية التي تنتهجها، وبالتالي الهروب إلى حيث أناس أكثر رحمة وأكثر عطفًا، يعيشون في سلام على الطرف الآخر من العالم وارتكاب أبشع الجرائم بحقهم، لكن النتيجة أتت بغير ما يشتهي صاحب الجند...

هنا أتى فكر أكثر روعة وأشد عمقًا وأقوى تأثيرًا، وهو يبدأ عند النقطة نفسها وهي ماذا بعد الحرب؟؟

الفكرة ببساطة تمامًا كمقاومة الجسم للعضو المزروع فغالبًا ما تستنفر جهاز المناعة في داخل الجسم تجاه هذا العضو الدخيل لكن الجديد أنه يتم تطويع وتطبيع هذا الدخيل على أنه عضو أصيل!

"جمعيات التنمية الاجتماعية" هذه الجمعيات هي الأداة التي انتهجها أصحاب الفكر الجديد في تطبيع وتطويع هذه المجتمعات، وهذا ليس سهلًا، فتمويل القروض ومشاريع البنية التحتية والتعليم والصحة والإنجاب إلى خلافه من الأمور التي غالبًا ما تشكو منها المجتمعات ذات الدخل المتدني، من هنا يبدأ الدخيل في إملاء ما يشاء من قواعد تصبح بعد ذلك مبادئ راسخة في أذهان الناس بفعل الإعلام أو الدين المسيس أوالجنس المسيس حتى ترتقي لتصبح لديهم قاعدة دستور يستقوا منه القوانين والشروحات لا لائحة طارئة، شيء أصيل لا استثناء.

وكل الطرق مسموح بها في هذا السياق بداية بالمساعدات وبرامج الإعانة وتقديم المساعدات، وحتى الضغط بالحرمان من المعونات والبضائع الأساسية في حالة العصيان، وجمعية ميكاروس التنموية اعتمدت على هذا التخطيط، فشارلي الفتى الطائر ساهم بشكل خطير لايمكن إغفاله، رأى أن استقطاب الدعاة الإسلاميين ونشر ثقافة قبول الرأي الآخر، ونشر ثقافة حقوق أهل الذمة في العقيدة الإسلامية من خلال الدين الإسلامي أمر هام جدًا، وهو ما أتى بثماره في السنوات الأخيرة رغم أحداث الشباك الطائفي الذي قد ينشب من وقت لآخر، وهو ما يؤكد كيف أن من يأكل خبزه

على مائدة غيره يفقد قوة ذراعه، فهذا تدخل أكيد في شؤون البلاد الاقتصادية والسياسية ليصب في النهاية لتمييز ديني سافر؛ ولهذا يجد شارلي سنده في أهم وأكبر الشخصيات بالبلاد لتمرير أي فعل مادام جدول الإعانة مستمرًا في التدفق.

كانت العودة سريعة لكن شارلي الذي يؤجج قلبه الهوى وحب دينه لا تنهك قواه أتعاب الأسفار، لا يعرف كيف ستكون ردة فعل رؤوف، فهو ليس على قناعة بأن ما يقدمه أبوه يكفي لسد طمع هذا الرجل، ويعرف أن ما من شخص لا يحبذ أن يستأثر لنفسه بنصيب أوفر دون غيره، لكن هذه الفرصة أصبحت غير متوافرة الآن.

على ضفة النيل والجانب الآخر يتلألأ بأضواء الشوارع والحوانيت وأضواء السيارات، كان شارلي ورؤوف يتبادلان عبارات المجاملة إلى أن جاء الحديث عن النقاط المثمرة كما أراد رؤوف حين قال:

- كم أود لو أنك قد أصبت معروفًا فيما طلبته منك.

- ليس الأمر كما يطمح المرء إليه، لكن بقدر ما عمل من أجله، وأنت سيد رؤوف من أكثر من أخلصوا إلى عملنا الإنمائي.

- ارتسمت ابتسامة الامتنان على وجه رؤوف..

- هذا ما نطمع فيه أن نكون لدى حسن ظنكم بنا، والآن هل عرفت كيف أبدو عند والدك وشركاه؟

هز شارلي رأسه بعد أن فكر مليًا..

- الحقيقة أنك كما تبدو ليس إلا رجلًا لك ثقلك ومعروف على نطاق بلدك كأحد المهمين في تحريك الأمور والتأثير على متخذ القرار، وهذا ما لمسناه في عملك معنا.

إلى هنا توقف شارلي يتابع نظرات رؤوف التي بدت عليه غبطة الفرح حين قال:

- أرجو أن لاتتوقف صورتي عند هذا الحد.

أشاح شارلي بيده ضاحكًا

- لا تقلق الصور كلها حاضرة، لكن حين أشارت إلى أن تكون شريكًا لوالدي عبر تجارته لم يتوافر لديه أي فرصة لإشراكك فيها، وعلى أي حال ليس هذا آخر المطاف.

شعر رؤوف أن شارلي يتنصل من أخباره بأن النتيجة غير مفرحة، فقال رؤوف وهو يتحسس كلماته:

- أشعر أن الأمر لم ينتهِ على خير.

- الحقيقة أن أبي رفض أن يتعاون بشكل أكيد من خلال تجارة أو نشاط بالخارج في الوقت الحالي،لكن مقابل هذا سوف يزيد دعمه لكم.

حل الحنق على رؤوف فجأة حين قال:

- لكم! من نحن سيد شارلي أنا أتحدث عن نفسي كعمل يدر ربحًا لي ولوالدك،أنا أتحدث بصيغة أنا وليس نحن...

مط شارلي شفته

- صدقني أنا لا أعرف، فقد عارض أبي أن يدفع في خصوصك بشيء ما، وهذا ما جعلني...

قاطعه رؤوف بحدة...

- اسمع، يجب أن تعرف أني لست صبيًا يلهو بدراجته، ويجب أن تكون معي أكثر وضوحًا.

كان رؤوف يتحدث من منطلق قوة؛ حيث يرى أن تبادل النفع في نشر دين شارلي يقابله نفع في تجارته؛ لذا شعر أن الكفتين متوازنتان، لكن شارلي لم يمهله وقتًا لتوغل هذا الشعور بنفسه حين قال بهدوء وحزم:

- يجب أن تعلم سيد رؤوف أنني هنا الآن ليس ضيفًا أوصديقًا، بل أنا من أجل عمل وإبلاغك بكل ما يخصنا؛ لذا من الواجب معرفة ما تحققنا منه، فغالب أعمالك تبدو لنا أنك رجل صاحب خبرة طويلة في مجال الأسواق الاعتيادية، صاحب رأس مال يعد الأكبر في البلاد، لكن في بعض التفاصيل التي بت مستشارونا بقرارهم في أمرك أن من بين رؤوس أموالك مالًا مغسولًا، بداية من الرق الأبيض هنا في بلادكم نهاية بتجارة الأعضاء البشرية عبر شركات متخصصة من تل أبيب وحتى بانكوك، أنا فعلاً كنت أعرف بداية أصل المال، لكن ما كنت أتخيل أبدًا مثل هذا التجاوز السافر للمرء، ففي بلادك أنت تتخطى أي حدود.

نظر شارلي إلى رؤوف المتجهم،وهويتابع...

- ثم إن الأعمال التي تديرها في المغرب العربي أيضًا ملوثة بشكل سياسي خطير، فأنت تحصل على دعم كبير من الحكومة الأمريكية لتفريغ السيطرة الفرنسية عن هذه البلاد التي كانت تعتبرها إلى يومنا

الحديقة الخلفية لها، ولقاء هذا تحصل أنت على تقدير مخابراتي بامتياز مما يدفع إلى البعد عنك فورًا؛ لأن غالب هذه الأمور تنتهي إما بالاغتيال أوتصفية الحساب بشكل مرير.

- هنا نظر رؤوف إلى شارلي كمن ينظر إلى مرآة قبل أن يقول بهدوء

- معذرة سيد شارلي.. هل فعلا هذه المعلومات نتيجة تقصي حقائق عني؟ أقصد هل هذا كل ما لديك؟

أومأ شارلي برأسه..

- كما أخبرتك، إننا سنتبع كل ما هو في أثرك حتى نصل إلى ما نريد،لكنك وفرت الكثير إذا كان من السهل الكشف عن سير أعمالك...

شعر رؤوف أن دوارًا قاسيًا يغلف رأسه، لكنه قاوم وهو يشهر سلاحه الأخير

- حسنًا.. إذا كان هذا رأي الفتى الإنجليزي الرائع فكيف ترى الضرر الذي سيلحق بدينك؟

أشاح شارلي بيده،فقال:

- وماذا عن تقارير البنوك والمعونات...و...

قاطعه رؤوف بسرعة ساخرًا..

- فليذهب كل هذا إلى الجحيم أنا لا أهتم.. أنا لا أهتم ما دام لا أرى فيك سندًا وعونًا كما ترى في الشيء نفسه..

ثم صمت هنيهة قبل أن يواصل..

- تذكر ستجد في كل خطوة عقبة.. كم كنت أتمنى أن لا تنتهي الأمور على هذا النحو.

قالها رؤوف وغادر المكان بهدوء دون جلبة.. لكن غصة الهزيمة تكاد تقتله يفكر فيما كان ينوي أن يكسبه من جراء هذه الشراكة ها قد ذهبت أدراج الرياح...

لكن هذا أيضًا ليس كل شيء...

***

كانت سعاد تتعامل مع الجميع من منطلق أنها رسول الفرصة الأخيرة، أو أنها من يستطيع إحالة هذه الحياة إلى أخرى أفضل...

زيارتها لأهل الضحايا ليس للمواساة بل من أجل أن تعرض عليهم فرصة ذهبية لا ترد...

بين جدران الصفيح وسقوف القش كانت الناس تعيش حياة يبدو أنهم اعتادوا عليها، تشعر هنا بالردة إلى الوراء، لكن سعاد توهم الآخرين أنها هنا من أجلهم...

طرقت الباب الخشبي الذي يمكنك أن ترى فيه السوس ينخر بدنه بكل وضوح بعد موجة من النحيب واصطناع الحزن على الفقيد، لم تستمر سعاد كثيرًا، بل كان مدخلها سريعًا جدا، وكذلك قصيرًا حين رد أحد الرجال...

- لكن كيف..؟

ارتسمت ملامح الخبرة والثقة على سعاد..

- بسيطة.. إنها فرصة عظيمة أقدمها لكم، مادام ينقصكم المال فلمَ لاـ تزوجون بناتكم لمن يقدر جمالهن؟؟!! هناك من يود أن يدفع مالًا وكفيل أن يحيل حياتكم إلى جنة، وأنا أعرف الكثيرين..

صمتت سعاد ترى أثر كلامها فصاحت أم الفقيد:

- لكن البنات صغار لم يتجاوزن الثانية عشرة من العمر...

صاح أخ الفقيد:

- انتظري يا أماه.. وهل تزوجتي أنت بعد العشرين؟ الزواج للبنت سترة..

بدأت سعاد تدرك أن كلامها أصاب الشيء ذاته، وأن هناك من يقف بصفها الآن.

تابعت، وهي تجذب الفتاة التي ارتسمت عليها ابتسامة بلهاء..

- أخبريني يا ست.. هل هذه الفتاة لم تنضج بعد..؟ إنها كبيرة بما يكفي، ثم لا تنظري لها وحدها، انظري إلى ما ستكونون أنتم عليه بعد دفع المال.

لم يرد أبوها، كان التفكير يكاد يأكل عقله، لكن الأم عادت وجذبت الفتاة..

- لا لن أفعل وأفقد ابنتي الوحيدة، إنها نور عيني، وتذكرني بالشهيد رحمه الله.

تقدم هنا ابنها:

- ست سعاد.. هل لي فرصة معك؟

نظرت سعاد له بازدراء، وقالت لأمه بحزم:

- حسنًا.. اسمعوا.. إن ما أعرضه عليكم أيضًا ليس بالأمر السهل، فهناك مشاورات وتفاصيل كثيرة، لكن كل ما أستطيع أن أؤكده هو أن المعلم عيضا لن يترك لكم خيارًا آخر غير دفع ما عليكم من مال وفوائده، سواء إذا سقط المال مع ابنكم في البحر أو أكله القرش.

شعرت هنا الأم بالإهانة، فصفعت سعاد وأفرغت سيلًا من السباب، وقبل أن يقوم شجار هدأ الموقف قبل أن يشتعل، فقالت سعاد، وكحل عينها الذي لطخ أسفل عينها زاد من دقة مشهدها:

- حسنًا.. فليرحمكم الله.. الأحف لا يعرف البدائل، إذا عدلتم عن رأيكم تعرفون أين تجدونني.

قالتها وغادرت المكان كالعاصفة...

كانت الخيارات لا تتيح إلا أقل القليل؛ فالأحف بهيمنته الضاربة وشره المستطير وقدرته على إصدار الحكم وتنفيذه دون أن يطرف لزبانيته جفن، وهم كثيرون حول الأحف ويفعلون هذا طواعية ودون مقابل...

كانت البداية صعبة ها قد تلقت أول صفعة في أول مشوارها فما الباقي يا ترى؟

بقيادة سعاد بمعية أبي طرف ورجلين آخرين كان معهم (الخبير المثمن) أوالنخاس ليقدر ويقيم كل فتاة حسب العمر وحسب الطلب

مسح الرجل عرقه، وهويخطو إلى داخل المكان الذي تغلفه رائحة الصرف والعرق والتراب..قال مازحًا:

- أتعرفي يا ست سعاد.. لعشرين عامًا كانت مصر ولاّدة لخيرة زوجات الأثرياء العرب !

فقالت مداعبة:

- ليت كانت الفرصة متاحة لي...

دخلا إلى البيت.. الذي ما كان لا يختلف عن المدخل كثيرًا، الغبار يعلوكل شيء، ومياه الصرف تغمر أرضية البناء، وأسياخ الحديد النافرة تتدلى من الأجزاء المهدمة من الجدران.

أمام أعين الأهل والبكاء الصامت يغلف المكان، ونظرات الرهبة والخوف تقتل أنفاس الفتاة، تفحصها الرجل بعدم اكثراث، وتفحص أسنانها وعينها وجلدها وشعرها وتأكد من طراوة نهدها، حتى أثار حفيظة أهلها لكن الهمهمة المتصاعدة هذه أوقفتها سعاد بيدها، ونظرة الرجل الجامدة الثاقبة التي توحي بالجدية...

- لابأس، إنها ليست سيئة،يمكن التفاوض بشأنها...

صاحت هنا سعاد بلهجة البائع:

- نتفاوض؟؟!!! اتفاقنا محدد، لا تفاوض أو مساومة، إن هذه الفتاة لقاء فدية أهلها من عذاب أليم، المال المطلوب كثير والأحف لا ينتظر...

رد الرجل ببرود مستنكرًا:

- أنا متعجب حقًا.. ماذا تبقى للإنسان ما دام هو نفسه محل البيع والشراء..!!

إنها كتجارة الأعضاء، لا يبكي أحد على ما فاته؛ لأن أجزاء من جسده أضحت ملكًا لغيره، الأمر لا يختلف كثيرًا...

حركات سريعة بين البيوت بشكل زوار منتصف الليل...

وتتكرر العملية، ويتم التقييم وقتها، بالإضافة إلى دفع المال مع هامش ضئيل عن الدين الأصلي وفائدته.

رغم ضيق المكان وقرب الناس من بعضها بشكل لا يصدق، إلا أن مثل هذه الأمور تتم بسرية حتى أن الأحف يتعامل مع المديونين بشكل غير مباشر، وبشكل أيضًا غير معلوم، حتى الناس بينهم لا يعلم أحد منهم من يقترض ومن لا يفعل، غير أن هناك من يتباهى أنه اقترض مالاً من الأحف ورده!!

الأمر في غاية التشعب قد يقترض أخوك مالًا دون علمك، بينما جارك يسير أموره مع الشيطان في العلن، ورغم هذا لا تعرف هل هم مذنبون؟؟؟

أم أنهم ضحايا..؟؟؟

لا تبدو الإجابة سهلة الآن...

***

كانت حالة من الفشل وغيمة من ضباب اليأس كاد أن يقتل رؤوف، بل إنه شعر أن حياته توقفت رهن هذه الصفقة التي بدت له مفتاحًا إلى آمال جديدة، بل الأدهى أنه اعتبر ملياراته لا تعدو عملات معدنية في خصالة طفل..!!!

الضجر وغبطة الغيظ يكتنفان وجه المسود، وأعصابه تكاد تنفلت مع أبسط مؤثر، أمر غريب أن يشعر بهذا وهو ما كان لا يعبأ بأي شيء؛ ربما لأنه كان هنا ملكًا على كل شيء، كل ما يرغبه يصبح أمرًا نافذًا، بل إنه لا يكلف نفسه عناء التفكير حتى..!!

كانت أبخرة حمام السونا وروائح الأوراق الطبية تفوح في المكان مع حيطان مزركشة بألوان سريالية دافئة متجانسة مع اللون الأحمر المنبثق من الأماكن التي تحيط بالرجل الذي هرم كتفه وتدلت رأسه على صدره ويلهو عابثاً بطرف منشفة البشكير التي تستر خصره.. ليستغرق لأول مرة منه التفكير حيزًا كبيرًا من عقله...

كيف عرفوا بالتمويل الأمريكي لمشروع بلاد المغرب؟

مبدئيًا أنا معترف بسهولة الاطلاع على نسق الحياة هنا في البلاد، فالأمر ليس بعميق، بل إنه ليس بسطحي حتى لتقدح فكرك لتتوصل لشيء.

هل هناك من بين صفوف رجالي أحدهم...؟؟

لا أعتقد أن الأمر بهذه البساطة...

هنا نهض ليفك عن نفسه حبسة الاكتواء بالتفكير، هبط إلى حوض المياه الدافئة، وأوراق اللورا، وزهور الياسمين والزنبق العطرة تسبح بهدوء على فيض الماء الدفاق من الجوانب، لكنه ما لبس أن هاجمه التفكير مجددًا.. لا أعتقد أنه أمر مقبول.. أن يعتلي شخص منصة الحكم بهذه البساطة، هذا أيضًا جديد على شخص مثل رؤوف أن يخوض فكرة ولو لمجرد فكرة، أن يستأذن أحدهم، أو أن هناك من ينظر في أمره.!!!

ففكرة الإله الواحد مسيطرة عليه بشكل أساسي أكثر من الدينيين، ليس للعبادة، أو من أجل العقيدة، بل الأمر متمثل في نفسه وذاته، فهو إما أن يكون آمرًا، أو ناهيًا، لكن أن يقع هو في إطار العبودية وانتظار المصير فهذا جديد بل وغير مقبول، لن أقبل حتى التفكير في هذا.

وغاص في الحوض وأرخى ظهره، لكنه عاد يفكر بشكل مشحون، وأجواء الدفء والهدوء لم تفلح في طرد الأفكار من رأسه، أرضية الحمام من الخزف الملون بألوان زاهية ونقوشات سافرة فاضحة لأناث عراة يتصار عن على الارتواء من فرج إحدى الملاكات المجنحات، كان رسمًا أشبه بأسقف الكنائس التي غطاها مايكل أنجلو برسوماته، على هذه الأرض كانت سارة تخطو نحو حوض أبيها الذي فشل في إنقاذ عقله من فيض الأفكار الغارق.

داعبت براحتيها أكتافه دون إذن فلم يفاجأ، بل قبل يديها وقبلته بدورها...

- أليست هناك؟

همست بصوت كالفحيح:

- إنها بالخارج.

عادة ما تستقر عليا بالمترل في حضرة سارة، لكن سارة تؤجل أهم أوقاها الحرجة لقضاء وقت عصيب في وجود عليا، خلعت ثيابها رنزلت الحوض وأراحت رأسها على صدر أبيها.

- ليس بمزاج لشيء يا سارة.

حملت نظراها معاني متداخلة وأحاسيس غير مسماة وفيضًا من رغبة وغريزة لا تنتهي، ازداد منها الضوء الأحمر الدافئ، فقالت بهدوء:

- أنا أيضًا لست هنا من أجل أن أداعبك بنهدي، بل أنا أعرف ما تمر به، حاول أن تبدأ من جديد، وفكر في الأمر جيدًا، ربما أن في الأمر حسنة أنت غافل عنها، فكيف لك أن تغوص في غمار عالم لا تعرف قواعده، وتسبح فيه كسائح بلا دليل، ويُفعل بك ما لا ترغبه، لكن أنت هنا رب كل شيء من الصفيح حتى الماس الذي يزين أصابع نساء نادي زوجتك التافهة...!!

ضمها لصدره قبل أن يقول:

- صحيح لكن هذا العالم بات أضيق من الفاصل الذي بيني وبينك، لقد سئمت الحياة هنا، العالم بالخارج رحيته أكبر بكثير مما تتخيلين.

قاطعته بأن قبلته، بدأت العلاقة بين رؤوف وابنته تأخذ من السجية، بحيث أضحى من الطبيعي أن تحنو عليه كلما رغبت، وينصرف عن عليا كلما رغب في مضاجعة ابنته، لكن هذه المرة ليست من أجل الانتقام أو إثارة جنون عليا، بل إن سارة وجدت في العلاقة الآثمة بأبيها متعة أخرى، وهي أن تشارف على حد الجنون، على اعتبار أن الجنون متعة، صحيح تفقد الحياة الكثير من المعاني إذا بقيت دون مغامرة، أو الحس بطعم الخروج على المعتاد.. أنفاسه عادت تتلاحق لتلبي المجهود الوافد من ابنته التي ما تركت لأبيها منفثًا لشهوته.

انتهى الأمر، وجفون رؤوف النصف مفتوحة دلالة على زوال قوته، ومعها امتصاص كامل شهوته، ولملمت سارة نفسها وركضت خارج الحمام، والإناث العطاشى ارتوين من الماء الساقط من ساقيها هذه المرة.

***

مر شهر على آخر لقاء بشارلي ورؤوف،ولا جديد!!!

كانت حركة الانتقال والتغيير الوزاري التي أكلت الجو، وشتت العقل لدى كثيرين من رواد نادي العاصمة، لكن ما من شيء أرهق فكر رؤوف داغر بقدر فشل الشراكة التي كان يرمي لها.

فمثل هذه الأمور من تغيير وزاري أو تعيين نواب البرلمان لا تشغل بال رؤوف فهو يعرف أن أهل الثقة أولى من أهل الخبرة، فهو يود أن يدفع بكل من لهم مصلحة، ويؤمّن جانبهم في المقاعد التي يتبدل حال

أصحابها، فرؤوف يختار من يرى فيهم من يدفعون بمصالحه ومصالحهم ويبقون على مصلحة الوطن في جُب عميق أو وادٍ سحيق.

بعد أن أقال رؤوف وزير الري والموارد المائية بتوصية منه بسبب أن الأخير ادعى أن المشروع الإسكاني العملاق الذي يقوم رؤوف على إنشائه في البلاد يستنزف ماء من موارد البلاد للمياه الجوفية والأعين الكبريتية التي تصب في منتجعه الصحي بلا حساب، فحين أثار الوزير رياحًا من الإعاقات حول مشروع رؤوف بوازع من حرصه على ما يشرف عليه وما يقتضيه منصبه من أمانة، وحرصه على المصلحة العامة أطاح به رؤوف بجرة قلم.

مما أثار الأقاويل عن الوافد الجديد الذي تسارعت عينات من علية القوم من المعارف لاختطاف هذا المنصب.

لكن هذا لا يحدث إلا بالتودد لرؤوف في المقام الأول مادام هناك من يحركون مجريات الأمور من خلف الستار.

كانت جلبة كبيرة والأجواء مشحونة كتيار كهربي، وأناس كثيرة تتحدث هنا، وآخرون هناك حول التشكيل الجديد لنادي الحكومة.

في حين أخذ رؤوف جانبًا للحديث مع أحد رجالات الحزب الحاكم:

- أنا أرى أن ما من شيء أهم من مصلحة الوطن، الأمور تزداد تعقيدًا والوقت لا يسعفني؛ لذا كما ترى من الواجب أن أهيىء جوًا من الاستثمار والمناخ الجيد له، أليست هذه مصر الحديثة؟

ضحك الرجل، وهو يعدل عويناته ذات الإطار الأسود الكبير والشارب المنمق الرفيع

- أنا أفهم شعورك يا رؤوف، لكن أيضًا الإقالة لا تأتي ببساطة، وأيضًا الصحافة تنظر بعين الفضيحة.

تململ رؤوف،وقال ساخرًا:

- صحافة؟؟ أولئك الصبية أصحاب الأقلام الفارغة؟ أنا أعرف أنها كلها وسائل وأداة بين أيديكم لتحريكها على من تشاؤن، وهو أمر مارسته كثير في بداية حياتي، اسمع هل قبلت أن أعين لك أحدًا يجيد القيام بدور الوزير؟؟

اعتدل الرجل قبل أن ينمق شاربه الرفيع بسبابته...

- لكن أنا أرى في زوجتك أهلًا لهذا المنصب.

قال رؤوف متفكها:

- عليا؟؟ لا أظن، فرغم ما لهذا المنصب من صورة براقة إلا أنني أرى أن له مشاكله، أقرها أن كل أعمالك في الضوء، وأنا أحبذ أن يبقى أفراد عائلتي بعيدين عن الضوء ومشاكله، أنا أجيد إدارة الأمور لحسابي، وأنا من أنعم الله عليه بنعمة الظل.

وأشار بإصبعه إلى السماء،ففهم الرجل إلى من يرمي إليه رؤوف، فابتسم، فتابع رؤوف:

- فالوزير ما هو إلا درع جريء لترشقه الناس والصحافة بتهم الاختلاس والفساد والتزوير، بينما أقدر أن أفعل أي شيء بتحريك أمثاله كعسكر الشطرنج، شرط أن تجيد اللعب.

وضحكا سويًا،فتابع رؤوف بجدية:

- والآن ما رأيك في محمد الشهابي؟

قطب الرجل حاجبيه.

- من الشهابي هذا؟؟لم أسمع عنه قبلًا!!

أوضح رؤوف قائلًا:

- إنه صديق كان من بين من تعرفت عليهم أثناء عملي بالخارج، يجيد إدارة الأعمال حسب ما نرغب، إضافة إلى أنه حامل للجنسية الأمريكية، وصاحب أعمال بالخارج؛ إذ إنه يفهم كيف يلعب بروح المهاجم وقدرة المدافع.

هز الرجل رأسه في تشكك..

- حسنًا،لكن أيضًا يجب أن نتحرى في أمره.

استنكر رؤوف قائلًا:

- نتحرى في أمره؟؟؟

أنا لا أتحدث عن هاوٍ، بل إنه خير من يكون طوع أمرنا، ومنفذًا لرغباتنا، أرجو أن تسرع الوقت، لايبقى لأحد فرصة، الضغوط والإغراءات عليّ كثيرة، أود أن تكون حجتي في شغل هذا المنصب أنه قد بات محجوزًا.

هز الرجل رأسه:

- كما ترى، أنا لست إلا رسول، فأنت تعرف من يقوم بتحريك قطع الشطرنج هذه.

فضحك رؤوف..

- حسنا وهوكذلك...أعتبرها موافقة مبدئية؟؟؟

ثم رفع يده، وقال موافقة، فضحك الرجل، ورفع يده بدوره،وقال:

- موافقة.

وموجة ضحك...

***

هذا الرجل يلعب دون هوادة، وقلبه على المخاطرة كاسر، فمع الغزو السوفيتي لأفغانستان ازدهرت تجارة الأسلحة التي شارك فيها بإنشاء مصنع بدعم من الأمريكان على الحدود البولندية الألمانية لدعم صفوف المقاومة بمواجهة السوفيت، وربح منها الكثير حتى كوّن ثروات طائلة وكرّر المحاولة مع مد تيار أسلحته إلى مناطق النزاع في العالم، حتى انتهى به الأمر بقصف مصنعه مع بداية الحظر الجوي الذي فرضه حلف الناتو على إقليم كوسوفا عام 99 خشية أن يمد المواطنين العزل بالسلاح باسم الأخوة في الدين، وهذا كان تمهيدًا قبيل الغزو الأمريكي لأفغانستان خوفًا من أن تسحق الدُب رأس صاحبه..!!

خسر لقاء هذه المغامرة مليار دولار دفعة واحدة إلا أن الأمريكان يعرفون كيف يصنعون من عدوالأمس صديق اليوم، ففي تحدٍ للدول الاستعمارية ذات النفوذ القديم، ومن باب (تمغيص الكلى) فتحت له مجال الاستثمار في بلاد المغرب العربي لفض السيطرة الفرنسية القديمة وأحاطتها بفكرة أن الأمريكان هم أصحاب السيادة، وأعماله قوية بما فيه الكفاية، هناك أعمال اتصالات ومقاولات، وعقود توريد لغالبية الشركات الأمريكية هناك.

لكن وعلى ما يبدو أن الأيام الخوالي تؤجج شوقه لصناعة السلاح خصوصًا أن مناطق النزاع في العالم أصبحت أكثر، ونسبة الربح حسب تقديرنا تبلغ 600%.

- إذن نحن أمام رجل من مرتزقة الحروب؟

- ليس بالضرورة، فهو يرتزق من أي عمل حتى ولو من الجاسوسية، لكنه يميل إلى الأعمال المتداخلة ذات النشاط المتعدد، بحيث يغسل ماله الملوث في أعمال حكومية، بداية ببناء البنية التحتية في أعمال إعمار العراق التي حصل عليها بموجب اتفاق مع الأمريكان، وحتى التقنية المتقدمة فهوصاحب حزمة من معامل تديرها شركات دواء بالغة القوة على أرض بلاده لكن بشكل سري.

- آه. أرى فيه صيدًا ثمينًا، فالجشع وحب المال يجمعه حتى مع أعدائه،كم أحب الأغبياء!

هكذا قالها اشكنازكي ردًا على مكنمارا،فرد الأخير:

- لكن اللورد عارض الفكرة منذ البداية.

قاطعه اشكنازكي:

- بالطبع لن ألعب في ملعب الأمريكان وأسلحتهم، سوف أجذبه إلى ما هوأكثر نفعًا وإغراء.

- ما هو؟

- العقارات.. هذا السوق المتنامي، بالغ الاتساع، يزداد باطراد كل يوم في السوق الأمريكية.

التقى حاجبي مكنمارا..

- لكن كيف؟ إنه يحاول استعاضة ما فقده في سوق السلاح، هل سيخسر من جديد في سوق لا يعرفه...!!؟

ضحك اشكنازكي حتى ظهر نابه الأيسر الذهبي.

- الجشع.. يا سيد مكنمارا يساوي المخاطرة، وأنا أحب المغامرين، ثم إن له أعمالًا من العقارات في بلده وأخرى في المغرب العربي كما ذكرت.. إذن من السهل إشراكه في أعمال مشابهة.

ضاقت عين مكنمارا اليمنى وقال مستشفًا:

- اشكى..هل لي لن أخمن؟

مال اشكنازكى نحوه:.

- لك هذا؟

قالها مكنمارا متحسسًا حروف كلماته.

- أنت تحاول أن تعود إلى السوق من جديد بعد خسارتك، أليس كذلك؟

أشار اشكنازكي بسبابته:

- ليس مخطئًا من صورك شيطانًا ماك..تقرأ الأفكار جيدًا.

ثم نهض يشرح وهو يلوّح بذراعيه...

- لقد خسرت الكثير، ولكن إقبال الناس على شراء العقارات، وإعادة بيعها نشط لدي، إنه من الممكن العودة ورد بعض الخسارة، أضف إلى أن نسبة الربح الآن تتجاوز التوقعات ودراسة بسيطة تثبت صحة كلامي، المسألة تحتاج إلى تدبير مال كاف، وإلى بعض الوقت والصبر، وأرى في هذا الرجل فرصة مناسبة؛ لذا لو دفع العجلة إلى الأمام سأكون...شاكرًا..

هز مكنمارا رأسه..

- نعم.. من الممكن أن يتم إغواؤه بشيء كهذا.. لكن كيف..؟

ارتسمت بسمة عريضة على اشكنازكي...

- هذا أبسط ما في الأمر.

***

صيف أغسطس والقيظ شديد، والحركة أنهكت مفاصله، هذا إسماعيل بين الطرقات يسير ودرجات السلالم صاعدًا هابطًا بين الحواري والأزقة، كانت وظيفته كعامل تحصيل لشركة الكهرباء، تقريبًا ما فاتت لحظة على إسماعيل، وعقله لم يحلم بالخروج خارج دائرته، فلإسماعيل دائرة يرسمها بخياله، فبين الناس يرى نفسه ذات قدرة على العطاء لكن بلا فرص، صاحب فكر ونفس راضية لكن بلا رجاء، يفزع إلى الأشياء التي يرى فيها خلاصه، لكن ما من أحد مجيب للدعاء.

هنا في أحد محلات الإنترنت التي انتشرت مع انتشار الاتصالات، كان عادة ما يخطف من الوقت ما يسمح له لمحادثة أي أطراف أخرى غير مصرية.

كان كمن فقد الأمل في العثور على واحة يستظل بظل نخيلها وينعم بحلو رطبها...

لكن أيضًا ليس الرد هنا هو المشكلة بل إن هالة تقف له عقبة كبيرة.. فهو يعرف أن ما من أحد لها غيره وأن ذئاب البشر تتربص لها غير عابئة بجيرة أو عشرة قديمة، لكن كيف يكون الحل؟ لذا لا يجد في التحدث أكثر من الحديث وتفريغ شحنة الهم وإراحة جسده الذي تبرده قطرات العرق.

كانت هذه هي الإجابة التي حصل عليها إسماعيل منذ فترة، حين أخبره أحدهم أن فرصة ما تلوح في الأفق للقدوم إلى الخارج، كانت هذه الفكرة عالقة بذهنه لكن ماذا عن هالة؟؟

يتردد السؤال بقوة في رأسه كمطرقة هوت على رأس طفل!!

لكن ما كان يهوّن من أثر الصدمة هو الشرط المانع لإنجاز السفر إلى الخارج.

هو أن يدع مبلغًا كبيرًا من المال في أحد المصارف لقاء أن يعامل على أنه سائح أو زائر لكن ماذا بعد؟ هل يهرب ويكسر فترة السماح؟ هل هذا حل؟ وحتى ولو فعل من أين له أن يضع مبلغًا في مصرف...؟

طبعا فكرة الاقتراض مرفوضة تمامًا سواء من الأحف أومن غيره؛ لأنه ببساطة لن يرد المال!

طبعًا كانت صورة أهالي الغرقى الشهداء لا تفارق ذهنه الذي أعياه التفكير في مستقبله ومستقبل أخته، لكن دون جدوى!!!

صحيح أنه للحظات فكر أن يرهن أخته لدى الأحف لقاء مال، لكن يعود يلوم نفسه بشدة على مجرد التفكير بشيء كهذا، حتى إن هالة تفاجأت به يحتضنها ويقبلها دون داع.

لذا كان يرى الفكرة باهتة لا أثر فيها للحياة.

كان هذا هو الرد الذي عادة ما يقوله للطرف الآخر.

وغادر المحل وخرج إلى الشمس والجو اللفح.

***

فرصة،وفرصة أخرى...

كانت حالات من الخوف والتوجس وأخرى من الترقب تنتظر نتائج ما اقترفت أيدي الناس بما فعلوا بأبنائهم، بالطبع الأمر هنا بيع وشراء نوع من التجارة، وأيضًا لرد الدين أو لنشل الناس بما ابتلاهم الله به..!!

لكن هذا لم يمنع النخاس من زيارة المنطقة بحثًا عن عارضين طالما الطلب متوافر فالمعروض أيضًا متوافر، حتى إن زيارته بدأت تأخذ شكلًا منتظمًا، ورغم العمل المشين إلا أنه يعرف كيف يعرض تجارته على الناس، يعرف من أين يبدأ؟ ومتى ينتهي الكلام؟ تجارة مربحة بعد أن وجد لها الوقود اللازم.

لكن أيضًا شيء كهذا لا يجب أن يظهر للعلن، بل إنه تمامًا كالدعارة والقرض بالربا، فكانت رحلاته دائمًا ما يحيطها بالسرية حتى إذا شعر بتعثر الأمر يقابل من يود عرض بضاعته بالخارج، باختصار كان لا يعترض طريقه شيء.

فهو أيضًا صورة من صور الأحف التي تعرف كيف تحيل حياة الناس إلى جحيم فقط حين يملك أرواحهم...

منذ اللحظة الأولى وسعاد أدركت ما يرمي إليه، قابلته ذات مرة بعد أن أكدت أنها لا تمثل خطرًا، بل إنها من الممكن أن تقدم عونًا.

ورغم هذا، كانت سعاد تعرف خطورة موقفها إن سقطت تحت ناب الأحف القاطع، فهذا الأخير سيجن إذا علم بما أحرزته سعاد مع بائع الأطفال، فهذا أيضًا كان طريقها للخلاص والانقلاب على الأحف، بعد أن كانت معاونته والطريق السالك لكثير من الناس.. لكن من أين أتى هذا الأحف؟

البداية كعادة النازحين إلى الشمال حين استقر بهم مد الهجرة بأحد القرى الساحلية اشتغل أبوه كعامل يقوى أسقف الأكواخ القشية بزعف النخيل، عمل مضنٍ، لكن هذا أفضل من الموت جوعًا على الطرقات، وفي ظل عمل موسمي يرتبط بالأعمال السياحية التي عادة ما تنتهي سريعًا، فكان من الواجب استغلال هذه الأعمال بشكل أفضل، فشارك عيضا أباه في أعمال التسقيف،ولصغر سنه كان يكتفي بلملمة ما هو غير صالح للأسقف، حيث إن الزعف غير المستقيمة أو غير الصالحة تعرف باسم (الأحف) فالتصق الاسم بالصبي الصغير، وكما اعتدنا من أهل الصعيد، فقد أصبح هذا اللقب فخر الصغير، لكن من استنطق هذا الاسم عليه قد حالفه الصواب؛ فعيضا كان من دون الصالحين أو المستقيمة أعمالهم، لكن هذه الأعمال لم تحقق آمال أي شخص؛ لذا استقر الأخوة بعد وفاة أبيهم

على الهجرة إلى الدول العربية المجاورة، وكانت أقربهم ليبيا، وعن طريق البحر تارة وعن طريق الزحف برًا ليلاً تارة نجح الأحف وحيدًا في اختراق البلاد، أما أخوته فقد تم ترحيلهم بعد القبض عليهم.

بعدها كان من السهل جدًا أن ينغمس الأحف في أعمال عدة حتى في الأيام التي ضاقت عليه ما كان يختزل من الحيل لكسب قوت يومه حتى ولو كلفه هذا تلبية مطالب شيوخ هوى المراهقين..! وحتى سرقة رب عمله إذا شعر منه غدرًا، أو أنه لوح له بالطرد.

فترة طويلة عاد بعدها إلى مصر حاملًا من المال الكثير، عرف بعدها أن هناك من أخوته من يكاد يقتله الجوع، وآخر مشرد أو على وشك لكنه تنكر لهم جميعًا، ولم يفلح أحد في معرفة أين تستقر أقدامه، فقد هبط الأحف على أحد أبشع المناطق العشوائية كضيف جديد، وأظهر من القوة والدهاء ما جعل الآخرين يحسبون له حسابًا رغم أن لا سند له، فحسب الإرث الثقافي المتوارث لدى كثيرين أي بلد أنت غريب على أهلها افعل ما شئت، وفعلًا أبقى الفتى الصاعد على تفرده بأن أقرض أكثر رجال المنطقة مالًا دون رد، فزاد من رصيد صداقته ناحيته، وأثقل ميزان شهرته بين أرجاء المكان الخانق، لكن رغم ذلك فطن الأحف إلى أنه من الواجب أن يتواجد من يروج لأعماله، ويزيد من ثبوت أقدامه بالمكان، حتى تبقى كجذور شجرة عتيقة، فكان هجّان أبو طرف أحد رجاله.

فهجّان هذا كان يكسب رزقه بشكل غريب يحمل من الخسة أكثر من خيانة الوطن؛ فقد كان يسافر عبر الطرق السريعة يتحين

فرصة وقوع حوادث سير فكان ينقض على السيارة المصدومة أو المقلوبة كضبع جائع ينهب ما في داخلها، حتى إنه مرة قتل راكبيها لسرقة متعلقاتهم...!!

لم يردعه شيء، لم ترهبه أعين الموتى الشاخصة، ولا أنفاسهم اللاهثة، ولا أنين أوجاعهم، بل كان كحيوان جائر يسيل من بين أسنانه زبد الجوع وعدم الرحمة.

لكن هذا لم يستمر كثيرًا، فقد عُرف بجريمة السرقة، جريمة بشعة عقابها بسيط خصوصًا بعد خروجه إلى النور التقطه الأحف وزحف نحوه هجان أبوطرف كصغار التماسيح التي تعرف الماء دون إرشاد أوتوجيه...!!

فقد تعرف أبو طرف على الأحف بسرعة وترجم في أي خانة يكون، وحين سأله الأحف عن سبب تسميته أبو طرف أجاب:

- بحكم العادة.. كان المستجد في السجن يجب إذلاله وكسر عينه فكانت هذه وظيفتي، والتي بها أحمي نفسي أيضًا من بطش الأوغاد...!!!!

ضحك الأحف معلقًا:

- بعد أن تم فعل هذا بك؟؟؟!!!!

ضحكا الاثنان كثيرًا...

كان عملهما في قرض قروض الأحف بمقابل بسيط، في البداية كانت العملية في البداية سرية طبعًا ورائجة أيضًا طالما هناك من يريد، وطالما هناك من يساعد على خلق هذا الجو الفاسد في بيئة فاسدة.

لكن ليس هذا كل شيء، بل إن من الواجب دعم هذا الموقف بالمزيد من النازحين وخاصة النساء، فقد حلت سعاد أبو سلطان من صعيد مصر كأبناء بلدها الآخرين، كان حال زوجها ليس بالجيد؛ فقد سقطت تجارته، وهرب مع زوجته إلى القاهرة أملًا في استنهاضها، بعدها لم يسأل زوجته عن سر مالها، ومن أين أتت به، لكن هذا يقف على إذا ما امتنعت عن الإتيان بالمزيد وقتها سألها عن المصدر، فأخبرته، فبارك فيها ووجهها إلى المزيد؛ لذا بعد أن اجتمع ثلاثتهم على فعل يفعلوه، وهدف يسعون نحوه، والظهور على الناس بصفة الأسياد بعد أن كانوا يتسولون على قارعة الطريق، والعمل كسوس ينخر في بدن هذا المجتمع الهزيل.

بعد هذا اشتد عمل الأحف فقد أقرض الكثيرين حتى أن المسجد الوحيد بالمنطقة كان من أموال الأحف!! هذا كنوع من التقرب إلى الله حسب قوله في أحد المرات...

لكن ليس في كل مرة يسترد الأحف دينه بالزيادة، بل إن هناك من المقابل ما يكون أجدى من المال....!

لا تزال الأنثى تلعب دورها الأبدي في تمرير الكلام ومحاسنته أو مخاشنته، وبذلك إما تصنع حربًا أوتخلق ودًا!!! وبالتالي يبقى دور سعاد أبو سلطان قائمًا مادام الهدف في حيز الإصابة.

وعلى ما يبدو أن هناك من دخل عرين الزعفة الصعيدية، لكن ليس بالصعيدي...

طرق الباب ولم يلبث أن فتح له إسماعيل تطلع إسماعيل للواقف أمامه مندهشًا، فسأله إن كان له بالدخول فما من إسماعيل إلا أن أذن

له، كان طارق ابن صاحب العقار عادة ما يطرق باب إسماعيل إلا نادرًا، والعادة إذا كانت أخته تجالس هالة، أو تستشير برأيها في خطب ما، استقر بهما المقام وجلس إسماعيل وهالة بمواجهة طارق الذي أثمله الشراب، لكن رغم هذا لا يزال قابضًا على مخارج حروفه وضبط كلماته، فقال كمن يكمل حديثًا مبتورًا:

- هذا.. كما أخبرتكما.. فمن الضروري.. من الضروري إخلاء المترل لأعمال الترميم.

قالها كمن ألقى قنبلة يتوقع مفعولها، لكن كانت النتيجة معاكسة، فقد تململت هالة كمن يشاهد فيلم السهرة أوشك على النهاية وإسماعيل لم يتحرك وجه بأي تعبير فقال ببرود:

- عذرًا ياطارق، أنا أفهم أن للعادات السيئة مساويء، هل أنت على مايرام..؟

قطب طارق حاجبيه قبل أن يهم بالقول إلا أن إسماعيل تابع في هدوء:

- أي ترميم.. وأي بناء؟؟؟! إن ما تتحدث عنه هنا لدرب من الجنون، فهذا البناء لا يتحمل ترميمات أوصيانة.. ثم إذا رحلنا نحن ماذا عن الباقين؟ أرجو أن تراجع نفسك.

قال طارق وعينه تتردد بين إسماعيل وهالة:

- أنا قررت فعلًا يا إسماعيل، غير أني اتفقت مع عمال البناء على إجراءات الصيانة.

هنا نظرت هالة إلى طارق مباشرة...

- معذرة يا طارق.. أنا فعلًا أعرف شهامتك معي خصوصًا ضد الأحف، هل لك أن تبلغني من أين أتيت بمالك؟

تبدل وجه طارق وبدأ الكحول يتطاير من رأسه؛ فقد أربكه السؤال، لكنه رد:

- مال هذا ومال الترميم والرحيل عن المترل؟

هنا كشرت هالة عن أنيابها..

- أتظننا سذجًا؟ الأمر بديهي، شاب مفلس ينفق دمه على الكحول والمخدرات.. من أين يأتي بمال لترميم مترل آيل للسقوط أصلاً؟ بل إن سيارة الصرف ترج البناية بشكل يجعلنا نسأل الله السلامة...!!

باختصار أنت اقترضت من الأحف مالًا،أليس كذلك؟

زاغت عينا طارق قبل أن يرد بهدوء غريب:

- نعم هذا صحيح، أنا فعلت، وليس عيبًا أن أقترض المال من الأحف طالما لن أردها مضاعفة !

فهمت هالة ما يقصده بينما ردد إسماعيل مغمغمًا:

- لن تردها مضاعفة؟

فنهض طارق إلى الباب مغادرًا، وقال، والأسود المقيت تحت عينه اللامعة:

- أنا آسف..فعلًا أنا آسف،لكن المهلة قصيرة...

قالها وغادر المكان بهدوء.

كانت الدماء تسيل من بين أصابع قدميها، والوهن والضعف والانهيار ينخرون جسدها العاري النحيل، والشمس المحرقة تكفلت بلفح بشرتها السمراء، وإلهاب ظمئها وإفراز قطرات عرقها التي ملحت شفتيها، خارت قواها على أن ترفع قامتها؛ لذا تدلى جسدها من حيث ثبتت أطرافها...

كانت خادمة هندية في بلاط ميولا التي فرضت عليها عقابًا مريرًا، حين عرفت أنها تطاولت وجلست على العرش المرمري، ومثلت حركات ميولا ووصفتها بالسماجة والسخف.

كانت الأعين مثبتة راجية الرحمة في صمت، حين أرغمت ميولا الجميع على الجمع أمام نصب التعذيب ليبقى أبد الدهر محفورًا في الذاكرة لتعتبر بها الأخريات.

لمدة يومين والفتاة منصوبة لا ماء، ولا طعام، بل إن ميولا أصرت على جلدها حتى سال الدم منها، وحين يحل المساء كانت البرودة تتكفل بتجميد أطرافها، وعند الساعات الأولى من الفجر تتجمع قطرات الندى على حواف الجروح كأنها مادة كاوية تلهب جروحها

كان الأمر أصعب من أن تتحمله نفس بشرية.

شخص واهن لاحول له ولا حيله، أمام آخر نصب نفسه خصمًا وحكمًا، فهل يبقى على البر إلا الفجور؟

هل الرحمة أصبحت من الجماليات الإنسانية؟ أو أن الإحساس بات من شعائر الطقوس الملائكية؟؟

أم أن الأمر – كما ذكر فيلسوف القوة نيتشه:إن الرحمة والغفران ضعف..!!

كان المشهد رهيبًا، لا يُصدق، الخادمات الحافيات يجلسن على الأرض التي كساها الحصى والزلط في بهو القصر الخارجي وبين مدقات الحدائق والخمائل الخضراء كان الجحيم بأم عينه قائمًا إلا أن شارلي جاء على عجل ليمنع وقوع كارثة إنسانية، وليرفع ويلات الجحيم المستعرة نيرانه فوق رأس الفتاة، كان هذا بعد شجار وعراك وصل حتى الضرب والتعنيف باليد...

في البهو العثماني والمبخرة النحاسية تطلق شعب أبخرتها الهندية والعربية، كان وجه ميولا متغبطًا بحمرة الغضب والغيظ حين بدأ شارلي كلامه المحموم:

- أنت فعلاً مجنونة، ما من أحد أقدم على فعل هذا إلا المجانين وأصحاب العقول المضطربة.

لم ترد، بل نظراتها تتبعه، وهو يقول:

- فعلاً أنت أوشكت على سلب هذه الفتاة حياتها، وما لها إلاحياتها.

صاحت ميولا:

- صحيح فتلفقدها إن فقدت طوعها نحو سيدها.

هز شارلي ساخرًا..

- غريب أمرك بحق من أين يأتي عقلك بهذه الأمور، لو أن زمنك ومكانك في وقت العبودية المطلقة ما كنت أقدمت على فعل هذا،

كل الناس سواء صحيح أن هناك درجات ومراتب، لكن دون أن يعلن أحد نفسه حاكمًا على الآخر، بل بالبساطة طردها واستعاضتها بغيرها، فهناك الكثيرات، إلا أنك ممن يريد أن يذل الآخرين ويغمر غروره بمشاهد معاناة الآخرين، أرى أنك مصابة بهوس تصنيف البشر، وإدراج مراتبهم حسب صنوف معينه.

ردت ميولا ببرود:

- لا، ليس صحيحًا، أنا لست عنصرية لكن أيضًا لست من أنصار المساواة.

رد شارلي:

- أنا لا أعرف من أين يبدأ الكلام في ذهنك؟ أليس هذا كلام نيتشه؟

ردت ميولا:

- نعم هذه مقولته وأجدها صحيحة؛ إذ إن الناس خلقوا طبقتين متضادتين: أحدها تنغمس وتغوص في الأخرى لخدمتها والسهر على راحتها، وأيضًا لتقي نفسها شر العوز والفقر، ولتجد الحماية، هذه ليست عنصرية، بل تقرير للواقع، وأيضًا تأكيد على عدم المساواة.

قال شارلي، وهو يتكيء على مرفق مقعده:

- نيتشه هذا الفلوليجي المجنون، ومن اتبعوا خطاه ضلوا و أضلوا العالم من بعدهم بحجة أنهم يبحثون عن الحقيقة أو تفسير الواقع، والنتيجة أن الحروب وتقهقر القيم وتشوّه المباديء أضحى نتيجة

منطقية لفكر مشوّش أو لأرباب عقل مضطرب، وكل هذا بسبب العزوف عن الدين، قامت ميولا وإلى مرآها العملاقة المذهبة بالبهو العثمانى تتفرس ملامحها، وقالت:

- أتعرف يا سيد شارلي أكثر الأشياء التي تشوّه صورتك عندي أنك ممن يؤمن بالأديان وأفكارها الكاذبة!!!

رفع شارلي ذراعه إلى أعلى، وقال معبرًا بشكل مسرحي:

- بل أنا من أرى فيكِ شخص الملحد، ونفس المتكبر، وعقل المدبر للشرور، وهذه أشياء نهى عنها الدين أوالأخلاق السويّة، وأيضًا ما من شيء أكثر قدرة على رفع روح الإنسان إلا الدين، بل إن الدين هو من أقر رفعة الإنسان، وحدّد مرتبته على أنه الأعلى بين الخلائق.

نظرت له ميولا متهكمة:

- بل هذا فكر نيتشه، الإنسان الأسمى.

صاح شارلي:

- لعنة الله عليه وعلى أنصاره.

أشاحت ميولا بيدها

- حسنًا هذا الكلام لا يجدي نفعًا.

قالتها، ونهض شارلي الذي جاورها أمام مرآها...

- والآن عليّ الرحيل، فغدًا على العودة إلى البلاد.

أومأت برأسها:

- حسنًا وأنا كذلك، فغدًا تبدأ دورة أعمالي، هل نقضي ليلتنا سويًا؟

هز شارلي موافقًا، لكن عينه لم تخطئ ما رأته، فالبثرة التي على طرف جبينها أضحت أكثر وضوحًا.

***

كانت الحركة في نادي العاصمة هادئة، مساءٌ عادي يمر على رواده لكن مناقشته كانت حامية، فبين أبناء رجال الأعمال والنواب وأبناء الضباط الثوريين كان الحديث دائرًا بشكل فية ندية تطويها المظاهر الأرستقراطية، إلى حين حل رؤوف داغر كضيف على المكان.

كانت هذه الليلة تجمع من تم اختيارهم بعناية حتى يتم تقليدهم مناصبهم التي اختيروا من أجلها بشكل سليم يخدم أهداف من أوكلوهم مناصبهم هذه..طبعًا.

الغريب أنه كان من بينهم أبناء بعض الضباط الأحرار سابقًا، وتعيينهم بشكل بما يتماشى والفكر الرأسمالي.

ورثة ثوار الأمس باتوا اليوم على موائد خصومهم يهنئون بطعامهم ويتلذذون بشرابهم ويرفلون في نعيم الرأسمالية المصرية.

بعد فترة من التكهنات بمن يتنصب وزيرًا كانت التجمعات في نادي جرند تامري تأكيدًا على من يتولى المنصب،هنا كان الكلام لرؤوف مداعبًا أحدهم:

- أرى أن ملامح الفرحة والنصر بتنصيبك وزيرًا تكاد توقف قلبك.

قال الرجل، وغبطة الفرح تشرح قلبه:

- هذا ما كنت أتمناه منذ زمن، ليت والدي كان حاضرًا.

قال رؤوف متهكما:

- لا أعتقد أن هذا قد يعجبه، فتغير الجلد وارتداء رداء غير الرداء ليس من عقائده.

أشاح الرجل بيده...

- الظروف تتغير، والدنيا تتحرك، الآن في أكثر من فلك، من لا يتغير ويدور معها سوف يسحق بين رحاها.

ضحك رؤوف ولمعت عيناه...

- حسنا ها قد وفيت بوعدي لك، سوف يحل رد الجميل قريبًا.

ضرب الرجل على صدره وقال بحماس:

- وأنا لها لن أخذلك....

***

في دول المؤسسات أو دول المركز فإن المؤسسات تفرض سيطرتها على المجتمع من قبل قانون حازم تفرض أحكامه على الناس كافة، إلا أن في دول الأطراف أو الدول المهمشة أوالفقيرة التي تعتلي سياستها مصالح الفرد الواحد عكس الأولى التي تنظمها هيئات وإدارات، فيصبح حماية الفرد واجبة أكثر من حماية المصالح العامة ما دام الأول هو النواة الحقيقة لقيام الدولة.

ملف رؤوف داغر لا يكتفي بكونه رجلًا ذا نفوذ مالي قوي أو على ارتباط بالقوى السياسية في البلاد فحسب، بل علاقته تمتد من خلال أقرب الناس إلى قلب الحكم، فهوعلى علاقة مخابراتية تثير الشك والرهبة؛ لذا من البديهي إيواءه بشكل يرضي أصحاب الكلمة العليا في الخارج، وأشكال إرضائه كثيرة تبدأ باللهو والعبث بما يحلو له، ويكسب من الغنائم ما يشاء حتى أن إحدى الصحف تحدثت عن ماضيه الغريب، وأشارت إلى كونه فتى أمريكا المدلل في التو واللحظة كانت هذه الجريدة بين ملفات الذاكرة!! وهذا نائب تعرض ذات مرة بالقول حول سيرته فتم إقصاءه من انتخابات المجلس في الدورة اللاحقة.

كان الأمر أشبه بعواء ذئب ضارٍ، يقهر منافسيه ببساطة، ويغير الوجوه والأشكال على هواه، لهذا كانت فكرة تقلّد مناصب حكومية لا تكفيه؛ لأنها ببساطة مسرحية هزلية سخيفة يعرف أدوارها جيدًا...

هنا تبقى البلاد مرتعًا له، يسرح ويمرح كطفل في حديقة منزل أبيه، يقطف من هنا وردة ويغرس هناك فسلة! وخروجه من بيئته الغنية الخصبة التي تغنيه عن ما عداها ليس بالأمر الهين، لكن حين تخمّرت برأسه أن العودة لسوق السلاح، وإعادة ماله قد تكون من الخيارات المتاحة حاول أن يجرب من خلف القضبان التي تفرضها علاقته بالمراكز المخابراتية لكن الفشل كان ضيف مائدة صفقته لأمر لا يرى فيه عذرًا حقيقيًا كما ادعى الفتى الإنجليزي، لكن لسبب ما لا يعرفه أصر على أن يُبقي يقين أن الفرصة آتية لا محالة، ربما هناك فرصة أخرى...

كان الأمر بالنسبة لرؤوف غريبًا غير مفهوم؛ فهو من جانبه لم يعارض، وأيضًا لم يكن يخفي توتره بسبب عدم معرفته لزائره الجديد.

رجل في أواسط العمر رفيع، تبدوعلي ملامحه أنه ليس من أبناء البلد يتحدث برصانة ولباقة تجذبك لسماع حديثه...

كان هذا رسول جاك دودن اشكنازكي، عرف رؤوف بسرعة ودون مداخل طويلة للحديث عن من يكون وماذا يريد، فرد رؤوف وملامح عدم استيعابه للأمر لاتزال تغلف وجهه:

- حسنًا.. لكن أليس سيد جاك من شركاء اللورد إسحاق؟

هز الرجل رأسه بعلامة لم يفهمها رؤوف...

- مثل هذه التفاصيل ليست من اختصاصي، فأنا فقط هنا لأخبر سيادتكم أننا في الجانب الآخر على موافقة للمشاركة.

أومأ رؤوف برأسه:

- حسنًا لكن أعتقد أن الحديث هنا ليس بالشكل اللائق، أرجو أن تدعو السيد اشكنازكي إلى منزلي.

ابتسم الرجل ابتسامة عريضة..

- وهو كذلك.

***

رغم معرفتها بقوة بطشه.. بيد أن حلم أن تستأثر لها بشيء لطالما راودها كثيرًا كانت تعرف أن نشاط الأحف تردد بين تسهيل الدعارة

والربا لكن فكرة أن يتاجر بالبشر أنفسهم لم تكن من بين مخططاته لكن هذا أيضًا ليس معناه أن الأحف يتعفف أويستميح الله في شيء كهذا.

فيبدو أن سعاد فتحت طاقة القدر.. فبعد أن أوعزت ببيع البنات القصر أثرى مردود نقودهم على عائلاتهم بمال غير وجه حياتهم إلى أبد الآبدين.

لم يهتم الأحف كثيرًا لهذا التغير الذي طرأ على الناس بالمنطقة، فغرض البيع كان رد ما على الناس من دين، لكن سعاد فطنت إلى أنه من الممكن أن يكون هذا مدخلًا لها لتنفيذ ما تريد فهي لم تخبر بما يدور بذهنها لأبي طرف وحتى لزوجها.

كانت لقاءاتهم سريعة وسعاد تعرف أن سحر المرأة على الرجل قوي خصوصًا أنه لمح ذات مرة لجمال ثديها معلقًا:

- غالبًا ما تكون طلبات شيوخ العرب تبدأ بشعر مفرود وبثدي لطيف كثديك!

وفي إشارة أخرى إلى غنى الرجل وحلاوة المرأة..

- الرجل بمثقال جيبه والمرأة بحلمة ثديها!

كان يشير إلى أنه قادر على افتراشها تحته كالبساط طالما يملك ما يرضيها وطالما هي ترتضيه كعشيق، لكن ما طلب هذ: مباشرة منها قط.

كان المكان ليس مرتبًا ولا تضرب جنابته الفوضى أيضًا، كان هذا هو الاستوديو.. استوديو العرض كما أحب النخّاس أن يسميه، عبارة عن شقة بغرفة واحدة لعرض فتياته على من يود الشراء.

تفقّدت سعاد المكان بسرعة وخلف بار صغير عاينت بعض أنواع الخمور كانت سمعت بها ذات مرة في إحدى سهرات الأحف.

- أعتقد أن هذا يفي بالغرض...

كأسان من الروم كانا في متناولهما وطبق من المخللات على الطولة المواجهة لأريكة العرض...

صالة فسيحة تكاد تخلو من الأثاث لفسحة العرض، بملامحه التي لا تنبيء عن عُمر لا يُجاوز الأربعين بقحافة في مؤخرة رأسه، وتصحُّر جانبيها إلا أن عينه يبرز منهما سذاجة لا تطل إلا من عين مراهق بسبب اتساعهما، هذا ما أعطى للملامحه إيحاء أنه أصغر مما هو عليه، خصوصًا أن تجاعيد الزمن لم تترك أثرها على وجهه.

سعاد بنحافة جسدها وتبرجها المميز من أحمر شفاة فظ وكحل عينيها الواسعتين الذي أبرز لونهما الكستنائي كانت محل إثارة لحميد شعراوي الذي أخذ يتغزل فيها.

- إن أكثر ما أحبذه في النساء البالغات قدرتهن على إثارة شبق الرجال حتى اللوعة بهن.

فردت سعاد قبل أن ترشف من كأسها دون أن تدير عينها عنه:

- لكن هذا أيضًا يفقدهن الشعور بالعذرية مما يجعل الكثيرين يأنفون عنهن.

مد يده وداعبها من خلف أذنها برفق.

- هذا في حالة الشيوخ والعاجزين يتلذذون بآهات الفتيات الصغيرات ولوعتهن البكر، أما أنا فأرى أن الناضجات أولى بالاهتمام.

كانت هذه الليلة بمثابة توقيع عقد الاتفاق، فما أن ألقت بظهرها وأحرف كلماته الهامسة الخارجة من شفته تدغدغ حواس سعاد حتى أن عينها لمعت بدمع الشبق حين وطأها حميد ومارس معها ألوانًا من الأوضاع،ح تى أنها كانت تطلب منه الاستمرار،وبشدة..!

بعدها ظهر النعيم على الكثير من أهل المنطقة.

حتى إن أكثرهم غادرها بلا رجعة، والغريب أن بعضهم رأى أن المغادرة قد لا تكسبه إرضاء غروره، فحين يتباهى بماله أمام الجوعى والمشردين يكون لهذا كبير الأثر على نفسه المكسورة وروحه الخانعة.

ورغم ما حظيت به سعاد من شهرة بين الناس على كونها مخرج همومهم ومفرج أحزانهم إلا أنها فطنت إلى أنه من غير المناسب الآن الخروج على الأحف؛ لأنه حتى الآن الأقوى والأشد بأسًا، وقادر على أن يبكيها على أحلامها وأسعد أيامها وحياتها.

***

كان يومًا طويلًا بدأ بشمس مُحرقة لهّابة مع بداية الصباح حتى انتصاف الظهر كانت كومة من البشر تتسارع وتلتف حول شخص ما...

عرفت سعاد أنه أحد الإعلاميين أصحاب برامج الكلام الفارغ والحديث المطلق، قد حضر ليتعرف على أوضاع الناس هنا في هذا المكان الدفين.

والأحف يتابع الوضع من مكتبه خلف العصارة.

كانت حركات المصورين في التقاط العشش والبيوت التي تسقفها أفرع الأشجار، وتحيطها جدران من الصفيح لا تقي من حرارة الصيف ولا تحمي من برودة الشتاء، كان الإعلامي يخاطب المسؤولين من واقع سوء خدمتهم مشيرًا إلى الحياة الحشرية التي يحياها الناس في هذا المكان المقيت.

نحن هنا في منطقة مخر السيل أو (الشخاخات)، حتى الاسم لم توفّق فيه الحكومة، كما لم توفّق في رعاية رعاياها، هنا اشتهر هذا المكان الذي يتوسط قلب القاهرة، ويمتد حتى أحد ضواحيها ببيع الناس لأبنائهم، الجميع يكذبون وينفون، لكن من بينهم من اعترف صراحة بهذا.

قالها وخطوات قدمه تتعثر على الدرجات الوعرة التي تحجّرت عليها مخلّفات الصرف حتى باتت يُعتمد عليها في حمل الناس، كان الطابق العلوي من البيت كمن ضربته قنبلة في غارة جوية...

حديث طويل بدأه رجل مسن...

- مالي أنا أرى أبنائي يكادون أن يسقطوا من الجوع، وفي يدي مفتاح خلاصهم؟

قال الإعلامي:

- هل حصلت على مال لقاء تزويج ابنتك؟

أشاح الرجل بيده في حدة، والسعال يكاد يخنقه

- نعم فعلت!!

حاول الرجل أن يهدّيء من حدته لكن الأخير واصل بعقل مضطرب:

- أنا فعلًا جنيت ما زرعته ولو كرّر عليّ الزمان دورته لما تردّدت في فعلها ثانية !

كان الأمر غريبًا، فشل الدولة في احتواء رعاياها حتى دفعت الناس للتشدق بعورهم من فرط الفقر والظلم، حتى أن ظهر أحدهم أمام الإعلامي فأبدى أن ما نحيا فيه هو قدر محتم من الخالق، وأن ما من أحد يقدر على تقويم إرادته!!!

تعرّف على آخر فأبدى استنكاره من غضب الناس على رزقهم وطبيعة حياقم.

- ما لها هذه الحياة، إنها كالعمر هل يختار أحدهم اسمه أو نسبه أو وقت موته أو مـــحل دفنه؟؟؟

بعد هذا..تم ترجمة هذا الموقف إلى ترجمتين متضادتين: أحدهما للأحف الذي استنتج أن من كانوا من بين المديونين له بالمال أصبحوا الآن في غنى عنه، وأن هناك من يلعب في الخفاء.

أما سعاد رأت أن هناك فرصة أخرى لخلق إله جديد بمواجهة الأحف قادر على ضحر قوته وكسر شوكته، لكن لم تنضج الثمار بعد؛ فالجميع يخشى حتى الآن مواجهة الأحف، ربما للميل الغريب لدى البعض للخضوع طواعية لمن هم خارجون على العادة والتقليد أو أنه سلوك نابع من إعجاب الناس بمن هم مثل الأحف، أو ربما الفقر الذي يظن الجميع أنه قدرهم وطبيعةحياهم.

وهذه أكبر المصائب..وعلى الله العوض في بر مصر....!!!

***

نباح كلاب.. وساقاها ثقيلتان عاجزتان عن الحركة، حلقها جاف، والأرض من تحتها رخوة لا تحملها والبيوت على صفي الشارع تميم حولها كأوجه الأشباح تلوح لها بإشارة بأن لامكان للهروب، الكلاب ونباحها وأنفاسها الهادرة تطوي الأرض تحتها بسرعة خيالية، لا مناص من المواجهة، عقلها لا يسعفها على إيجاد مخرجٍ لموقفها، العرق يتصبب من جبينها، وجسدها البارد يرتجف خوفًا.

هذا منعطف تراها قريبًا، تمد يداها لتخترق الهواء والإمساك بأطراف المكان.

أنفاس الكلاب تشمها، تحسها، بل تلهب عنقها، تصرخ.. تستغيث، لكن لا مجيب، تعاود الصراخ لا تملك غيره لتفعله، يطفح الدم من حلقها الجاف من شدة الصراخ، أو لأن الكلاب غرست أنيابها في عنقها الجميل، ومخالبها في جسدها الهزيل.

تسقط تنهار، والمنعطف يذوب.. ويذوب، وصورته تضحى خيالات بلا ظلال...

واقع هالة لا يبتعد عن أحلامها كثيرا حتى إن سيجموند فرويد أشار في أحد كتاباته أنه يمكن للمرء أن يروض أحلامه، بل ويألف عليها إذا كانت حياته أكثر قساوة في واقعها على أضغاث الأحلام المريرة.

وواقع هالة أشد مرارة من أحلامها، تعيش بين كتمان حقيقتها، وخوفًا من المصير الهالك، وبين أن تتعامل كأنثى كاملة طبعًا لن تحاول أن تجرب المغامرة، وتعلن عن كونها من أصناف الإناث لتهرب من جحيم مطاردة الأحف وشهوته.

يكفي الرزية التي ألمت بها حين أشارت فقط إلى حقيقتها!!

لكن الحقيقة لأي شخص تبقى أحد أكثر عوارته حساسية؛ لذا لا يجرؤ كثيرون على عرض تفاصيل حياتهم بسهولة.

لكن الحقيقة الوحيدة التي تعرفها هالة هي مدى ضعفها ووهن سندها في أخيها الذي لا حول ولا قوة له في دفع خطر يحدق بها، لكن أيضًا ما من فرصة للهرب لتركض بعيدًا فمجالها مقفل، وأفقها

مسوّد، وعينها حبيسة كعين الطريدة لا ترى أقرب معالم الطريق أمامها، كيف ستواجه حالة الطرد التي حلت عليها وعلى أخيها؟؟

المصائب والأرزاء ترف عليها كضيوف جدد كل يوم، أخوها عرض عليها فكرة الهجرة بلا عودة، لكن من أين المال؟

هل يترك الإنسان دينه؟ هل ينفصل عن أمه وأبيه وأخته وأخيه؟ هل يرحل ويسافر، يهاجر إلى بلاد بعيدة أرضها طيعة، وأجواؤها تتنفس برحيق الأزهار، وبيوتها بيضاء جميلة كقمم الجبال في بلاد الشمال؟

هل القهر يافتة على رأس كل من هاجروا البلاد؟ هل فرص الحياة بلا إرهاب ولا خوف غير متوافرة؟ أم أن الظلم جامع للاثنين؟ كل هذا ليس بجديد على هالة التي تبلدت ملامح مشاعرها، وأصبحت بلا تقاسيم تفسر، هذا للحزن وهذا للفرح، هذا حين البكاء وهذا وقت المرح، بل إن الصراخ المكبوت بين ضلوعها في التعبير عن نفسها يحرق خلايا مخها ويهزل قواها على التحمل؛ فهي روح رقيقة شفافة بلا أمل لوكان لها من تلجأ إليه؟؟؟؟لوكان لها من يسمع أنات ألمها؟؟؟؟

لو كانت بين كنف من يأويها؟ لكنها أيضًا لا تعرف على أي أساس تعامل الآخرين، فداخلها أنثى رقيقة ومظهرها الخارجي لا ينفي كونها متفجرة بالأنوثة النضجة، لكن ما تخفيه سر شقائها، حتى المرات التي حفت فيها شعيرات ساقها وذراعيها كانت تتخيل أن سعاد التي تجالسها وشقيقة طارق تعرفان بحقيقتها، لكن هذا ليس بالجحيم بل

هذا مدخله، تخيل أنك عارٍ أو شفاف ينفذ الآخرون بأبصارهم إلى داخلك جارحين سريرة نفسك!!!

تـــخيل أنك تشعر أن العيون تلاحقك، بل ترغبك زوجًا أو جليسًا أو أنيسًا، وأنت دون ما يعتقدون!!

لعابها جف، وخصلات شعرها تبللها قطرات العرق، نهضت، فتحت باب غرفتها، كان الليل قد ولى مدبرًا تاركًا وقتًا لإعلاء الأذان، تجرعت ماء مثلجًا، وهامت بنظرها في الأفق البعيد من نافذة الشقة الوحيدة تتذكر تفاصيل حلمها.

رعشة ورجفة اقشعر لها جسدها حين هبت نسمة هواء على الأشياء، راحت النسمة، وظلت قشعريرة بدنها، لا تتخيل أنها بهذا الضعف وأنها بلا غطاء يحميها، كيف لها أن صمدت طوال هذا الوقت أمام الأحف؟

قد لا تكون مقتنعة تمامًا أنها بمأمن من الأحف، لكن هذا أيضًا أفضل من أن تكون جائزته التي بها يحلم.

تفهّم جيدًا أن هذا المسخ المشوه تحت غطاء إنسان لن يتورع عن سلخ لحمها عن عظمها إذا كان الأمر يتوقف على دين، بل هي تحمد الله على أنها ولسبب ما تملك عليه قلبه وتلهب شوقه وتحيل حياته إلى ليل يزرعه سهر ونهار يطوف، يفكّر أثناء ساعاته بين آهات الشبق ونفيخ الضجر، تتخيل نفسها أنها تواجه الأحف وتصارحه عما تخبئه!! تضحك وتضحك، لكن ما لبثت أن تتذكر أمها وحياتها البائسة وتتذكر معاناتها شقاءها...

خرجت من فكرها الذي شرد بها حين تعثر إسماعيل بشيء بالأرض، وهو يسعى إلى الوضوء.

كانا يتضرعان إلى الله برحمته من كل الشرور والخروج من هذا العُسر حتى أن بكاء هالة أصاب في نفس إسماعيل الشفقة والرفقة بها، فاحتواها بين ذراعيه وهدأ من نفسها الملتاعة.

- اصبري، الفرج قريب إن شاء الله...

ردت هالة،والدموع في عينيها:

- ماذا نفعل والأحف يدفع بأمواج أعوانه حتى آخرهم طارق الذي كان يومًا يقف لنا موقف الصديق، إنها النهاية، نحن مشرّدون من الآن...

هز إسماعيل رأسه محاولًا طمأنتها:

- لن يفعل، إذا كان سيسرحنا ماذا عن باقي الجيران؟ عمومًا أنا سأناقشه لاحقًا، اهدأي..

مسحت دموعها، ونهضت لتستقبل ساعات شروق الشمس الأولى، لتستقبل النبأ الرهيب، أور بما فرصة أخرى للنجاة..

***

كانت نظراته تدقق في أركان المكان بسرعة تستخلص النتائج وتحللها بدقة كالحاسوب، هذا هو اشكنازكي الذي وافق على أن يكون أول لقاء له مع رؤوف في بيته الذي اختاره الأخير لاعتقاده أن نادي العاصمة أو جراند تامري لا يليقان بمثل هذا الحدث.

في بهو كبير، وعلى مقاعد أطرها مذهبة، وسجاد فاخر من (اسمجاد) أحد أفضل العلامات التجارية للبساط الإيراني الفاخر، وخدم موزعون بشكل جيد، جلس رؤوف وجاك وتتوسطهم منضدة صغيرة تراصت عليها كئوس الشراب...

هذا بعد مأدبة غذاء وترحيب بالضيف..هنا بدأ جاك حديثه..

- الحقيقة سيد رؤوف أنا أعرف أن العلاقات التي تدير بها أصول أموالك وأعمالك هنا في البلاد جيدة، لكن أحب أن أعرف هل لك نفس السند في الخارج؟

باغت رؤوف بالسؤال، فهل الصراحة وكشف الورق من الحسن فعله أم أن هذا درب من الغفلة؟ لكن ماذا لو راوغه، وجاك هذا كشف كذبه؟ لكن كان لرؤوف رد لم يفد جاك بشيء..

- في الداخل نعم أنا كما تعلم أرتبط بشبكة من الاتصالات والعلاقات الجيدة، أما في الخارج فأرى أن العون قادم من طرفكم...

هز جاك رأسه غير مقتنع ولا راضٍ بالإجابة

- امم...حسنًا !

أمسك جاك بكأس شرابه من شمبانيا (نابليون الجميل) شم رائحتها قبل أن يرشف منها، ويقول:

سوق العقار في الولايات المتحدة ينمو بشكل لم يسبق أن حدث من قبل، الفكرة ببساطة هو أنني دفعت بجزء كبير من التمويل العقاري هناك وأرى أن الفوائد وعوائدها لكبيرة جدًا؛ لذا عرضي أن

تقوم شراكتنا على توفير سيولة مالية بحجم يشمل غالب الطلب على هذا السوق الذي سنجني أرباحه بشكل أكيد وبفارق مهول.

توقف جاك ليرى أثر كلامه على رؤوف،فرد رؤوف بهدوء:

- لكن هذا ليس من اختصاص عملي، وإن هذا لشأن جديد العهد علي، فأنا لا أرى نفسي مستعدًا لهذا.

هز جاك رأسه:

- الحقيقة أننا تعرفنا على مجمل أعمالك.. فكان من بين أعمالك أعمال مقاولات وعقارات، وهذا ما شجعني على أن أخوض معك هذه التجربة ولكن في الخارج.

بدأ الكلام لرؤوف غير متوافق أو مريح، فهذا الرجل يثير القلق، لكن جاك تابع بخبث..

- أضف إلى أن هذا سيجعل أعمال السلاح في منأى عن المخاطرة.

لم يندهش رؤوف كثيرًا..

- حسنًا.. سيد اشكنازكي، يبدو أنك تعرف أكثر مما يلزم، لكن أيضًا هذا لا يعني الخوض في تجربة العقارات الأمريكية....

اقترب خادم المائدة لصب المزيد من الخمر لجاك إلا أن الأخير أشار بيده،فتوقف الخادم،فقال جاك:

- من بين المحاولات الفاشلة هناك واحدة صائبة، لا تخسر، استشر رجالك في الأمر وأخبرني، لكن من فضلك لا تستغرق في التفكير فأنا لن أمكث هنا طويلًا.

بعدها غادر جاك المكان.

عرض غريب، الفرصة تبدو في غير محلها، لكن هذا هو العرض الوحيد المعروض الآن، هل يخاطر في أثر هذا الرجل ويرحل إلى عالم جديد؟؟ أم أن الأفضل أن يتمهل على المشاركة؟؟ لم يكن من السهل الحسم في هذا العرض، فرؤوف يعرف جيدًا أن هذا يخدم مصالح الأخير دون منفعة حقيقة له، لكن لو أنه غامر في هذا الاتجاه لربما حاز على أرباح تفوق أرباح السلاح، وأيضًا بعيدًا عن مخاطرته القاتلة، اتخاذ القرار صعب فيأمر جاك هذا، أو لعلها فرصة جديدة هذه المرة.

***

خطة القيامة...

كان الأمر وصل إلى الذروة، لم يعد هناك من المواجهة بد...

خطوات إسماعيل مترددة بطيئة، لا تقوى على المضيّ قدمًا، الخلفية التي ألقاها طارق لا تحتمل اللبس أو عدم الفهم، وهذا ما زاد المواجهة تعقيدًا، فبأي حال سيفتح إسماعيل الحديث مع طارق حيال الطرد القسري الذي نصبه طارق لإسماعيل وأخته؟

لكن بعض المراوغة قد تفيد.

لكن طارق ليس ممن يتثنى لأحد اللعب معه، والسبب الوحيد هو دين الأحف مربوط بجيد طارق كجلمود صخر مستقر بقاع البحر...

على قهوة صالح الحسن، هذا هو المقهى الوحيدة بالشارع، كان هديم قبل أن يقترض مالكها الحالي مالًا من الأحف لإعادة تجديدها فور موت أبيه الذي امتنع عن القدوم بهذه الخطوة حين رأي فيه اعوجاجًا لا صلاح فيه، وشرًا بيّنًا لا خلاف عليه...

بعين تقرأ السطور من جريدة قديمة وأخرى تتابع حركات المارة كان طارق جالسًا واضعًا ساقًا بساق وبجسده النحيل يغوص في مقعده، فلا تميزه لولا الجريدة التي تهتز أطراف صفحاتها مع نسمات الخريف الذي كر مسرعًا في أعقاب صيف ولى مدبرًا.

اقترب إسماعيل بهدوء من طارق، فلمحه طارق، فألقى بالجريدة على سطح الطاولة المعدنية الصدأة حوافها فجاوره إسماعيل بعد أن حيّا طارق الذي رد التحية بأحسن منها

- وعليكم السلام ياعم إسماعيل...يارب تكون بخير..!

هز إسماعيل رأسه

- حمدا لله..

فدعى طارق صبي المقهى بإحضار قدحي شاي.

رد طارق..

- لعله خير يا عم إسماعيل...أنت أهل خير.

فتحت هذه العبارة طريقًا لإسماعيل لبداية حديثه بعد أن جهد عقله في مدخل للكلام

الحقيقة يا طارق أنا هنا من أجل أن أخبرك عن موقفي من حديثك معنا هل تذكر؟

بعين وقحة..

- نعم ولم أنسَ...

عاد الارتباك إلى إسماعيل..

- موضوع تنكيس البيت وإعادة بنائه قد تلقي بأناس كثر في الشارع وأرى أنه من الأسلم ألا تفعل، أنا أحدثك باسم سكان العمارة ألا تفعل.

أتى الصبي بقدحي الشاي.. هذه تقريبًا أول مرة يدعى فيها إسماعيل كذبًا وأحس بخطئه.. غادر الصبي فضحك طارق متهكمًا...

- سكان العمارة؟ هل ثلاث أسر يسمون سكان عمارة ؟

اعتدل طارق في مقعده لينفخ صدره فتتضخم كتفاه المتهدلتان قبل أن يقول:

حسنًا يا إسماعيل سوف أرفع عنك الحرج، أنت لا تتحدث إلا عن نفسك وأختك، أنا أقدر الموقف جيدًا، فعائلة عفيفي ذات الإثنا عشر نفر سوف تغادر المكان قريبًا، بعد أن أصبحت إحدى بناهم زوجة لأحد أثرياء الخليج، أما عم حسين فهو شيخ مسن أبقى على أن يحيا ماتبقى له من أيام في بلده يستقبل ملاك الموت بهدوء وسط أهله، وهذا ما فعله صباح اليوم، يتبقى فردوس شقيقتي فكما تعلم أن زوجها يقضي أيامه الأخيرة في حبسه وأمرها سهل تدبيره...

أنهى طارق قدحه، بينما برد قدح إسماعيل.

شحب وجه إسماعيل حين سمع طارق يتابع !

- يبقى أنت وأختك، أنا آسف لا أملك حلًا لكما.

أضحى الحديث عن الآثار السلبية للتنكيس غير نافعة الآن، ولو حاول إسماعيل استثارته، فهذه محاولة يجانبها الصواب، فرد إسماعيل بجمود:

- والحل؟ هل سيفضي بنا الأمر أنا وأختي نتسول المأوى؟؟

هز طارق رأسه مندهشًا...

- وكيف لي أن أخدمك يا إسماعيل، صدقني لو كان الأمر بيدي؟؟

قاطعه إسماعيل بحدة...

- أنا أعرف أن الأمر ليس بيدك، بل بيد هذا المسخ الأعوج فليقذف به الله إلى الجحيم، أليس أنت مدين له؟

هز طارق رأسه مؤكدًا، وبدأت أطراف أعصابه يشملها التوتر.

فتابع إسماعيل، وهو ضاغط على حروف كلماته...

- أنت مدين للأحف ولقاء الدين وفائدته اختار الأحف أن تضغط أنت علينا بحجة الهدم وإعادة البناء لنلقى في الشارع كالمشردين ونسقط في النهاية في قبضته كلفافة تبغ ليلعب أو يرمي بها وقتما شاء.

سخر طارق من طريقة إسماعيل...

- أتعرف أنا لم أقدر الغباء إلا الآن! فقد تتقاذف الأقدار بالغبي دون أن يعرف لنفسه جهة، تمامًا كفراشة زاهية الألوان تسحق بين

راحة صبي أرعن، لكن الذكي يموت كمدًا وغيظًا دون أن يحرك ساكنًا رغم قراءته الجيدة للمواقف من حوله إلا أنه لا حيلة له ولا قوة، ليت الإنسان كالهوام يهيم بلا تفكير.

كان هذا الموقف بمشاهده دون حواره يتابعه الأحف وسعاد.

- أعتقد أن هذه هي نهاية الحرب، مبروك مقدمًا عليك نصرك المؤزر يامعلم.

تبسّم الأحف، وكوّر شعر سعاد بين قبضة وجذبها برفق وهمس في أذنها...

- من أي قطع الجحيم أنت؟

ضحكت برقاعة...

- أنا سفينة تمخر في بحر دهائك، لقد أضحت هالة وأخوها بين يديك.

لمعت عين الأحف تحت مصباح مكتبه.

- حسنًا.. متى سأكلل رأس قبطاني بإكليل غارك؟

همست...

- الليلة.. إن شاء قبطان سفينتك يامولانا.

مشفى شارتيه – برلين – ألمانيا

يُعَد علم الطب أحد أكثر العلوم تأثرًا بمتغيرات التقنية، وهذا ما كان ليحدث لولا الابتكارات التي أتت غالبًا في مهد القرن العشرين وما سبقه، مشفى شارتيه البرليني هو أهم مشفى يهتم بالتقنية الفريدة حول العالم في مجالات الطب باختصاصاته المختلفة حتى أن هناك من بين من عملوا به سبعة من حاملي جائزة نوبل بمجال الطب!!

الجو متقلب، مطر خفيف على زجاج السيارات، وهي عادة ما لا تمطر في هذا الوقت من العام.. أضواء السيارات تموج على الطرق المعبدة لتكشف حواف الطريق في هذا الطقس الغائم.

كان المتابع لحالة ميولا أحد الأطباء الذين قضوا وقتًا طويلًا بين جنبات هذا المشفى، وبات مقربًا للمشاهير أصحاب الوجوه التي تود التخفي والبعد عن الأضواء.

هذه هي المرة الرابعة التي تمر بها ميولا على طبيب المشاهير هذا...

لكن هذه المرة تود التأكد من أمر ما؛ فقد اتفقت في قرارة نفسها على أن بها علة لاتعرف سببها، لكن هنا يأتي اليقين بما يقطع الشك...

رجل تبدو عليه الجدية التي عادة ما تميز الألمان، ومع عين عميقة وشارب كث أعطته هذه الملامح عمرًا أكبر حقيقة...

هذا اللقاء بعد الفحص والكشف على ميولا التي جلست شاردة الذهن في معطفها الثقيل من كرستيان لاكروا، تعرف أن هناك خطبًا ما سيؤلمها، لكن عليها التماسك وهذا مارآه الرجل حين تنحنح كمدفع لا تفرغ طلقات خزانته بدأ كلامه وبلغة تحفها الدماثة والهدوء...

- بداية سيدة ميولا أنا أفخر أنني من يباشر متابعتك الدورية منذ زمن، وهذا يملي علي أن ألخص لك فيما وقعت عليه في فحصي هذه المرة...

اقتربت ميولا أكثر محاولة التقاط أحرف الكلمات المتناثرة في الهواء والرجل يتابع...

- الحقيقة أن هذه البثرة الصغيرة مرض جلدي نادر.. نادر جدًا، بحيث لا تصل نسبته إلى واحد لقاء نصف مليار شخص، حتى ظن أحدهم أنه اختفى وتم وضعه في قائمة الأمراض المتخفية!! لكن هذا لا يعني عدم الإصابة به.

هذا الكلام لم يؤثر كثيرًا في ميولا التي ظلت جامدة كساري سفينة، هنا نهض الرجل وعرض من خلال شاشة تخيطية عملاقة ما تعنيه هذه البثرة الصغيرة على طرف جبينها، ظهرت على الشاشة وكأنه لحاء شجر أو جلد سمك أو شيء كهذا.

- هذا لمقطع من البشرة وتم تكبيره مائة ألف مرة...

تنهد الرجل هنا قليلًا قبل أن يقول:

- هنا تحولت معالم الجلد بشكل يعجز أحد على تفسيره، لكن على الأغلب انتهى الأمر على أنه خلل عارض لا يعرف على ما يؤثر وما إذا كان إصابة سرطانية أم خلل بالغدد، هذا لفقر المعلومات الحيوية الجديدة عنه لندرة الإصابة به، لكن أنا أخشى أن أبلغك أن هذا ليس إلا بداية الغيث، فهذه البشرة لن تلبث أن تتحول إلى رقعة كبيرة تشبه لحاء الشجر إلى حد كبير ومع كل إزاحة جديدة يكسبها المرض على أرض جلدك سوف تصابين بنوبة من الخدار تفقدين معها الوعي، هذا حسب ما تم تحصيله من معلومات أخيرة وربما لن يحدث لأنها معلومة غير أكيدة.

ظلت ميولا جامدة واجمة تتطلع إلى الصورة المكبرة حتى أنها لم تعد تفكر أن تتحسس جبهتها لكن بح صوتها حين تكلمت..

- هل له علاج أو على الأقل شيء يوقف نموه؟؟

هز الرجل رأسه نافيا!!

- لا..لا يبدو الأمل في شيء كهذا أكيد، لكن هناك حالة واحدة في العالم بأسره في جواتيمالا.

عرض على الشاشة رجل لم يكن يظهر منه غير وجه وبعض الكتل العقدية متفرقة بجسده غير أن ساقيه وذراعيه بدوا كجذور الأشجار،

نظر الرجل في عين ميولا التي بهت لونها وذرفت دمعها على مصيرها الأسود.

أنا آسف على ما قد يلحق بك..أنا آسف سيدة ميولا.

***

كانت عليا بلفاتح تبدل ثيابها بغرفة نومها عرفت أن رؤوف هنا، فثيابه ملقاة بإهمال على أحد المقاعد، مشطت شعرها أمام مرآتها، لم تكد تلقي بجسدها على فراشها حتى أنهى رؤوف حمامه وخرج متدثرًا بمعطف من الكشمير وحركات أطرافه مهزوزة وعيناه زائغة، فألقى بجسده بجوارها...

قبلته عليا وسألته عن حاله فأجاب بهدوء:

- كل شيء يسير حسب ما دبرنا له، كل التخمينات والإحصاءات تشير إلى جدوى الخوض في مشاركة اشكنازكي.

نظرت عليا بعين الشك لكلامه...بينما تابع..

- ليت هذه المرة تفيد كم أتوق إلى مشاركة كهذه.

فردت عليا بشك:

- لكن يبدو أنك نسيت ما يتم في أثرك من متابعين ألم تتدبر هذه الخطوة؟

هز رؤوف كتفه..

- أنا أعرف ما يتم، كل الأمور مباحة عدا العودة إلى تجارة السلاح، وهذا ما يجعل ملفي في طيّ النسيان، على الأقل الآن.

تقلبت عليا في سريرها وهي تنظر إلى رؤوف مباشرة.

- لكن بالتأكيد هذا الاشنكازكي يعرف بملفك.

- نعم هذا صحيح، وهذا ما رجح أن أجرب شيئًا جديدًا.

نظرت عليا مباشرة له..

- رؤوف أصدقني القول..هل أنت جاد؟

أرخى رؤوف رأسه وشرد ببصره...

- وما معالم عدم الجدية فيما أقول؟

- أقصد هل فعلًا لا تود أن تعود إلى تجارة سلاحك مجددًا وكسب رزقها السخي؟؟؟

هز رؤوف رأسه نافيًا..

- تجارة السلاح كانت مرحلة انتقالية في فترة ما بحياتي، ثم إنها مرتبطة بروابط خاصة جدا لا توجد الآن، ثم إن الفرصة لم تعد سانحة، فكما قلت هناك من يتتبع في أثري كل شاردة وواردة، مثل هذه الأعمال تحتاج من السرية ومن الجهد ما لا أستطيع بذله الآن.

شعرت عليا أن هذه الإجابة ليست بشيء من الصدق وأن هذه الشراكة ما هي إلا مجرد مفتاح إلى العودة لمفرزة رزقه القديم.

لكن سواء هذا أو ذاك هذا لا يمنع من بعض اللهو.

اقتربت منه عليا واحتضنته بينما هو عزف عنها، فكررت المحاولة لكنه أبى !

وحاول أن يبرر هذا بتعبه وإرهاقه طوال يوم كامل وما كاد أن يفعل، حتى فتح باب الحمام.. لتخرج منه سارة التي لم يستر خصرها غير سروالها الداخلي الرقيق ومعطف حريري على كتفها دون ربطه فيظهر نهديها الكبيرين.

نظرات التردد بين سارة ورؤوف الذي أطرق برأسه وأغمض عينيه في محاولة للهرب من وابل النظرات القاتلة، في حين قالت سارة بتلذذ وهكم مقيتين:

- معذرة سيدة عليا انتظرت كثيرًا حتى تنامي، لكن على ما يبدو أن حديثك لزوجك أبقيك حتى ترى ما كان من نصيبك.

قالتها ونظرات عينها ترمي بشرر، وغادرت الغرفة قبل أن تغلق باها بهدوء.

كانت الغرفة مخزنا قديمًا غرفة صغيرة خانقة،والإضاءة فيها ضعيفة آتية من مصباح أصفر صغير بسقف الغرفة،حاجات فردوس شقيقة طارق مبعثرة بالمكان...

رائحة الثمار العفنة تفوح في الأرجاء، هذا المخزن كان يخص فردوس شقيقة طارق التي اشتغلت مدة ببيع ثمار الخضر والفاكهة حتى يقضي زوجها فترة سجنه، هذه الغرفة ملاصقة مباشرة ببناية الأحف؛ أي إن الأحف على مسافة بضعة خطوات من عشق قلبه هالة!!!

فراش في ركن ما بالغرفة، نافذة صغيرة تطل على الشارع المترب، وعدمها أحسن؛لأن الغرفة سفلية تنخفض ببضع درجات عن الأرض.

كانت هالة وإسماعيل يجوبان بنظرهما في أرجاء المكان الذي بات من الآن مأوى وسكنًا لهم، لكن الأمر الجديد أن المؤجر هو الأحف، غصة بحلق هالة التي بكت من هول ما يحدث لها ومن حظها العثر، فترة طفولة معذبة وطرد من العمل، ومسخ شيطاني هلامي الرأس يطاردها بأنفاس مُحرقة، وفي النهاية جحر الذئاب يبقى مأوى لها...

بأربعة حقائب كبيرة، وبعض الأشياء التي ترى هالة أن لها قيمة في حياها اليومية انتقلت هالة وأخوها إلى حيث هذا المكان القذر، هذا بعد أن باعا أثاث بيتهما السابق لأحد تجار الأثاث القديم لقاء مال لا يقي من الجوع إلا لأسبوع واحد...

كانت رائحة الثمار العفن وماء الصرف تشكلان طاردًا لهما من الغرفة المقيتة هذه، لكن إلى أي مكان يذهبان؟؟؟؟

هل يتلذذ الآخرون بمشاهدة أحدهم يتلوى من فرط العذاب وهوله؟؟ أم أن هذا من البديهيات عند كثيرين؟؟؟! هذا عند الأحف محبة، فالمحبة تبدأ من الانتقام وإذلال النفس وإخضاعها لإرادته هو فقط دون مقاومة، كل شيء يسير حسب مارتبت له سعاد أبوسلطان...

كان المخطط بسيطًا أجادت تنفيذه بحنكة.

فقد اقترض طارق مبلغًا من الأحف ليعيد بناء بيتهم القديم وبعدها بالإمكان بيعه، هذا بعد أن ضرب أبوطرف وسعاد أذرع

الإخطبوط حول طارق فخطر ببال سعاد أن يطرد طارق هالة وأخاها، بهذا يكون قد رد ما عليه من دين...

هالة الآن تحاول التأقلم على المكان الذي فيه ترى نهايتها، تحاول أن تتخذ من المكان شيئًا تألف عليه لكن بلا جدوى؛ فالمكان يفوح برائحة كريهة ونفس مريضة تتربص به وترى عيونًا تحدق بها في الأركان والزوايا والشقوق، لا تجد مفرًا تفزع إليه.. حياتها كابوس يسير على أقدام.. تبكي.. لكن بلا دموع، ليت مخز الدمع مفرج الكرب !

وإن بحة الصوت تدل على غصة الألم، لكن أي من هذا لا يحدث مع هالة، بدأ إسماعيل يوضب الغرفة...

وأول ما فعله أن جعل الفراش لها، ووضب الأشياء من حولها.. وابتاع ملاءة وجعلها مكانًا لتبديل الثياب والاستحمام كلما أمكن!

عمل وجهد أخذ من إسماعيل طاقة وصبرًا طويلين... بسرعة حل الليل...

كانت هالة تسأل نفسها إذا كان ما حل بها وأخيها أحسن من أن تبقى في حيازة الأحف، الأمر غريب والحكم فيه صعب.. لكن طرقات الباب جعلت الأفكار تتبخر، وكان إسماعيل باستقبال الوافد...

ظل كبير يسد الباب المنخفض وبدأ بنزول الدرجات المنخفضة بشاربه المنمق ونظرات عينه الماضية كحد مدية قاتل، كان الأحف

يتطلع إلى إسماعيل الذي لم يفهم سبب الزيارة ولم يعرف كيف يكون التصرف فبادر الأحف بالكلام وعيناه مسلطة على هالة كعين كلب صيد...

- ألا دعوتني للدخول؟؟

قالها الأحف وهو بالداخل فعلًا..

هذه هي أول مرة يواجه فيها الأحف إسماعيل وهالة، الموقف غريب على ثلاثتهم، لكن الأحف هنا أتى بمجيء المنتصر صاحب الحكم وصاحب الأمر والنهي، هنا لم يعد لهالة وإسماعيل أي فرصة لمقابلة الأحف بالندية، أو مقارعته بحد السيف، إذن باتت المواجهة واقعًا لايمكن دفعه.

لم يترك الأحف فرصة للكلام لأي من هالة أو إسماعيل؛ فقد جلس مباشرة على أقرب شيء صادفه دون أن يعرف ما هيته إذا كان مقعدًا أوصندوق خضر.

- كيف حالك يا ابن العم؟

قالها الأحف، لا ساخرة، ولا متهكمة، ولا حتى سائلة عن حالة، بل هي بشيء من الاعتراف بلسان الحال (ها أنا ذا أفرض نفسي) فرد إسماعيل محاولًا التماسك وألا يتمادى هذا الموقف.

- بخير..

هز الأحف رأسه بإشارة غير مفهومة، فلحقه إسماعيل يتحدث...

- أنا منتظم يا معلم عيضا، واسأل عني طارق، أدفع الأجر بانتظام ولا أتأخر.

محاولة إسماعيل لمراوغة الأحف أو دفعه عن ما جاء من أجله لم تأتِ بثمارها، إسماعيل وهالة لا يزالان واقفين ينظران للأحف بغرابة ينتظران الأسوأ، فرد الأحف ببساطة لم يرها أحد عليه..

- أجر؟؟ أي أجر؟ أنا لا أحصل أجورًا، ولا أعمل على تحصيل شيء يا إسماعيل، أنا هنا من أجلكما!!

تحت مصباح الضوء الأصفر الخافت كانت ملامح الانكسار والهزيمة التي تطل من عين هالة وأخيها تروق للأحف كثيرًا كم كان يود الأحف أن يعاصر لحظة كهذه، لا شيء غير أن يرى الألم على ملامح هالة، لتعرف قيمة مقاومتها له..

- كم أن الإنسان ظالم لنفسه؟؟

هل هناك أظلم على الإنسان من نفسه؟؟

كم هي الحياة مقيتة وغبية لاتستحق العيش!!

قالها الأحف باستخفاف فلم يرد إسماعيل، بينما تستمر هالة وعينها على الأحف كطريدة تنتظر غشامة مطاردها، فقال الأحف بهدوء:

- والآن هل لي أن أطلب شيئًا يا إسماعيل يابن عمي؟

- طبعًا.. يا معلم أنت صاحب مكان لاضيف.

بحركة غريبة أشعل الأحف سيجارته ببطء وتوهج لهابها ونفث دخانها في سماء الغرفة الفقيرة.

هل تقبلني يا إسماعيل زوجًا لشقيقتك؟؟؟!!!

طلب الأحف هذا كان بمثابة قنبلة مدوية في أعماق هالة التي تحركت شفتاها قائلة:

- لا...لا بالطبع..

لم يعلق الأحف، بل ظلت عيناه الرماديتان بفعل دخان سيجارته مثبتان على إسماعيل الذي رد وهو يزدرد لعابه...

- إن الأمر ليس بيدي...

هز الأحف رأسه نافيًا...

- لا لا أعتقد أني سمعت قولك، ليس الأمر بيدك حسنًا بيد من يا ترى؟ لم أسمع منك جوابًا...

تردد نظر إسماعيل طويلًا بينه وبين هالة...

موقف المواجهة دائما ما تكون صعبة خصوصًا ما يليها من الثواني الأولى فمثلًا في حالة بين تعارف رجل على امرأة تكون أول ثلاث ثوان خطيرة تولد ضغطًا لايطاق على الأعصاب حتى إنه من فرط وطأة الضغط الناتج عن إرباك الأعصاب يحرق الجسم الكثير من السعرات الحرارية وترتفع حرارته نتاج هذا.

لكن كان منفذ هالة هو الانفجار حين تحركت بخطوة واحدة تخطت أخاها لتقف أمام الأحف،وتقول ضاغطة على حروف كلماتها:

- اسمع أيها الأعوج...اسمع أنا لا أهابك، ولا أخشى على نفسي من رجل مثلك، أنا لن أكون من بين حظوتك من النساء اللائي تعاشرهن، ولن أكون لك زوجة ترعى تحت سقف بيتك الخرب.

في أعماقه دهش، لم يجرؤ أحد على مخاطبته بهذا الأسلوب، بل إن آثار دهشته ارتسمت على وجهه الذي غلفه دخان سيجارته، لكن ظلمة محيط الغرفة لم تظهر آثار وجهه، فنهض بقامته الطويلة بحدة، وسرعان ما استحالت ملامح الدهشة إلى غيظ وغضب، حتى إنه أكل عقب سيجارته، ومن ثم بثقها، ونظراته اخترقت وجه إسماعيل الذي تجمدت ملامح وجهه، بينما هالة ظلت كجبل رطب ترمق الأحف بثبات، لم يدم الموقف طويلًا فغادر المكان دون أن ينبس ببنت شفة وتركهما حتى أفاق إسماعيل من صدمته واحتضن هالة مهدئًا من روعها،فخاطبته بهدوء هذه المرة...

- إسماعيل...أعتقد أنه حان وقت هروبنا...

***

" الإسلام التقدمي " قد لايحمل هذا التعبير أي معنى لدى الكثيرين إلا أنه في الحقيقة هو تسلل خفي للأفكار الغربية الشاذة المنافية للفطرة والعادة من باب الدين.

الإسلام التقدمي: هي حركة لاقت رواجًا واسعًا في الغرب الأوروبي بعد توسع رقعة الإسلام إلا أن من بين الدخلاء من هم من الشواذ والمضطربين عقليًا، فاستغل بعضهم فقه الأقلية الذي يتوسع ويتمدد حسب الحاجة لتخفيف أحكام الدين الحنيف، حتى لا يكون شاقًا على متبعيه خصوصًا إذا كانت الغلبة من أهل الكتاب أومن غير المسلمين، فهذا مثلا يدعو إلى تحليل المرأة الوعاء أو الأم البديلة، التي عرفت بعد زمن في الشرق بفكرة تأجير الأرحام!!

وهذا يدعو إلى زواج المثليين، وآخر ينادي إلى أن ما من مانع بدعوة المتبنيين لأبنائهم بأسمائهم، وليس بأسماء آبائهم كما ورد في الذكر الحكيم...

كل هذا تحت غطاء التقدم وعدم الالتزام بالنص وأن باب الاجتهاد أصبح واجبًا في عصر تتغير متطلباته أسرع من حاجات الناس، مثل هذا النشاط يجد بيئة خصبة في عقول تتفتح وأفهام تتشكل على ما يلقى عليها من أفكار.

تلعب الأندية الاجتماعية دورًا بالغ الحساسية في هذا السياق، فهي تملك آلة الإعلام الجبارة ذات التأثير الملموس لكن الأهم أنها تملك الوقود الذي يغذي تلك القنوات.

في نادي جراند تامري الذي يضم كل من لهم في مجال الدعوة شأن خصوصًا من شباب الدعاة أصحاب الأسلوب الجذاب، شباب كانوا في الأصل نشأت ثقافتهم على تربية وتعليم أجنبيين وهو ما سهل وصول فكرهم لقطاع عريض من الناس من جهة، وأيضًا تسخير إمكانياتهم للوصول إلى المراد من جهة أخرى...

وآخر ما تم فعلًا على أرض الواقع أنه بات للمرأة أن تقيد اسم طفلها الوليد باسم الأب في شهادة الميلاد على الرغم من عدم وجود مايثبت نسب الابن للأب، أو ما يفيد بوجود رابط الزوجية!!! وهو ما يرفع عنها حرج وجود شهادة عائلية، ما أبسط هذا التصرف!!!

لكن ببساطة أكبر يأتي هذا التصرف بزوال الرباط الأسري بتقنين حالة الزنا وإحاطتها بإطار من الشرعية المزيفة التي لا تُعطي حقًا ولا

تبني بيتًا.. الخطوة القادمة تأتي بما يعرف (بالتابوو) (taboo) في التعريف اللغوي للكلمة بالإنجليزية هو المحرمات أو المعزول بصفته نجسًا أو ملعونًا، لكن هذه الكلمة درجت اصطلاحًا على العلاقة الجنسية بين المحارم.

كان حفلًا صاخبًا بل وماجنًا، موسيقى التكنو تنبعث من مكبرات الصوت بشكل يصم الآذان، وأناس تغطي وجوههم مساحيق التبرج، فلا تعرف منهم الذكر من الأنثى في أزياء تذكرك بفريق **dead or alive**، كان الحفل على شرف الداعية جورج ماكوري الذي أشهر إسلامه منذ فترة، وبدل اسمه باسم (داعي) دخل في سلك الدعوة بعد أن رأي أنه بالإمكان أن يكون صوتًا للإسلام في الخارج، وهو ما أدى إلى دعوته إلى مصر بعد أن أسهم في توسيع رقعة الإسلام باعتناق العديدين للدين الحنيف.

داعي عبد الله..!! هذا الرجل أصلًا شاذ، وما يدعو إليه أكثر شذوذًا، فكيف سنقنن علاقة أم بابنها...!! هذا زنا محارم، زنا صريح يتنافى مع العقل والفطرة.

قالتها عليا بلفاتح بشكل محموم وهي تترأس اجتماعًا مصغرً، لم يضم إلا نائبتها وسيدتيْن من المجلس القومي للمرأة فردت إحداهن وهي تسدد نظراتها لعليا:

لا داعي للمبالغة، الداعية داعي عبد الله بسبب عقليته المتفتحة وأفقه الواسع استطاع أن يدخل آلاف الناس في رحاب الدين الإسلامي، كيف لا نستغل مثل هذه الطاقة في الدعوة هنا في بلادنا؟

صاحت عليا بحنق..

هنا في بلادنا!!!..عن أي شيء تتحدثين، عن الدعوة للسلام في عاصمة الإسلام؟ ثم إن مثل هذه الأفكار ملائمة في الخارج؛ لأنها تتماشى مع إيقاع عصرهم وطبيعة حياتهم، أما هنا فإنها صدمة بالتأكيد.

ردت السيدة..

إن ما أقصده في الدعوة إلى الإسلام هو أن نواجه موجة التعصب والتشدد التي يتلقاها الناس من القنوات السلفية، بعض الأمل في قبول الأفكار وتعديل الصورة مطلوب خصوصًا أن الإعلام في الخارج يتبنى فكرة أن الإسلام دين إرهاب وتقييد للحريات، لكن هناك محاولات في الخارج من تحسين هذه الصورة؛ لذا داعي عبد الله نجم هناك.

ردت عليا بحدة:

لأنهم يريدون أن يضيفوا إلى الإسلام بجانب أنه يحث على الإرهاب فإنه راعي للشواذ، ولممثلي الجنس أيضًا هذا هراء، إنهم يريدون بنا السوء، إنه عبث أبالسة!!!

نظرت السيدة الأخرى بهدوء لنائبة عليا التي تنحنحت..

أنا لا أرى مشكلة من رعاية مثل هذا الحدث خصوصًا أن جانبًا كبيرًا من الدعم المالي سيصب في جعبتنا...

رمتها عليا بنظرة شزراء فاعتدلت السيدة الأخرى، وقالت بهدوء:

اسمعي يا عليا..إن الأمر في الحقيقة ليس معروضًا للتفاوض بل تقريبًا هو حتمي، أي واجب النفاذ كالحكم القضائي.

تنمرت عليا للرد فتابعت السيدة..

لتعلمي أن الدعوة ليست بالدين فقط، بل أيضًا إعلامية بداية من حملات توعية وحتى الأفلام السينمائية.. وسواء شئت أم أبيت فالأمر سيتم.

ردت عليا ببرود:

حسنًا أنا أرفض.

تدخلت هنا السيدة الأولى

سيدة عليا كم من أعضاء ناديك يتبادلون زوجاقم وأزواجهم.؟ الأمر ذاته..

قاطعتها عليا..

أولا بخصوص هذا الأمر فهو من أعمال من سبقني في إدارة النادي، وأنا إلى الآن أرفضه، أما لقاء الأعضاء وإتيانهم لمثل هذا الفعل فهو خارج أسوار النادي وبالتالي صعب تأكيد أمر كهذا.

عادت السيدة ذات الصوت الهادئ تقول:

عليا.. باختصار هناك سيدات كثيرات قد وقعن في حب أبنائهن بل، وقد أنجبن منهم أبناء ويبحثن عن الوسيلة التي يعرضن موقفهن

على الملأ؛ لذا أقر المجلس أن نبدأ بحملة توعية واسعة بواسطة الإعلام المقروء والمرئي والمسموع في توضيح...

كان الكلام يدوي في رأس عليا كأصداء بعيدة ليثير جروح لم تلتئم بعد بل تزيدها عمقًا ومرارة.. فهي أكثر من يكتوي بحرقة هذا الحب الآثم، هل يمكن أن تساعد على نشره..؟؟

***

كان هذا الاجتماع استثنائيًا، أربعة رجال من أهم قادة الحزب الحاكم يتوسطهم رؤوف الذي بدأ حديثه...

- أيها السادة كما علمتم، إنني قبل فترة قصيرة كنت مع لقاء هام مع جاك دودن اشكنازكي أهم أقطاب الاقتصاد بالخارج، لذا وقع اختياري عليه أو هكذا كان النقاش بيننا على أن يكون شريكي في الخارج في السوق العقاري الأمريكي، الأمر حسب ما أوضح لي رجال الاقتصاد خاصتي فقد رأيت أن الاشتراك معه سوف يدر من الأرباح مالًا وفيرًا، لكن المال المطلوب يتجاوز القدرات العادية.

سكت رؤوف عن الكلام ليرى أثر كلامه على مستمعيه الصامتين جامدي الملامح،فتابع بسرعة

- وبما أن المال المطلوب أكثر من عادي وأيضًا اتقاء لشرور الخسارة والنكبة التي قد تحط علينا فقد رأيت أن نقيم شركة محدودة يكون رأس مالها بما تتشى به الموازنة العامة للبلاد فما رأيكم؟؟؟

اعتدل الرجل النحيف صاحب العوينات الكبيرة والشارب الرفيع..

- لكن كيف ندبر رأس مال من موازنة أصلاً تثقلها الديون ؟؟؟ ثم إن هذا ليس منطقيًا.

تنحنح آخر لم يتجاوز رؤوف في العمر، نحيف وبقحافة في مؤخرة رأسه.

- ولما لا.. أنا أرى أن هذا ممكن مادام أن الموازنة ستسد الحد الأدنى لوزارتي الدفاع والداخلية.

أومأ آخر برأسه موافقًا..

- نعم أعتقد أن هذا يكفي، ووزارت الصحة والتعليم والإسكان أعتقد أن بها ما يكفي، ثم إن الأهم كما أشار السيد جمال هما وزارتا الداخلية والدفاع.

بينما راح آخر يهز رأسه متعجبًا..

- ولمَ كل هذا؟؟؟

أولًا هناك مصادر تبعدنا عن الخوض في تفاصيل توزيع موازنة البلد أو تعديل برنامج الخطة والموازنة، فأقسام القطاع العام التي تم بيعها تكفي لسد حاجة هذا المشروع.

صاح هنا رؤوف..

- أموال القطاع العام!!! إنها لا تكفي لأعمال عام واحد.. هل تريد أن نكون أضحوكة أمام الآخرين؟

هز الرجل كتفه ورد ببساطة..

- ومن قال هذا؟

- أولًا: ما تتحدث عنه بشأن الموازنة فهي لا تكفي لقضاء سهرة من سهرات أحدكم.

- ثانيًا: بم أن المشروع في طور التجربة فيكفي عام واحد لتعرف إذا كان مربحًا أم لا، ونكون بهذا قد وفّرنا مالنا، وإذا حدث وانهار ما تدعونا إليه فتكون الأموال ذاهبة أدراج الرياح لا يبكيها أحد؛ لأنها لا تخصه، هذه هي الفكرة ببساطة.

خامر الجميع شعور بالخوف والضيق من مجرد التفكير في الفشل لكن رؤوف أسرع بالحديث حتى لا يدخل أحدهم بما يشوه أفكاره...

- الحقيقة أن هذا الاقتراح جيد أنا موافق..

هنا طرح صاحب القحافة سؤالًا مغص به أمعاء الحضور..

- حسنًا هذا في حالة الخسارة فلن نبكي ما ليس كان لنا، فماذا عن توزيع الأرباح في حالة المكسب..؟؟

نظروا لبعضهم طويلًا، رد رؤوف بسرعة

- ستوزع الأرباح بيننا بالتساوي.

كانت فكرة جيدة وخبيثة التي اصتنعها رؤوف وهو أن يدفع بمن يريدون المغامرة معه وأيضًا ليؤكد على حسن نواياه من كونه لن يعود

إلى صناعة السلاح التي تزعج مسانديه في البلاد لما فيها من إثارة الحديث من المعارضين حول ضلوع أرباب المصالح العليا في تورط فيها، ومن جهة أخرى يضمن أن لا ينقلب أحد عليه؛ لأن وقتها سيكون الجميع في قارب واحد.

الهروب...

برنتسلاوربرغ – الحي البرليني.. ألمانيا :

يعد هذا الحي في وسط برلين أحد أكثر المعالم الشاهدة على الحقبة التي قضتها ألمانيا في فترة التقسيم بين جانب شرقي وآخر غربي، وبعد انتهاء الحرب الباردة بين المعسكر السوفيتي الشرقي والأمريكي الغربي بانهيار حائط برلين وفد إلى المنطقة الأثرياء أصحاب

الفكر الرأسمالي للنهوض بالجانب المتعثر في الشرق، فكان لهذا الحي القديم نصيب وافر من الإنفاق في سبيل جعله قبلة محبي التميز والنخبة المتفردة.

شوارع ترصفها أحجار القرميد السوداء مصفوفة بشكل دقيق، وأحواض النباتات والزهور على الجوانب.، أبنية بأسقف هرمية حمراء، مقاهي بطاولات تفرشها مفارش بيضاء، أرائك خشبية ناعمة يجلس الناس عليها لساعات طوال للقراءة ولتفريغ شحنة عملهم

اليومي، المكان هادئ بشكل يساعد على استعادة الروح بصفاء الذهن وراحة الجسد.

في شارع على ناصيته مقهى إيطالي كانت بناية من طابق واحد في نهايته تقيم فيه ميولا لفترة قضاء فحوصاتها التي أقرها طبيبها، فهي تمقت البقاء بين ردهات العنابر بحوائطها الباردة التي تشف من خلفها أنين الوجع وآهات الألم، فقرّرت أن تبقى هنا إلى حين أن تنتهي، كان صباحًا مشرقًا وإطلالة من نافذتها التي تطل على ساحة صغيرة تتوسطها فسقية ويضمها حوض من الأزهار المورقة.

كانت أفكارها تتبادر إلى رأسها بسرعة أسرع ألف مرة من معالج حاسوب، فإذا أصابها هذا المرض كيف يبقى حالها وحال أعمالها؟ وإذا تعطّلت كما هي الآن لفترة طويلة ما الخسائر التي ستتكبدها؟ لكن هل الخسائر المادية تضاهي تحولها إلى جذع شجرة؟ رفضت فكرة أن تكون نهايتها بهذه الصورة البائسة، فلن تسقط تحت رحمة مرض حكم عليه أن يستقر في ذاكرة التاريخ فلا يسترجع ذاكرته إلا على حساب جسدها الجميل وجلدها النضر.

أفكار تتبادر إلى رأسها تزيد من تشويش ذهنها شغلت نفسها بأن تابعت نفسها في المرآة فلم تلحظ تقدمًا كبيرًا، لهذه البثرة، وأيضًا علاجها هذا ليس إلا محاولة لعرقلة تقدم مرضها الخبيث.

مرت نصف ساعة بعد أن أفاقت من حالة الخدار التي أصابتها نتيجة الفحص الدوري لدمها، فمع الفحص والتنقيب عن الخلايا الشاذة في دمها لا يخلو الأمر من إغماء ناتج عن عملية تفتيش الدم

كما أطلق عليها فريق البحث المخصص لحالة ميولا التي لم تتدخر مالاً إلا وأنفقته على مرضها الجديد، وهذا لايهم مادامت ثروتها كفيلة بأن تزيح الأرض وما عليها.

كانت ميولا تشعر أنها حبيسة، ليس حبيسة بالمعنى البديهي للكلمة بل إنها حتى إذا ترددت على أي من الأمكنة التي تزورها، فإنها سوف تتخفى لتبقى بعيدة عن أنظار ملاحقيها، فمصورو الفضائح يعرفون بنت بلدهم التي تتناثر أخبارها بالدنيا كلها كالغبار في يوم عاصف، كانت نظراتها شاردة حول الساحة التي تتوسطها فسقية تنثر ماءها على أوراق الزهور حولها.

كانت أعمال ميولا في مجال الأدوية والتقنية الحديثة في دعم الجسد في مواجهة الداء أمرًا زاد من شهرتها ولو انتشر خبر إصابتها بمرض خبيث نادر يفرش سلطانه على جلد ميولا ملكة الدواء في العالم سوف تتأثر أسهم شركاتها بشدة بل وقد تنهار.

لذا كان ميعاد ميولا قد حان...

ثلاثة رجال مجتمعون على طاولة دائرية ببهو القاعة السفلية في انتظار ربة عملهم.. بنظراتها التي توحي بعدم الحياة كانت ملامح ميولا متصلبة حين صافحت مديري شركاتها الثلاث مبذلة قصارى جهدها لإخراج بسمة على شفتها التي جفت وشحب لونها لكن بلا جدوى، لكنها لاتزال قادرة على الكلام.

كانت حالة ميولا معروفة لدى زوارها طبعًا فكرة العبث بنشر خبر كهذا يعتبر نوعًا من الهراء؛ لأن ميولا سترسله بمعرفتها إلى ملاك الموت!

لهذا تحدثوا عن الأمر بشكل جدي ومقتضب؛ لأن الحالة التي عاينوها كانت متردية، فكانت ميولا باهتة خاملة، لا حيوية فيها، لكنها كانت تسمع باهتمام إلى كلامهم حين رد أحدهم على سؤالها...

- لا تقلقي سيدة ميولا فشركاتنا حتى ولو صار خبر مرضك كالتيار الكهربي فلن تتأثر شركات الدواء بهذا؛ لأنها لا تقوم على الاقتصاد بقدر ما تقوم على سد فجوة المرض؛ لذا قد تدفع الحكومات مليارات لتمويل السلاح أو لمشروعات التنمية لكن الدواء يظل العامل الأكثر أهمية والأكثر طلبًا.

بينما تطرق آخر ذو صوت رخيم هادئ...

- أما بمناسبة فكرة المعالجة تعود في البداية إلى معرفة المرض لكن فعلاً هذا المرض كل المعلومات المتوافرة عنه لا تعدو إلا خطوات بسيطة جدا في مشوار بحث مكثف قد يستغرق سنوات حتى نضيف شيئًا جديدًا.

ردت ميولا والكلمات تخرج من شفتها بالكاد..

- معنى هذا.. أنني سأبقى بهذا الشكل، إن هذا الدواء اللعين يخدر جسدي، ولا أقدر على الحراك، أفضّل الموت على البقاء بلا حراك، أليس هناك من علاج حقيقي؟

رد الرجل وعينه مثبتة مباشرة نحو ميولا...

- الحقيقة هناك حل استثنائي !

قالها وتخاطب مع زملائه بلغة العين كمن يستأذنهم بالإفصاح عن شيء حتى أن ميولا عجلته بضيق..

- هات ما عندك..هل من شيء حقيقي؟

تنحنح الرجل،وقال بهدوء:

- قبل فترة وجيزة عمل فريق أبحاث خاص بنا على مشروع قديم عرف باسم الدم الأبيض، أو فلوسول DA تركيب بسيط كان يعد بديلًا لذوي الدم النادر أو عديمي الفئة كما يطلق عليهم وهم من أصحاب الفئات النادرة من الدم، إما توافرها في البنوك شحيح أو أن بدائلها نادرة فعلًا...

أكمل هنا آخر..

- إلى هنا سيدة ميولا يتوقف هذا التركيب المستعاض به عن الدم..خصوصًا لقدرته على البقاء بخواص الدم في نقل الغذاء والأكسجين وباقي الوظائف الحيوية، لكن الجديد الذي تتكلف مؤسسات عملك الطبي به هو أن هذا المركب استطاع باحثونا إضافة خواص جديدة، أهمها تركيب يتعامل مع سرطان الدم والجلد وهو أمر تربحنا منه كثيرًا إثر النتائج التي أحرزتها شركات الدواء ببراءة ابتكارنا.

قالت ميولا هنا فرحة:

- إذن هناك أمل في إبعاد هذا الفطر الذي ينمو على جلدي؟

أجاب الثالث:

- ليس الأمر ببساطة سيدة ميولا، فالأمر لازال حديث العهد والتجربة والتجريب، فهناك حالة مماثلة لحالتك أخضعناها لتركيبنا الجديد، وقد أصابنا الذهول حين أتتنا النتائج، كانت أكثر من مبهرة..لكن

قالها الرجل وصمت هنيهة فضربت ميولا سطح الطاولة بحنق:

- هل تظن نفسك على خشبة مسرح؟ هات ما عندك وكفاك تمثيل، ولكن ماذا؟

قالها الرجل باقتضاب..

- مات.. لقد مات الرجل!!!!!!

لم تتبدل ملامح ميولا التي ظلت جامدة كملامح تمثال، فتابع الرجل بسرعة وارتباك.

- السبب أن التجربة مهما بلغت درجات نجاحها لا تعتمد إلا في حالة التجربة البشرية، والحالة الوحيدة التي كانت تحت مجهرنا بعد أن أتت بثمارها شاخت وماتت بسرعة البرق؛ لذلك لا يمكن اعتماده.

تابع وهو يخاطب زملاءه بلغة العين..

- لذا نتائجنا لا تزال قيد المعمل والاختبار إلا إذا..

قاطعته ميولا بصوت خفيض..

- إلا إذا وضعت أنا محل التجربة أليس كذلك؟

هنا تحدث الأول صاحب الصوت الرخيم بهدوء ليكبح فورة غضبها..

- ليس هذا بقصده.. باختصار سيدة ميولا هناك منذ فترة معمل لنا بشمال أفريقيا لتجارب كبريات شركات الدواء، والفكرة تتلخص بإيجاز أنه طالما مركب الدم الأبيض لا يعتمد بالكامل كبديل للدم الأحمر التقليدي إلا بنسبة تحدد حسب كل حالة، فيجب أن يكون هناك متبرع، هذا المتبرع يجب أن تكون به صفات عدة لتجعله على الدوام بالوفاء بالكميات المطلوبة حتى يتثنى للمركب أن يأتي بنتائجه الجيدة، وهذا ما لم نكن نعلمه حقيقة مع التجربة الأولى، وأولًا وأخيرًا كل هذا أيضًا لا يتعدى طور التجريب...

هزت ميولا رأسها مكملة...

- إما أن تنجح وإما أن تفشل حتى تتحققوا من شيء جديد، طبعا أنت مخطئ لن أضع نفسي محل تجربة الفئران هذه.

رد الرجل صاحب الصوت الخفيض..

- معذرة سيدة ميولا.. أنت لا تملكين خيارًا آخر في الحقيقة، ثم من قال إنك ستكونين محل تجربة أو حالات إغماء أو عقاقير أوأي شيء آخر.

ثم تجلت ملامحه بوضوح

- بل هناك جيش من المتطوعين في خدمتك وهم من سيكونون قيد التجربة.

سألت ميولا مشككة

- أفهم أن لا خطورة عليَّ؟

- أقصى ما في أيدينا أن نعدك به هو إذا ما فشلنا سنبقي على حالة مرضك في أبسط صوره ومحاصرة تفشيه، لكن صدقينا النتائج ستكون مذهلة.

لمعت ملامح ميولا بابتسامة....

- حسنًا.. متى سنبدأ؟؟؟

لم تعد قادرة على المقاومة، كان يجب أن تجد أحدًا لمواساتها في محنتها، كانت الساعة السابعة حين شرد بصرها في أعمال سيلفادور داللي المقلدة المتراصة على الحائط وهي مستلقية على المخدع الوثير مخملي الملمس، ولم تعارض معالجتها في أن تنفس دخان سيجارتها في فضاء الغرفة طالما هذا سيزيد من شعورها بالراحة والأمان وهما شعوران غالبًا ما يفتقدهما المرء طالما سقط تحت ضغوط نفسية فوق الاحتمال.

لم تعد عليا قادرة على أن تتحمل عزوف زوجها عنها لقاء أن يضاجع ابنته وأن فتاة لم تبلغ سن الرشد بعد تلعب بها كيفما تشاء خصوصًا أن انتخابات النادي قادمة خلال أشهر ولم يعد هناك مجال لقيل وقال، فلا يُعقل أنها تصارع زنا المحارم على فراشها، وهي أول من تروج له فهي على طرفي النقيض بين مصلحتها وحفاظها على منصبها وبين اكتوائها بنار حب زوجها لابنته..

ولكن يبدو أنها غلبت مصلحتها والحفاظ على منصبها، وهو ما ترك صدعًا عميقًا بنفسها، فكان تردّد عليا على عيادة معالجتها أمرًا بالغ السرية، حتى إنها اختارت أوقات غير منتظمة لتربك أي من يود

إتباع خطواتها، أمر بديهي أن تختار معالجتها امرأة حتى لا تشعر بحرج في أن تصف مشاعرها كأنثى لامرأة مثلها، خصوصًا أنها أحد أعضاء ناديها.

كانت أولى الجلسات هي أن تحاول الطبيبة هناء الخربتلي إيجاد طريقة في إقلاع عليا عن إدمانها على الكحول وهو أمر أضر بشخصها.

كانت عليا ترتدي تنورتها من الساتان الناعم وسترة (ترنش) شطرنجية كشميرية من (جوجولومير) تتناسب والجو الخريفي، بعد نقاش ودي ومدخل طويل للكلام الموضوعي بدأت هناء بالدخول إلى الموضوع بهدوء..

- قولي لي يا عليا..ما نجاح علاقتك بزوجك؟

ردت عليا بعد أن سحبت من سيجارتها نفسًا أبقاها متأججة

- لم أعاشره كزوجة منذ فترة رغم مشاركته مخدعي!!!

سألت هناء باهتمام:

هل تحدثت معه عن سبب عزوفه عنك؟ هل يرى أنك أقل فتنة من إثارته نحوك؟

تأججت السيجارة من جديد...

- لم نتطرق لنقطة كهذه قبلًا..

- إذًا هل هو فاتر في علاقته معك؟؟ هل السبب هو مرض أو إعاقة ما؟

برقت عين عليا

- أنا لا أعرف بالتحديد ما السبب فهو بصحة جيدة وأنا...

انتظرت هناء أن تسمع باقي الإجابة، فشرد ذهن عليا مجددًا، فحاولت أن تسأل من جديد بعد أن شعرت أن للإجابة جزءًا خفيًا.

- ألم تحاولي أن تعرفي ولو بصراحة ما سبب؟؟ معرفة السبب هنا سيزيل علامات استفهام كثيرة...

لم تجد عليا شيئًا لتقوله فغاصت في شرودها وحلقات دخان سيجارتها تطير بالغرفة فأعادت هناء بسؤال:

- حسنًا.. منذ متى وأنت مدمنة للكحول، وهل هو يعرف بهذا؟

- بالطبع لا يعرف، أما متى فيمكن القول: منذ أشهر.

كانت عليا رغم كونها هنا لتحكي وتفرغ ما بها من شحنة أفكارها المكبوتة إلا أن الحرج تملك منها على أن تقول:

إن فتاة تصغرها بخمسة عشر عامًا تلعب بها كأوراق البوكر!

فخرجت عليا من شرودها على سؤال هناء..

- إذًا هو لا يرى حالتك المتردية الواضحة للعيان، أعتقد أن هناك إهمالًا منه فأنتما ليسا منفصلين بحد قولك، فهو يشاركك الفراش، إذًا كيف لا يرى حالتك؟

كان السؤال بدأ غريبًا لعليا التي لم تعد تعرف كيف ترد، وبمَ تقول؟؟ لكن هذه الأسئلة تزيد من حيرتها؛ لذا قرّرت هناء أن تخبرها بشيء حين قالت هناء بجدية:

- يجب أن تعلمي سيدة عليا شيئًا هامًا، هو أن مفتاح المريض بيده غالبًا، وهو من يعرف سر الأسرار ونحن هنا لأجل أن نتيح مجالًا تحيطه السرية في عرض هذه الأسرار، والسؤال مجددًا: كيف يرى زوجك علاقته بك؟ إن ما أنت فيه هو حال المرأة المهملة أو علاقتها بزوجها تعاني الاضطراب.

اعتدلت عليا وألقت بحمل جسدها على جانبها وهي تنفس دخان سيجارتها وقالت:

- هناء...هل أنت متزوجة؟

- نعم..

- هل لديك ابنة؟

- وابن..

ثم مالت تدوّن ما تمليه عليا التي قالت رغم مسجل الجلسة الذي تدور بكراته ببطء...

- هل يحبها؟

- كلاهما...

فتابعت هناء وهي تكتب بسرعة في دفتر ملاحظتها دون أن تلحظ نظرات عليا المتأهبة.

- آه..فهمت أنه كلف بابنته دونك، هذه الحالة تسمى...

قاطعتها عليا باقتضاب...

- بل يضاجعها على فراشي!!!!

هرمت ملامح هناء كأن مر عليها ألف عام وتهدل كتفاها حينما رفعت رأسها عن دفتر مدونتها،وقالت بخفوت....

- يضاجع ابنته...!!

اعتدلت عليا بحدة كهرة مذعورة، وقالت وعيناها جاحظتان وأطرافها شملها الارتجاف فجأة:

- نعم يضاجع ابنته، إنها مسخ شيطاني رجيم تفزع إلى أبيها كأنه عاشقها، وتتصيد أماكن رغبته بدقة وتنهض بشهوته لتثير جنوني، بل إنها لا تتعمد فعل هذا إلا في حضوري!!!

سحبت هناء منديلاً ورقيًا، وعرضته على عليا التي تمخضت ومسحت دموع عينها التي محت أثر تزينها فنهضت هناء وعين عليا تتبعها إلى حيث أعادت شريط المسجل، وقالت هناء ببطء:

- سيدة عليا هل أنت مصدقة على كلامك هذا؟؟؟ أم أن عدم استقرار مزاجك دفعك إلى قول هذا...؟

ردت عليا وعينها مثبتة صوب عين هناء مباشرة..

- بل إن ما لم أخبرك به أفظع!!!

عادت هناء إلى دفترها

- هذا سبب كاف، لكن كيف له أن يفعل.. بقدر ما سمعت حوادث مثل تلك لكنٍ عجز عقلي عن ترجمة كيف يكون ذلك.. هل أرخيت أعصابك؟

قالتها لعليا التي عادت ملقيه بظهرها ومددت ساقيها أمامها وأشعلت سيجارة أخرى حين قالت هناء...

- قولي لي يا عليا منذ متى وهذه العلاقة الآثمة قائمة؟

ذبلت عين عليا..

- لا أعرف على وجه الدقة...

- وأبوها..كيف غاص في علاقته تلك، إنه أمر غالبًا ما لا يقدم عليه إلا أصحاب العقول المضطربة، هل عانى من خلل في فترة لاحقة على زواجك به فصرفه إلى ابنته؟؟ فأمر كهذا ينبئ بالتأكيد بوجود شيء ما خطأ..

قالت عليا وقد تخدر صوتها نافية

- لا لا أظن.. رؤوف لا يبدي أي تعب فهو معتدل المزاج في غالب أوقاته، يمكنك القول: إنه يتمتع بصحة عقلية جيدة...

مطت هناء شفتها وهي تدون بدفترها

- ألم تسأليه عما يدفعه لهذا؟ وكيف يقوم به؟ أي لذة يجدها المرء في معاشرة ولده؟

ضربت عليا يديها ببعض وهي تقبض بشفتيها الرفيعتين على سيجارتها

- قال لي ذات مرة: إن ثمة شيئًا يدفعه نحو ابنته، إنها من كدح قرائح الأبالسة تعرف كيف تلعب برأس أبيها كما تشاء.

نهضت هناء لتأتي بصودا الليمون وتعرضها على عليا التي تناولتها وشاركت هناء شرابها حين قالت:

- ألم تحاولي أن تقلديها.. أقصد أن تعرفي إلى أي نقطة تذهب معه ابنته حيث تثيره؟

أشاحت عليا بيدها....

- هناء.. أنا امرأة ناضجة ولا أعرف كيف تفكر فتاة في عامها العشرين في أن تُرغب أباها فيها!!!،إنها شيطانه ينقصها ذيل وشوكة!!!

باغتتها هنا بسؤال سريع...

- هل حدث أن رأيتهما في حالة جماع؟

اعتدلت عليا وهي تشرب الصودا...

- جماع؟ لا.. فالشيطانة تقوده إلى حيث تأتي به معاشرًا لها دون أن أرى أنا هذا، لكن أرى الدلالات فمثلاً: آخر مرة وجدتها تفتح باب حمام غرفتنا لتخرج منه عارية وتستميح عذرا ساخرة مني، هل يفسر لك هذا شيئًا؟

قالتها عليا بتسأل فقالت هناء بهدوء وهي تدون ما تقوله عليا..

- إذًا فقد اعترفت أنها عاشرته...

مسكت عليا برأسها..

- ليست المشكلة في اعترافها.. إنها تتلذذ بتلاعبها بي، تارة تظهر هذا، وتارة تترك أثر علاقتها بأبيها وهذا ما سيجعلني أخرج من جلدي، فأنا حبيسة بين رجل لا يشبعني كزوجة وبين فتاة ملعونة تثير جنوني بعزله عني، لكن حاولت مرة أن أخطفه منها فشعرت بالامتهان أن أخطف شيئًا، وهو حق لي، فعدلت عن المحاولة.

نهضت هناء لتطفئ مسجلها وفرت الأوراق في دفترها تسترجع ما كتبته...هنا قالت هناء باهتمام :

- حسنًا.. اسمعيني يا عليا.. إن آخر ما تفوهت به عن كونك لا تودي انتزاع حقك من يد من لا حق له أمر غير منطقي وغير صحيح بالمرة...

وألقت نظرة على أوراقها قبل أن تستطرد وعين عليا تتابعها...

- أنت الآن على طرف الصراع مع فتاة مضطربة وزوج أصابته علة، فبات كلفًا بابنته حتى الجنون هذا أمر يستدعي الصراع من أجل عدوله إلى وضعه الطبيعي، لكن الهروب والاحتجاج الصامت يصبح الأمر أكثر تعقيدًا، هنا عليك إتباع الآتي...

بعدها.. كانت كلمات هناء وعينها تدفعان الأفكار إلى عقل عليا كالسيل العرم.

وغادرت عليا العيادة وفكرة واحدة عازمة على القيام بها...

كان على سعاد أن لا تظهر أي تمرد من جانبها على الأحف، كان يجب أن يسير كل شيء كما كان دون تغير، كانت لقاءات الأحف وسعاد لا تخلو من مضاجعة وهذا التصرف الأكثر دلالة على ولاء سعاد للأحف، لكن كمن يغرق في البحر وبأنفاس متلاحقة وضربات طائشة عابثة تود الإمساك بأي طرف، هذا هو الأحف الذي يرفض أن يعترف بأنه صاحب قلب عاجز على مضارعة نشاط كهذا، لكن سعاد تعي جيدًا أن من يكبلها بذراعيه وينهال على جسدها بقبلات تسبقها حكة شاربه ما هو إلا شخص عاجز قد تفارقه روحه في أي مرة من مرات لقائهما.

هوى بجانبها على ظهره كجدار صدع وعينه شاخصة كمن أصابته نوبة قلبية حادة، بينما سعاد نهضت إلى حيث تزيل أثر علاقته بها.

بعدها كان الحوار الدائر بينها وبين الأحف حول هالة حين قال، وهو يدخن سيجارة مخدرة:

- هالة هذه تثير إعجابي بامتلاكها...رغم كونها بلا سند إلا أخيها، ورغم طردها من مسكنها إلا أن شكيمتها قوية ونفسها أبية، ألا يعجبك هذا؟

رغم كون سعاد المفرغ لشهوة الأحف طوعًا منذ أن حلت على العاصمة الكهل إلا أن كلام الأحف في وصف هالة بكلمات كهذه لا يحرك في داخلها شيئًا، وهو أمر يخالف طباع النساء حين ترى إحداهن في مدح أخرى دون عنها لكن على ما يبدو أن مشاعر سعاد تبلدت عن الشعور، فجلست على طرف الفراش وقميصها الأسود

يتباين مع بياض فخذيها فتصفف شعرها الأسود الطويل لتضحي أكثر إثارة لكن الأحف شارد في تفاصيل الليلة الفائتة، فردت وهي تدلك أطراف شعرها بالزيت:

- ليس الأمر يعجبني بقدر خوفي من استنفار قوة هالة على التمرد فأول لقاء بينك وبينها بهذا الشكل يدل على أنها قد تنفك منا هاربة.

ضحك الأحف...

- تهرب؟ إلى أين..؟ هالة أفقر حيلة من أن تفكر في الهرب، فهي كغالبية الموجودين بالحي، قطعت ما قطعت من مسافات دون ذات لتحط الرحال بلا رجعة، أضيفي إلى هذا فقر يديها، لا أعتقد في هروبها...

أخذت تصفف شعرها حين قالت:

- حسنًا ماذا أنت فاعل الآن فقد أضحت تحت نظرك وتحت أمرك..؟

أطفأ الأحف سيجارته..

- لا أعرف.. فرغم توقي الشديد لها إلا أنني أخشى القرب منها، فأنا أشعر بمتعة النظر إليها ومشاهدتها أكثر من مضاجعتها.

نظرت سعاد له بسخف..

- هل كل هذا العناء لتكتفي بالمشاهدة..أي مطلب هذا..؟

نهض الأحف وارتدى ثيابه...

- أنا لا أعني المشاهدة عن كثب بل أقصد المتعة، وأنا أتفرس في ملامح الشقاء والمعاناة التي تلقاها حين أقرت وأصرت على مقاومة سلطاني، ليتها ما فعلت وأضحت من بين ما أختلي بهن !

بعدها.. كان الأحف وسعاد في المقعد الخلفي بسيارة أحد مديني الأحف تسير في الشارع الممتد في أحد الأحياء الراقية المتاخمة لحيه، فمكان اللقاءات الحميمة يستقر بعيدًا عن العين.. ترجّل الأحف وسعاد من السيارة على ناصية الشارع تركها مودعًا.. وحين رجع الأحف إلى حيث بيته الكائن فوق المعصرة كان أبوطرف بانتظاره...

قلما كان هجّان يزور الأحف في منزله لكن إن حدث هذا يعرف الأحف فورًا أن ثمة خطبًا ما قد وقع وغالبًا يكون بخصوص تحصيل الدين، أو أن أحدهم تمرد في دفع ما عليه من فائدة.

حياه أبوطرف،ثم قال:

- الحاج صالح رفض الدفع متعللًا بأن ما عليه من دين وفائدته قد انقضى..

قالها أبوطرف بهدوء وهو يهذّب شاربه بسبابته وإبهامه، فخلع الأحف ثيابه وأبدلها بجلباب فضفاض حين قال:

- الحاج صالح لا يريد الدفع..حسنًا..هل تعرف ما السبب..؟

لم يفهم أبوطرف قصد الأحف حين أجاب..

- لا أعرف، كل ما ادّعاه هو أنه أشاح لى بيده، وسبّني،وقال: إن ما لك من مال قد قضاه..

قاطعه الأحف صائحًا بحدة:

- هذا بسبب تسيّبك في قمع الخارجين عليّ يحسبون أنفسهم أقوياء وهم أهون من جناح بعوضه.

- بالأمس القريب.. حين ظهر أولهم لم تبالِ أنت، وأتت سعاد بالحل كالعادة، إنها أكثر وفاء منك، والآن تخبرني بفشلك من جديد، فيما مضى ما كان أحد يجرؤ على أن يتخطى حدود بصره لينظر لي، والآن جعلت مني أضحوكة ليهزأ بي الجميع!!

نظر أبوطرف إلى الأحف في سخرية لم يعتدها الأخير منه..

- سعاد أتت بالحل..؟!

هه..كم هو فاتن حين توسع المرأة فرجها للرجل..!!

اعتلت الدهشة وجه الأحف،فتابع أبوطرف بدون مبالاة...

- أي حل تظن..! ولمَ لا تقول إنها هي التي زرعت ما أنت فيه الآن..؟

ولمَ لا تقول أيضًا إنها خلف تمرد الناس ضدك..؟

ولمَ لا تحاول أن تفهم أن من بيننا من يقف ضدنا؟

ضافت عين الأحف..

- ماذا تقصد بأنها زرعت ما أنا فيه..؟

نهض أبوطرف بجسده الضخم يطوف في المكان...

- نعم الأمر بسيط ولا يخفى إلا على أصحاب العقول الغافلة، وأحسب أنك لست منهم، فحين قدم أول الناس سألك أن تعفيه من الدين بسبب غرق ابنه في البحر استظهرت سعاد بان الحل قد طرق برأسها وهو أن تبيع أبناء الأهالي بالزواج لمن يود من شيوخ العرب...

حك الأحف ذقنه

- صحيح..

فتابع أبوطرف..

- فيظهر لك خالص ولائها.. لكن في الحقيقة أنها شجعت الناس على الخروج عليك بعد أن وجودوا مخرجًا آخر لهمومهم ومشاكلهم...

قال الأحف..

- تقصد أن هناك أحد آخر غيري..؟

مط أبوطرف شفته...

- أنا لا أعرف على وجه الدقة من هناك.. لكن أراهن أن سعاد بدأت تلعب لعبة قذرة.

- حلت ملامح التفكير العميق على وجه الأحف...

- إذًا برأيك ماذا علينا أن نفعل، فأنا لن أترك هيبتي محط سخرية من قوم لا يفقهون...

رد أبوطرف...

- حتى الآن لا يمكن أن نبدأ في شيء حتى نعرف مع من تعمل سعاد؟

قال الأحف مشككًا..

- وماذا لوطالعنا سرها بأن لا أحد هناك..؟

- حسنًا..لن نكون من الخاسرين..لكن قبل هذا ستصبح تحركاتنا كمن يصوب بندقيته نحو هدف كامن في الظلام!!

فقال الأحف:

- وإذا كانت من الخائنين؟

رد أبوطرف ببساطة...

- يكون عقابها عقاب الخائنين.

- قالها والأحف شارد في أفكاره، لكن سعاد قد سبقتهما ووضعت تفاصيل النهاية للعبتها!!!

***

الهجرة...

غالبًا ما يصاب المرء بالدهشة حين يطالع الصحف القومية وإعلاناتها المبوبة،فغالبًا ما تنتهي هذه الإعلانات إلى لا شيء،لكن عيونها اندفعت تأكل الأسطر القليلة عن هذا الإعلان المبوب تحت عنوان عروض خاصة للمبدعين،لقاء راتب وإقامة،وهذا العرض الأخير مالفت انتباه هالة،إذن فمن الممكن أن ينفرج ثغر الدنيا عن ابتسامة لهالة الشقية وأخيها الذي أنهكه الإحباط واليأس.

كانت في جولتها الصباحية تتسكع على الطرقات العامة هربًا من جحر الفئران وأيضًا لكي لا تسقط تحت أنظار الأحف ومعاونيه.. عادت إلى غرفتها وكان إسماعيل قد ضاق به ذرعًا أن يكون قاطنًا بهذه الغرفة القذرة،عرضت هالة على إسماعيل الجريدة وما بها من إعلان..قرأه،ثم قال:

- العمل لقاء أجر مجزٍ ومبيت،لكن الإعلان لم يعرض طبيعة العمل،ثم ماذا يقصد بكلمة المبدعين،هل هو عمل فني؟

قاطعته هالة ونبرة الفرح تطلي صوهّا..

- لا يهم نوع العمل أوطبيعته الأهم فعلًا هو أن هناك سكنًا،هذا ما يدفعني لتقديم ورقي،والذهاب إلى هناك.

قال إسماعيل متشككًا..

- تذهبين إلى هناك..؟! تقصدين أن تغادري المنطقة؟

قالت هالة متهكمة..

- طبعًا سأفعل ولو بدون مقابل فقط أن أحظى بفرصة المبيت بعيدًا عن الجحيم القائم هنا ولو دفعت مالًا...

- لكن ماذا عني هل تتركينني؟

قالت هالة وهي تغير ثيابها من خلف الستار.

- لا تتعجل الأمور،فقد لا يكون لى نصيب هناك وقتها سيكون الكلام عن شيء كهذا من غير المقبول..

أطرق إسماعيل برأسه حين خرجت أخته..

- اسمع يا إسماعيل..أنا لست ذاهبة إلى هناك كي أعمل بل لننجوا أنا وأنت من جحيم الأحف الذي يلاحقنا..ثم كما قلت لك كل هذا سابق لأوانه.

أومأ إسماعيل برأسه..

- أنت محقة،كل هذا سابق لأوانه،لكن خوض التجربة يفيد.

قالت هالة فرحة..

- إذن هل غدًا يناسبك للإطلاع على الأمر؟

- وهوكذلك.

***

كان حفل توقيع عقود الشراكة بين جاك دودن اشكنازكي ورؤوف داغر ومناصريه من الحزب الحاكم في بيت رؤوف وحديقته الفسيحة، كان جاك ومكنمارا وحتى شارلي إسحاق الذي حلّ ضيف شرف على الحفل بعد أن دعاه رؤوف ربما ليريه أن العالم لا يتوقف على والده بل إن شركاءه هم من كانوا عونا له.

أو ربما لأن من لا تقدر على أن تصادقه فلا يجب أن يكون عدوًا لك، هذا بالإضافة إلى كون شارلي في مصر لمهمة خاصة حسبما صرح بذلك لاحقًا، كانت علامات الحبور والسعادة طالة بقوة من ملامح اشكنازكي وعلامات الثقة ونشوة الانتصار من ملامح رؤوف داغر...

كانت الأقلام تجر الخيوط الأخيرة بذيول الأوراق الطويلة التي تراصت عليها بنود العقد والتي بموجبها يلتزم الأطراف محل العقد بما فيه،طبعا لم يخفَ على اشكنازكي كون المال الذي قامت عليه الشركة العربية للتنمية العقارية، والتي اختار رؤوف لها هذا الاسم لا يملك رؤوف الكثير فيها بل لا يملك شيئًا أصلًا!

كانت أصول الشركة عبارة عن أراضي الشركات التي تم بيعها في عروض الخصخصة للمنتفعين والمستثمرين، وأراضي هائلة المساحة

كاملة المنافع والمرافق، لكن لم تمسسها يد التعمير، وأموال البنوك التي تم الاقتراض منها بحسب تلك الأصول كرهن، في النهاية تبقى المخاطرة لا شيء؛ لأن ما من باكٍ على أبناء التماسيح حين يفترسها فرس النهر!!

أليس كذلك..؟

لكن رغم هذا كان رؤوف هومن يسلط عليه الضوء ويبقى أبناء الحزب في الظل وبعدها تتحرك الأموال بصيدها الثمين إلى أرصدهم المصرفية كما يشاء الله.

كان الحديث رطبًا بين أطرافه، ومعالم الهدوء تعم أجواء الحوار، هذا حين تحدث صاحب القحافة الأربيعيني...

- لكن معذرة سيد اشكنازكي.. أرى اسمك غريبًا وإن كان يعجبني، أليس هناك دلالة عليه؟

ابتسم جاك وإن كان لم يعجبه هذا الإطراء..

- الحقيقة هذا الاسم قد يبدو غير تقليدي، لكن أنا لا أنكر أن للتربية الدينية سببًا فيه.

قال رؤوف سائلًا بخبث..

- أليس يهوديًا؟

أشاح جاك بيده...

- أنا لم أنكر أن لليهودية أثرًا بالغًا في نفسي ومسار حياتي، لكن ليس هذا معناه أن أرى الله من خلالها!!

سأل صاحب القحافة..

- إذن أنت مسيحي الديانة..؟

رد اشكنازكي، وهو يمرر أصابع يده الطويلة المدببة بين خصلات شعره التي عرجها الزمن فتركها بيضاء..

- لا..بل أنا لست مؤمنًا بدين!!

صارت همهمة اعتبرها جاك نوعًا من إثارة الدهشة والسؤال فتابع، وأعين شارلي ومكنمارا تتابعانه..

- ليس معنى عدم اعتقادي بدين هو عدم إيماني بالله، بل الأمر يتوقف على كيف أنظر إلى الله من خلال نظرة تخصني، فلا أرى دينًا أنسب لي من أن أسلكه نحو رب العباد، فأنا حسب ما أعرف، أن ما من دين إلا وقد اعتاره العبث، إما من أتباعه أو من الداخلين عليه، وإما لانخراطه بشؤون الدولة والسياسة أو لانحطاطه نحو العوام، فيفسد بفساد سلوكهم غير القويم، أو يتشوّه بما يأخذه رجال السياسة منه لتوجيه الوعي العام للناس صوب هدف ما أو كمنفعة لرجال دين أو لفرض مجال يتيح ظهورهم بقوة خصوصًا لدى أصحاب الفكر المنحط بين الغريزة وقضاء الحاجة، فيسهل التأثير عليهم بشرط ألا تكثر في الحديث عن تحريم مصادر نفعهم أو مسالك غرائزهم!! أليس كل هذا يتنافى وطباع الله خالق العباد؟؟؟

بدا هذا الكلام غريبًا لم يستوعبه الحضور ولم يكترثه كثيرًا، لكن رؤوف نجح في رسم ملامح الفهم والاستيعاب فهز رأسه موافقًا جاك على ما قال، لكنه عاد إلى حيث البداية.

- حسنًا..جاك كيف سيكون العمل..؟

هنا تنحنح مكنمارا بعد أن أشار له جاك بالحديث..

- العمل سيتم وفق الجداول التي تعدها لنا البنوك الممولة للقرض العقاري وكل ما علينا هو دفع مالنا في أرصدة البنوك والاستثمار، بما يتيح لنا هامش ربح وفير، أما عن طريقة العمل فالحديث عنها الآن لا أرى منه جدوى.

بعدها كان الحفل قد ولى وجاك ومكنمارا وشارلي في بيت الأخير..

- أحسب أنك أحكمت قبضتك على أعناقهم، وضربت حول أيديهم غلالًا لا تنفك إلا في يوم تحشر رؤوسهم مع الدواب والبهائم!

قالها مكنمارا إلى جاك الذي جلس بواجهة شارلي حين قال:

- لا تتسرع إنها البداية، فداغر هذا ليس بالسهل قنصه أو الإفراط في اعتباره ساذجًا، لكن رغم هذا فهذا النوع يعجبني من الرجال.

هز شارلي رأسه غير راضٍ..

- أنا حقا لا أرى ما يدفعك كي تخاطر مع أرباب المال العرب، وأغلبيتهم كما ترى مال بلا حساب وخلفيات حصاده مريبة.

طقطق جاك إصبعه الوسطى الذي يلفه خاتمًا من ذهب غليظ

- في البداية حين تشاورت أنا وماك حول قوة الفرضية للاشتراك مع رؤوف هذا انتبهت إلى شيئين يجتمعان فيه مع أصحاب العصابات...

زاد اهتمام ماك وشارلي.. حين تابع جاك...

- وهما الجشع وحب المغامرة؛ فالأول كان بداية ارتباط هذا الرجل بي، فلولا عطشه لاستعاضة ماله بالخارج لما فكر في الانغماس مجددًا في ورطة جديدة، أما المغامرة فهو يغامر بمال ليس ماله ويطرب نفسه بأنغام العيش رغدًا في نعيم لم يقدح فيه باله.. فكما ترى أن أحدًا من الاتحاد القائم ذو مال بل هو مقتسم في الغنم فقط، وليس في الغرم أيضًا، وهذا يعطي انطباع وشاكلة العصابة المقنعة...

- ألا يعطي هذا مزيدًا من الخوف؟

قالها شارلي..

- بل هذا يعطي طريقًا لتسلكه، فحين أبلغتني أن الحوار الذي دار بينك وبين رؤوف عن كون الثروات لا تقدر لديهم بل تنثر هباء كغبار في يوم عاصف، هذا تفسيره كون المال ليس بمالهم، ولا ناتجًا عن قرائح أدمغتهم أوجهد سواعدهم أو عرق جبينهم، بل هو ناتج قهر وظلم إداري، وفساد ينشع في كل مكان كعفن الخبز، وبالتالي تصبح الأرقام لاحاجة لها لإحصاء ما ليس لهم من مال؛ لذا أنا أرى فرصة جديدة من خلف صفقة كهذه.

قطب شارلي حاجبه..

- أنت محق، لكن هل سيؤثر هذا على علاقتنا؟

أشاح جاك بيده اليسرى ليظهر وسطى يديه بدون الفقرة الأولى منه..

- مطلقًا علاقتنا أقوى من أي صفقة عارضة، بل إن هذا سيعطي فرصة قوية لنشر دينك، ولمد نفوذك أينما وليت..

قالها والتفت إلى شارلي..

- بالمناسبة..أنت لم تخبرنا يا شارلي ما سبب زيارتك لمصر مجدّدًا؟؟

***

على مدار أزمنة خلت ظلت العبودية أحد أكثر الأمور التي يسود لها وجه الإنسانية، وتعبث بحركة نمو المجتمع الإنساني، وحثّت الأديان على محو صورة العبودية بشكل متدرج لشدة ما اعتاد الإنسان على انتهاجه في هذا السبيل، حتى إن ما من شيء قضى عليها تمامًا بل ظلت بصور أخرى لكن الشيء الحميد الذي يحتسب في هذا الشأن هو أن الإسلام قد أقر حقوقًا على مالك العبد أو الأمة، إذا نكح رب البيت أمته، وأنجب ذكرًا يتم عتقها، أو كفّارة إفطار نهار رمضان بأن يصوم شهرين أو إطعام ستين مسكينًا أو عتق رقبة...

حقوق ومحفّزات أوجبها الدين الحنيف لمنع تفشي ظاهرة كانت من البديهيات، ليأتي فكر مستنير يبلغ الناس الحق.. لكن هذه الثقافة عادت بقوة بعد أن زادت أعداد البشر بقفزات هائلة؛ إذ أن هناك

من يود بيع نفسه طوعًا مقابل مال أو قوت يوم، بل ومقابل مأوى يحظى به كمن حظي بركن في الجنة.! هذا بعد أن عافاه الله من دناسة العبودية وإبعاد فكرة الشرك في نفس العبد بين ربه وبين مالك عليه حق قتله دون سؤال أو إثابته لمن يشاء كمن يمن على الآخرين بهدية ليس له فيها حق.

كانت عيناها رقراقتين زال ما كان من كحل العين فكشف عن بكارة الروح وبراءة النفس، عينان دامعتان ليس رهبة ولا خوفًا، بل توترًا وضيقًا، أحمر شفاه فج، وثوب أبيض غير لائق بدا كالأسمال البالية، وطرحة مرقطة كشبك عنكبوت...

كل هذا أعطاه قبحًا لا جمالًا، فبدت ككهل هرم شاخت ملامحه ويتزين كمن يتزين في قبره !

كانت سعاد أبوسلطان تزف عروسها الجديد إلى (مالكها) في أستوديو حميد شعراوي وأهلها بملامح الضعف والفقر يكشفون عن أسنانهم النخرة وروائحهم الكريهة باسمين راضين.

لابد أن أفعل هذا وإلا سوف أضطر إلى الإنفاق عليها، وبدلًا من ذلك أود (بمهرها) أن أنفق على باقي أخواتها السبع!

- بثمنها..!

رد فرحًا...

- ليت هناك من يبيعني الأخرى..سأكون ممنونًا.

كان هذا هو ذيل الحوار لأبي (العروس) وسعاد، بينما عقدُ القران قد تم على يد مأذون شرعي، أي شرع هذا؟! لرجل في عقده الخامس

لطفلة لم تتعدَ عامها الثاني بعد عقدها الأول، اختارها الرجل من بين كثيرات فطار عقل أبي العروس فرحًا حين أخبره شعراوي باختيار ابنته عروسًا!!

كل من أتى من مخز الشخاخات.. أتى عن طريق سعاد التي كانت تتقاضى من توريد فتيان وفتيات إلى حميد شعراوي..

لكن بذكاء شديد تحسد عليه كان علي سعاد أن تقوم بوظيفتها الثانية على أكمل وجه حتى لا يظن بها الظنون.. ورغم ما تفعله إلا أن الأحف أرسل في سبيلها ذئابه يتربصون حركاتها ويتابعون خبرها، لكنها قامت بالاحتياط اللازم فيفقد مراقبي الأحف أثرها وتظهر كعفريت من الجن في المنطقة تحلب مديني الأحف كما يأمر...

***

توقفت البروكلاندز الزيتونية أمام المدخل الحديدي المؤدي إلى قصر ميولا، البوابة الخارجية كتب عليها بالإيطالية (هنا مقر حكم العالم ترجّل منها شارلي وابتسامة على شفته..

- يا لغرورك يا ميولا!!!

كان شارلي يعرف بمرض ميولا، بل هو من أشار إليه، وأوصى باتخاذ قرار فيه، كانت الخادمات في القصر كأن الدهر لم يمر عليهن بثيابهن المزركشة الفاقعة الخفيفة وأقدامهن الحافية، دخل شارلي إلى البهو العثماني القديم ذي المبخرة العملاقة النحاسية التي يتشعب منها دخانها برائحة طيبة يذوب في الهواء ولم يكد يستقر به مقامه حتى

تدعوه خادمة إلى حيث ميولا الجالسة على عرشها المرمري بينما جثا ثلاث خادمات يصقلون الأحجار الكريمة به عن كثب.

كلما أتى بي أمر ما إلى هنا أشعر أن هذا المكان لألف ليلة وليلة...

قالها شارلي، فنهضت ميولا ترحب بقدومه، وفي الشرفة العملاقة ذات العمدان الرخامية التي تحمل أركان سقفها، المظهر العام يطل على الخمائل الخضراء، ومسبح هائل وحين جلسا كانت ميولا قد غطت رأسها بغطاء من الحرير، فسألها شارلي..

- كنا هنا منذ قرابة أشهر وسافرتِ أنت إلى العلاج، وبعدها أتاني خبرك أنك هنا بمصر، هل لك أن تفسري هذا؟

لا تخبريني أن جمال المناخ داعٍ لهذا السبب..

انفرج ثغر ميولا قليلا عن ابتسامة..

- حقًا أنا في دهشة مثلك تمامًا يا شارلي.. تخيّل حين ذهبت للاستشفاء أخبروني بأن علاجي يبدأ من هنا..

قطب شارلي حاجبه..

- من هنا..؟ كيف..؟

أرخت ميولا خصلات شعرها على جبهتها التي اكتست أطرافها بقشرة خشنة لتخفي ما يظهر منها..

- الحقيقة.. لم أعرف كيف يكون علاجي هنا، لكن حين أتيت رأيت شيئًا غريبًا فعلًا، لا يصلح إلا أن يكون في بلدان ترزح تحت التخلف والفقر.

زاد اهتمام شارلي حين تابعت الأخيرة..

- ليلة أمس زرت مكانًا يُعد معقلًا للتجارب البشرية..

ارتفع حاجبا شارلي دهشة..

- التجارب البشرية..!!

أومأت ميولا برأسها..

- نعم.. التجارب البشرية، وهو عمل يقوم على جمع متبرعين لقاء مال وإقامة دائمة لإقامة أعمال التجارب الأولية عليهم، خاصة الأدوية التي أنفقت عليها شركات الدواء ثروات طائلة لتطويرها.

- لكن من يقبل أن يضع نفسه موضع تجريب..؟

ضحكت ميولا لكن عضلات وجهها لم تسمح لها.

- من يقبل ماذا؟ سؤال من طرفين.. الفقراء والمُشردين ومجهولي النسب ومفتقدي العائلات.. الشطر الثاني لقاء مال وإقامة تقيهم البرد والخوف والتشرد والجوع، أليس في هذا عمل عظيم؟

صاح شارلي مستنكرًا..

- عظيم.. إن هذا العمل يستغل ظروف البشر لقاء أن يشفي غيرهم..

ردّت ميولا متفكهة..

- ألم أخبرك أن هناك بشرًا خلقوا لكي نحيا نحن، الغريب أن شركاتي تعمل هنا منذ فترة على تجارب تعد الأكبر في العالم بسبب كثرة أعداد المتبرعين.

أطرق شارلي برأسه ثم نظر لميولا..

- أظن أن هذا يناسبك.. يناسبك أن ترى الناس من حولك في خدمتك، فهذا يُشبع روحك...

قاطعته ميولا مكملةً...

- ويثبت أن ما من شيء يفيد، أتعرف صاحب الأرض التي بنيت عليها هذا القصر هو مورد البشر لمعاملنا، وهو صاحب الأرض التي عليها معامل شركاتي أيضًا.

أشاح شارلي بوجهه

- من يكون؟ أتعرفينه؟

استغرقت ملامح التفكير وجه ميولا..

- يُدعى.. رؤوف.. رؤوف داغر أو شيء من هذا القبيل، لا أعرفه، ولم ألقَه مباشرة لكن من خلال رجالي علمت أنه مورد المتبرعين وهو من يغني هذا السوق بالبشر، ويستقي ثروته من أقساط تدفعها له شركات الدواء ومن بينها شركاتي.

هز شارلي رأسه ضاحكًا...

أما أنا فأعرفه تمام المعرفة، فهو تاجر بشر وسلاح، ومقاول عقارات فاسد!! أتذكرين أول ما أتينا إلى هنا كان رؤوف هذا يود الانضمام كشريك لوالدي، لكنه رفض أن يتعاون معه، بينما جاك أتم منذ أيام عقد شراكة بينهما...

والآن ما التالي؟

- غدًا سأبدأ رحلة العلاج، يقولون: أنها شاقة، لكن فكرة المتبرعين ألهبت شوقي لها.

أشاح شارلي بذراعيه متعجبًا..

- أنت أجن من أن يُصحح أحدهم طريقة تفكيرك، تنصبين نفسك إلهًا وأنت...

قطع شارلي عبارته عندما ذبلت عين ميولا دفعة واحدة وترنح رأسها فسقطت كقطعة حجر مرتطمة بالأرض وراحت في حالة خدار.

***

تناولت عليا حبات دوائها المهديء، ونفسها على ذلك مرغمة، فكلما تخيلت مشهد زوجها يعاشر ابنته عصى عليها أن تتقبل شيئًا كهذا، فتسقط في حالة من الحزن وطول التفكير، فتلهي نفسها بمُسكرات الشراب حتى أدمنت عليه وحبات المهديء ما هي إلا جرعات تبقيها متزنة صافية المزاج.

كانت الثامنة مساء حين خرجت عليا إلى نادي جراند تامري، اليوم ينظم الحفل السنوي الأول لمهرجان الشوكولاتة..! مهرجان

لعجائن الشوكولاتة في بلد يحشر سكانه في العشوائيات وتجف حلوقهم من قلة الماء.!!

ها هي عليا تخطو إلى باب ناديها بعد أن نزلت من سيارتها، كان رجال وسيدات هنا وهناك وخشبة مسرح عريضة تسلط عليها أضواء كاشفة مبهرة، ستعرض عليها إبداعات التصاميم من كعكات الشوكولاتة، وحتى تصاميم الأزياء منها أيضًا، إسراف وبذخ واستهلاك شره لامحدود في بلاد يتضور أهلها جوعًا، لكن القلة الناعمة التي ترفل فيشق من شقوق الحياة الرغدة تنخر في بدن الأمة كالسوس الوديع، فلا تشعر به ولا تقدر على مقاومته...

كان العرض في أوجه حين انزوت عليا بنفسها تتجرع بعض كاسات شرابها من نبيذ إيطالي فاخر خليط ناجح بين البطاطا وحبات الرمان، كانت الزاوية تتيح لها أن ترقب الصالة عن كثب فتعرف من القادم عليها ومن يتجول حولها، بشخصية عليا هذه كان من الصعب عليها أن تكون محل حديث سيدات النادي ولا أن تكون محل شفقة، لكن كبت أسرارها سيقتلها ببطء، فكان عليها أن تُنفّس عن روحها...

فجأة بينما كانت عليا مستغرقة في أفكارها لمحت ابنة رؤوف تتحاور ضاحكة مع أحدهم.. ضحكت سارة كثيرًا حتى إن الرجل افتتن بها، وبدأ يهمس في أذنها ببعض كلمات، لم تأتِ حالة السكر بعد على عليا، وقد أوشكت الزجاجة على الانتهاء!! فأخذت تستعد لتُلقي كلمة الحفل بعد تقديم العرض الرئيسي كافتتاحية المهرجان.

خرجت على الناس بمظهرها الأنيق، وصافحت كثيرين وكثيرات وصعدت مسرح النادي ومن خلفها عارضات وعارضون يرتدون ملابس تختلط أقمشتها بمسحوق الكاكاو ولترات من الألبان..!

شكرت الحضور ومدحت كم هو مشرف أن يقوم مثل هذا الحدث(المشرف) في بلادها وشكرت القائمين على استضافة هذا المهرجان، وأنه لفخر لها أن تكون رئيس نادي جراند تامري أثناء إقامة مهرجان الشوكولاتة!!

صفق الجميع وبدأ العرض القوي بينما عادت عليا إلى زاويتها الخفية تتابع الأشياء، وتتابع تناول شرابها، دخل أحد الخدم يستأذنها بأن هناك من يريد أن يحدثها، فأشاحت بالنفي، لكن الرجل عاد وهمس في أذنها فأدركت أنها الطبيبة المعالجة..

رغم انفتاح طبقة الثراء بالمجتمع إلا أن انفراد عليا بهناء في زاوية ما قد يثير أقاويل أكثر بشاعة من الحقيقة، فاصطحبتها عليا إلى الخارج حيث متابعة العرض القائم، وعلى أحد الطاولات كان مجلسهما، كانت عارضات التعري على المسرح تعرض ملابس البحر من الشيكولاتة، فتثير الجماهير وبعبارات فجة وإباحية سافرة كان الجماهير يغازلون الفتيات التي بدأن يأكلن قطع ملابسهن بإثارة تلهب الرغبة وتوقد حرقة الشوق للجنس...

فصياح الجماهير كان صاخبًا مجنونًا، فانفك الناس من شهوتهم، وراحوا يتابعون الآتي، هنا حدث ما لم يكن بالحسبان.. تقدمت سارة الناس شبه عارية لتغطس في قالب من الشكولاتة السوداء فيتكاثر

عليها شباب الحفل يلعقون ما علق بها من شيكولاتة فصاح الجماهير بين مندهش لفظاظة ما يحدث وآخر أخذه العرض حتى صرخ مؤيدًا طالبًا المزيد، غريزة بلا فكر سطحت المشاعر حتى اعتاد الناس على ما هو غير مألوف ويتنافي مع السلوك القويم، وأمام ذهول هناء كانت دموع عليا تسيل بلا حزن، بل كانت كدموع شمع تنصهر دون أن يكترث أحد لها، فتمتمت هناء..

- أهذه ابنته؟ لقد صدقت أنت أمام شيطان رجيم.. كان الله في عونك.

***

كان الأمر كالهجرة أو السفر إلى البلاد البعيدة دون عودة، وهو موضوع ليس على المرء اعتياده أن يرحل عن أهله ويترك حياته الأولى بعيدًا عن مشاكلها ومنغصاتها التي معها يستحيل العيش، فقرار الهجرة الأبدية بلا عودة قرار صعب على القلب اتخاذه وعلى العقل التفكر فيه؛ لأن من يقوى على الهجرة كمن يقطع أوصاله بيده أو ينزع جزءًا من الزمن كأن لم يكن، ويبدأ هو من نفسه بسيطًا وحيدًا بل وشريدًا..!! كانت الأمور تسير بيسر غريب لم يعتادا عليه أبدًا في أي مرحلة من حياتهما.

كانت عيونهما تملؤها الدهشة وحب التطلع كطفل في مرحلة الحبو سلسة من الإجراءات شعرا معها بالراحة ولم يلحظا أي شيء قد يبدو غير منطقي أو غير مبرر، كانا يجلسان على أرائك جلدية وثيرة ناعمة وحوائط تكسوها ألوان فاقعة والأركان تتزين بمصابيح إضاءة جميلة ولوحات زيتية تجذب الأنظار وتحبب النفس بالمكان، كانت هذه هي الزيارة الثانية التي أوصت بها إدارة المكان بها.

- أشعر أني على موعد مع السعادة..

قالتها هالة همسًا...

بينما نظرات إسماعيل تتابع الغرفة الكبيرة التي يجلسان فيها وحدهما، دقائق حتى طرق الباب فيدخل بلا استئذان واضعًا روزمتي أوراق على سطح مكتبه وابتسامة عريضة بلا معنى تطلع بها لهما ونظرات الترقب تطل من عينهما فدعاهما الرجل إلى واجهة مكتبه.. فجلسا فقال بهدوء...

- فرصة عظيمة باتت بين أيديكما الآن فقد قررت الإدارة أن تبقى ضمن فريق العمل هنا في جمعيتنا الخيرية...

كان الخبر هدية من السماء على حسب وصف هالة التي أدمعت عينها من هول الخبر السعيد.. ليس لأجل فرصة العمل الجديدة بل من أجل كل شيء.

من أجل قتامة عيشها التي لن تعود إلى سابق عهدها أو لسوء معاملتها التي ولت مدبرة بلا رجعة أو لمحاربة مسوخ البشر التي لم تعد إلا أضغاث أحلام أو لفرصتها الجديدة التي أضحت قاب قوسين من التحقق، ممرات مبهجة.. ووجوه باسمة.. وحدائق واسعة كل ما يحيط بها يشير إلى قدر سعيد يعد بالكثير.

- أعتقد أن علينا أن نعود لكي نعد أغراضنا.

قالها إسماعيل، وهو يجول ببصره في أرجاء المكان المفتوح.

فردت هالة بشيء من الاستنكار..

- نعود إلى حيث ماذا..؟ إلى حيث نفيق على خبر رهيب، بأن الأحف قد ضرب سورًا حول مخر الشخاخات؟؟ كم أكره حتى نطق هذا الاسم، لا أرى من العودة فائدة.

فرد إسماعيل وخطواتهما على مقربة من بوابة المكان...

- بل أنا لا أرى من العودة بد.. ليس معنا هنا مال.. إضافة إلى كوني لن أترك عملي مباشرة فيجب أن أستمر فترة قبل أن أستقيل، ويجب أن نُحضّر أغراضنا وبعدها أعدك أن لا شيء سيعود بنا إلى هناك.

غمغمت هالة بكلمات اعتراض لما كانا قد وصلا إلى البوابة، كانت تجمعات غفيرة من بشر كثر ألوان عدة من صنوف الناس تقف في وهج الشمس المحرقة على الرغم من اعتدال الطقس في هذه الأيام من السنة حتى إن أسرًا بكاملها تود الدخول وآخرون يودون العودة للمكان.. بينما إدارة المكان فرضت حراسة من رجال ذوي سواعد شديدة وأكتاف عريضة تمنع المتطفلين أو مَن تم رفضهم...

وحين خرجا إسماعيل وهالة وجدا في عيون الناس نظرات من الأسى والحقد ممتزجين ونبرات صوهما وصياحهما تثير الشفقة من كثرة التوسل والرجاء، هذا عزّز من معنويات هالة، وإسماعيل بجودة المكان، وفرصة الحياة الرغدة فيه...

هنا صعدا إلى متن سيارة كبيرة أقلتهما إلى حيث يشاءون مع من كان حظهم مثلهم، خدمة إضافية من إدارة المكان، في داخل السيارة كانت عبارات الثناء والوعود برغد العيش هو محور الحديث.

***

- فتصيح قائلًا.. هذا إهدار للمال العام، ونحن لن نصمت على هذا أبدًا مهما يكن فترد أنت.. إن ما يحدث ما هو إلا استثمار ناجح يمد البلاد بالثقة، وليس به أي ما يخل بالملكية العامة للبلد لأن المال يرجع للملكية الفردية.. أفهمتما؟

هذا كان جزءًا من رسم لحوار بين نائب مجلس النواب ووزير الاستثمار الذي أخذ يراجع فصلًا في أوراقه، بينما النائب بدت عليه ملامح الجدية بينما يعرض كلماته الغليظة...

كان هذا الاجتماع الذي حضره أنصار الحزب الحاكم ومحركيه مع واحد من أكثر المعارضين لسياسة الحكومة القائمة.

- أرى أن الأمور تسير بشكل جيد..

هكذا قالها رؤوف وتابع وهو ينظر إلى وزير الاستثمار والنائب..

- أريد مزيدًا من حرارة المناقشة والمشادة، ولا مانع من السباب حتى يقتنع الناس بجدية استجوابك للوزير هل تفهم ما أقصده؟ يجب أن يقتنع الناس بما تقوله..

هنا تدخل الأربعيني بسؤال وهو يرمى بنظرة ازدراء على النائب..

- لكن لمَ كل هذا؟؟

ألا نكتفي برد المعارضة وحسب، كما في المرات السابقة؟؟؟

ابتسم رؤوف بجانب فمه..

- هذه المرة تختلف عن سابقتها.. لا تنسى أن كل المال المشتركين به هنا لا يعد إلا غسيلا لعمليات سابقة، وهذا يتوجب تغطية ما، بشكل مختلف كنوع من التمويه اللطيف ويجب أن تعرف أن هناك مراقبين دوليين حول هذه الشراكة يتابعون الشارد منها والوارد غير أن العامل الأهم هو أن شركاءنا في الخارج أعمالهم تحت الضوء وهو شيء لم نعتده هنا وبالتالي سينكشف أمر الأموال بسهولة فستجد نفسك محاصرًا بين تيارين معارضين من الداخل وآخر يدعمه من الخارج..

مط الأربعيني شفته مفكّرًا في كلمات رؤوف حينها قال صاحب العوينات:

- لكن فرصة التيار الداخلي للمعارضة ضعيفة في أن يحدث شيئًا، ثم هل علينا أن نُرضي الآخرين؟

نهض رؤوف فصب كأسًا من الشراب لنفسه، بينما كانت قطع الحلوى تُمضغ في أفواه متابعيه حين قال:

- ليس الأمر كما ترى.. إن غالبية الأحزاب المعارضة تُراقَب بالمنظار، وحين ينشط عملها في البرلمان وحين تُحرز الدولة محل المراقبة تقدّمًا في مسيرها نحو الديمقراطية، خصوصًا دولة في حجم بلدنا تبدأ الإعانات في الوفود إلينا، وهذا ما يجعل كلامنا معسولًا مع التيار الخارجي حتى ولو كان معنا شديد المعاملة وقاسي اللهجة؛ لذا مجلس الشعب هذا كما أرى ليس إلا مسرحًا نُجري فيه حوارتنا حتى نُقنع الأطراف الأخرى بمدى جدّية أمرنا وإظهار نوع من الحرية البرلمانية، فنكسب رضا المراقبين الدوليين ونحط بالبرد في قلوب معارضينا.

رد الرجل وعلامات عدم الاقتناع بادية على ملامحه...

- أوليس هذا كلام فارغ من المعنى، أقصد أن المراقبين ومن يتطفلون على شؤوننا يعلمون ما نعمل عليه؟

عاد رؤوف إلى مجلسه وبيده كأس شرابه..

- السياسة هي الشيء الوحيد الذي يقدر فيه قيمة الكلام بالذهب أو يُتخذ على محمل الجد، فكم من حرب أو عراك سياسي مُحتدم قام على أثر لغو لا يعدو إلا عبارات فارغة من المعنى والمضمون، كلامنا هذا ليس إلا مجاملة لابد منها حتى ولو كان الطرف الآخر يعرف بفحواها!

قالها رؤوف وأشار إلى الاثنين بيده، فواصلا نقاشهما التمثيلي.

بعدها..كانت الأمور تسير بسهولة وحركة الأموال بدأت تجني ثمارًا سريعة وكبيرة وتتحدث الصحف عن تكهنات بما يجري، ونواب مدفوعو الأجر يصرخون باسم من أنابوا عنهم من الشعب.

***

شركاء يتقاسمون الخراب

شيئًا فشيئًا أدرك الناس قيمة سعاد في مخر الشخاخات، وبدأت مملكة الأحف في الزوال، فما كانت سعاد تكسبه من جني محصول الأحف في أشهر باتت تحصده في أيام، وأيضًا لم يثبت مراقبو الأحف أي دليل على خيانة سعاد له أو العمل لغيره، فكانت تُدير الأمر بذكائها، وأحيانًا بشغف الأحف بها، وأضحت القوة الناعمة على تحريك الأمور، وبرهنت على أنها الأقدر فيزداد تمسك الأحف بها، وأيضًا تزداد الفجوة بينها وبين أبي طرف الذي لم يثبت خيانة سعاد ولا حتى أن يثبت كفاءته !

كم هو غريب سحر النساء على الرجال!!! وكم هو غريب أن يفشل الرجل في تتبع أثر النساء!!!

كان الأحف أيضًا غير قادر على أن يُصارح سعاد بالخيانة أو الشك في أمرها تفاديًا لثورتها عليه، لكن ما أعاز به أبو طرف للأحف هو أن يبدأ من حيث تنتهي سعاد.

في محل أقمشته التي ازدهرت تجارتها بسبب الأحف كان زوج سعاد يجالس الأحف وأقداح الشاي بأيدهما، زوج سعاد يكبرها بعشرة أعوام دفعة واحدة، تزوّج بها وهي دون السن القانونية بعد، وأتى بها إلى القاهرة بعد أن رفضت الحياة قبولهما في دفاتر أحيائها في الصعيد...

- كيف حال تجارتك يا حسن؟

قالها الأحف بهدوء فهز الرجل رأسه

- على ما يرام الوارد بقدر الصادر.

سأله الأحف:

- وترى أن بالإمكان أن تكون أفضل؟

شرد الرجل في صنوف أقمشته قبل أن يرد..

- تقريبًا أرى هذا ممكنًا، لكن المال لم يعد متوافرًا.

- وهل هذا يتوقف على المال فقط؟ أقصد إن فقدت المال تفقد تجارتك؟

- ليس بالضرورة؛ فالتاجر المُفلس يبحث دومًا في دفاتره القديمة، عسى أن يقف على دين فات أو مُخالصة تُنجيه من شر الإفلاس.

وضع الأحف كوبه وأمسك بساعد حسن..

- هذا هو مربط الفرس، سعاد مدينة لي!!

قاطعه الرجل ضاحكًا..

- وما في هذا؟ الجميع مدين لك ياعيضا.

- لا أنا أقصد هذا، إن تجارتك الجديدة ليست من مالي.

وضع الرجل قدحه على الطاولة، ونادى بصبيه أن يرفعها ويحاسب المقهى وغادر الصبي، فاعتدل حسن للأحف وعينه تحمل معاني كثيرة...

- أنا لا أفهم ما ترمي إليه.. أي تجارة جديدة؟

قطب الأحف حاجبيه..

- شحنات الأقمشة الجديدة لم تساعدك فيها زوجتك؟

رد الرجل بهدوء وعينه ترمق المارة بالشارع..

- آه.. فهمت.. اسمع يا عيضا أنا لا أتاجر مع أحد غيرك، ومالي وأقساط دينك أدفعها بانتظام ما دام عملي جاريًا، أما سعاد...

فشعر الرجل بغصة في حلقه، وهويتابع..

- سعاد.. أعرف أنها لا تمشي في طريق ما إلا وقد أصابت فيه نهايته، ومنذ البداية وأن أعرف أنها تكسب مالها من عملها معك، وأعرف أيضًا تفاصيل أخرى لا داعي لذكرها، لكن إذا كان هناك طرف آخر فاعلم أني ليس معه شريكًا، وأيضًا أنا فعلا لا أعرف ما يدور بخاطر سعاد.

صاح الأحف..

- ليس معقولًا أن لا تعرف من أين تحصد مالها؟

أشاح الرجل وهوينهض..

- مالها؟؟ مالها معك، أو مع غيرك ليس لي فيه شيء، فهي تعمل أكثر مني وحركتها أكثر مني، وترتبط بعلاقات أقوى مما أنا أرتبط؛ أنا فعلًا لا أعرف كيف تفكر سعاد، بل ربما أنت تعرفها أكثر مني، أليس كذلك؟؟؟؟

وطوّق سبابته حول وسطه في إشارة إلى ما يعرفه عن معاشرته لزوجته، فمسح الأحف قفاه وأطرق برأسه متحاشيًا النظر له، وأيضًا لم ينكر عليه قوله، فتابع الرجل وهو يرتب صفوف رفوفه..

- صدقني أنا لا أعرف ما تعرفه أنت.

غادر الأحف محل الرجل، ولم يتوصل إلى دلالة أكيدة على شيء، وشعر أن الدنيا من حوله تضيق، وشعر بدقات قلبه تزداد وبرودة بأطرافه تسري بسرعة كالبرق، وراح يسير بغير هوادة حتى بيته فوق عصارته.

في الوقت ذاته كانت سعاد تفكك كل أوصال مملكة الأحف بعد أن أفقدته من يدفعون دينه، فتبقّى مَن كانوا في عمل أبي طرف من أعمال البغاء!!

كانت سعاد تعرف أين تستقر الفتيات بالتأكيد في الأحياء الفاخرة المتاخمة لغيرها من الأحياء التي أقل ماتوصف بأنها قاع صندوق للقمامة، شوارع تصطف على جوانبها الحوانيت الفخمة تمر من أمامه سيارات مترفة لأصحاب المال الوفير وراغبي المتعة الآثمة، هذا هو موسم السياحة الجنسية!!!!!

بجلبابها الأسود الضيق يرسم تفاصيل جسدها المكتظ ويفصل ثنياه وحذائها بكعبه العالي الزجاجي ووشم مرسوم بدقة على قدمها كانت من تحت غطاء شعرها تضع زينتها، وترمق السيارات بنظرات ثاقبة ترسل إشارات لمن يفهمها فقط.. (أنا هنا من أجل إمتاعكم)، وأول من تلقى هذه الإشارة كانت سعاد التي تحركت بسرعة أمامها ووقفت تلتقط أطراف حديثها معها.

- حال ابنة خالي لا يعجبني...

قالتها سعاد بلهجة صعيدية فردت الفتاة بمثلها وهي لا تنظر إلى سعاد بل تحاول ان تلتقط بنظرها من يبادلها إشارتها!!

- حسنًا.. اتركيني كي ينصلح حالي أنا هنا منذ أسبوع كامل، ولم أحظَ إلا بثلاث: اثنين لم أكد أنتهي حتى أوسعوني ضربًا، والأخير كان مجنونًا، أوشك أن يقتلني كمن لم يرَ النساء من قبل.

ردت سعاد باستخفاف:

- مَن قال إن كسب الرزق سهل؟

لم تكد تنهيها سعاد حتى تجاوزتها الفتاة، فهناك من استجاب لإشاراتها وأرسل بالرد، كانت سيارة بيضاء ذات دفع رباعي كبيرة تحمل لوحات الجمارك السفراء، اتكأت الفتاة بمرفقها على باب السيارة ودار حديثها.. دقائق حتى عادت وعلامات خيبة الأمل على وجهها فسألتها سعاد:

- ما خطبك؟

ردت بعد أن سبت صاحب السيارة:

- لا أعرف، فقد اختلف معي على السعر إذا كان بالعشاء والشراب، أم دون ذلك، أنا لا أفهم هل هناك فصال في طلب المتعة؟

ردت سعاد ببرود أثار الفتاة

- مثلها مثل أي سلعة!!

فصاحت الفتاة بحنق...

- سحقًا بربك؟؟! أنا لا أعرف من أي مكان جئت، هل لكِ أن تخبريني ماذا تريدن الآن؟

ضحكت سعاد حتى أن هناك من المارة من ألقى بدعابة إباحية..

- أريد لك الخلاص.

نظرت الفتاة بعين الشك لها..

- الخلاص؟؟؟ لا داعي للألغاز هاتِ ما عندك.

- لمَ لا ترحلين عن هنا، وتُلقي بعرضك في مكان آخر؟؟؟

ردّت الفتاة بتهكم وأشارت بإصبعها الوسطى..

- أهذا هو الخلاص؟ أولًا لا يجوز لأي فتاة التجاوز على منطقة الأخرى، ثانية هناك من يراقب حركتي الآن وأنتِ عالمةً بهذا جيدًا، إنه عمل أشقى من عمل عُمّال البناء!!

نظرت إليها سعاد وابتسمت..

- يا لكِ من ضيقة الأفق، بل خلاصي هو أن أضع ما تشائين من الزبائن، ويكون بيدك أنتِ الاختيار لا هم...

عادت الفتاة لإرسال إشارتها إلى السيارات التي تمخر الشارع مسرعة، وقالت دون اكتراث:

- وكيف هذا...؟

اتسع وجه سعاد بابتسامة عريضة...

- اتركي لي أمرك ولن تندمي...

***

كانت هالة وإسماعيل في جم فرحتهما ونشوة النصر على ظروفهما، القاهرة تحملهما إلى غرفتهما التي رأتها هالة أفضل الأماكن قاطبة طالما أنها ستبارحها إلى أبد الآبدين دون رجعة.

بل سترحل عن هذا العالم الخانق الذي يرفل تحت وطأة الفقر والجهل، أمر عجيب أن يفكر المرء بعالم آخر غير ما اعتاد عليه، مشاعر مختلطة وأفكار متضاربة تدور في ذهن هالة التي أخذت ترتب حاجتها بسرعة.. لم تتناقش بخصوص الراتب أو كيف سيكون الوضع هناك، المهم والأهم أنها ستغادر هذا المكان، بينما إسماعيل بدت مشاعر الحنين تضرب فيه بقوة منذ الآن، غدًا هو موعد تركه لعمله، وبداية حياة جديدة، وحين سألوه عما ينوي فعله أجاب بأن هناك باب رزق أوسع حالًا مما هو عليه.

- رغم سعادتي بما أنا عليه وأشعر بغبطة الفرح إلا أني لست قادرًا على أن أتخيل أني في مكان آخر.

- ستعتاد الأشياء بعد فترة يا إسماعيل.

كانا قد وضّبا ثلاث حقائب كبيرة تضم كل حاجيتهما تقريبًا.. كان كل شيء مُعدًّا للرحيل، إسماعيل دفع أجرة الأحف، وبهذا كانت المغادرة سالمة.

فقالت هالة متشككة...

- لا أعتقد أن الأحف سيتركنا في أمان.

أشاح إسماعيل بيده

- وماذا سيفعل لنا الآن، أعتقد أن فكرة ارتباطه بك قد زالت من رأسه تمامًا.

لم يكد ينطق بها حتى كانت طرقات على الباب.

يفتح إسماعيل الباب فيطالعه وجه خمري وملامح منمقة، وجسد نحيل، لكن أساور الذهب هذه ليست من المصادفة أن تطوق يد أحد غيرها.. إنها سعاد!!!

هنا وكأن الزمن توقف إسماعيل لم يكد ينطق بعبارته حتى جاء رسول الأحف المقيت وسيدة البغاء لكن ملامح التبلد حلّت مكان الدهشة وبرودة الأعصاب جاءت مكان التوتر، فكان اللقاء فاترًا.

- هل دعوتني للدخول؟

قالتها سعاد ونظرها ثابتة، أومأ إسماعيل برأسه.

فهبطت سعاد درجات السلم الصغير، ولم تكد تدخل حتى وقفت هالة أمامها، وقالت بهدوء وسرعة:

- معذرة يا سعاد قد يكون إسماعيل قد دعاكِ للدخول، لكن لديّ موعد الآن يجب أن أنجزه!!

ابتسمت سعاد ونظرت لهالة كمن يخبئ عليها شيئًا.

- قرار ذكي، لكن أنا أعدك أن زيارتي لن تتجاوز دقيقتين، ولن أطيل.

تردّدت نظرات بين هالة وإسماعيل، فوافق الثاني بينما تراجعت هالة لترى ما تحمله هذه الشيطانة، فتنحنحت سعاد قبل قولها..

- اسمعي يا هالة: ما سأقوله الآن لا يمت للأحف بصلة، ولا أنا أريد منك أن تكون زوجَة له، ولا زوجًا لكِ،وأنا أحسب أن ما أقوله لن يصل للأحف؛ لأنني أعرف أنكما أقصدُ أنت وإسماعيل تبغضان الأحف ولو كان هو مفتاحكما لجنان الله ورضوانه.

تبادل إسماعيل وهالة نظرات الشك حين تابعت سعاد مكملة...

كل ما أرغب، وأطمح إليه أن تسامحاني على أي مكروه أصبتكما به من جراء فعل ارتكبته أو شيء صنعته، أنا فعلا لا أعرف ماذا حل بي، لكن ولشيء لا أعرفه أشعر أن علي أن أستميح بكما عذرًا، ربما لأنكما أطهار حقًا دون الناس من حولكما.

قالتها ونظرات الشك والريبة تنضح من أعين هالة وإسماعيل..

فتابعت وعينها تلمع تحت مصباح الغرفة البائس الذي أضاءه إسماعيل حين حل الليل...

- لا تظنا بي الظنون أنا هنا من أجلكما.

قالتها ونظرت بعين قطٍ

- أنا أعرض عليكما الهرب من هذا المكان إلى مكان آخر لا يُقارن.

كانت الكلمات لا تُصدّق بالنسبة لهالة، التي سارعت بسؤال وهي تفكر :

- لكن عفوًا سيدتي، هل لي أن تبرري موقفك النبيل هذا، وأنت منذ أمد ليس بالبعيد كنت تودين أن أكون أنا قربانًا لهذا الأحف؟؟؟؟

مطت سعاد شفتها.. وهي تنظر لها ولإسماعيل..

- أنا فعلاً لا أعرف، الناس تتغير.

فقال إسماعيل متشككًا..

- فرضًا ما تقولين، كيف سيكون الحال إذا ما كانت هذه خدعة منك، ونجد أن مسكنك هذا ما هو إلا بيت للأحف.

ابتسمت سعاد وقالت برفق غريب:

- أنت فعلًا ساذج يا إسماعيل، إذا كان بيتًا للأحف فهل أودعت هالة دونك أم أنك مرافق لها؟ أنا أعرف أنه تغيير مفاجئ لكما، فكرا في الأمر جيدًا ولن تندما، تعرفان أين تجدونني.

قالتها، واستأذنت وغادرتهما بهدوء...

وألف ألف سؤال يدور برأس هالة وإسماعيل، لكنهما تابعا ما كان عليهما دون أن ينشغلا لحظة عن هدفهما الحقيقي، فقال إسماعيل شاردًا:

- أصدقك القول يا هالة، ما كان لنا أن نعود هنا ثانية، أشعر أن خطبًا ما على وشك الحدوث، ليتنا ما عدنا...

***

لاحظت سارة تغيرًا مفاجئًا على عليا التي تحسنت حالتها المزاجية، لكن هذا لم يمنع السيدة الجزائرية من الإقلاع عن الخمر، بل إنها تاهت في أثره، وكأنه رحيق روحها وإكسير حياتها، لكن رباطة جأشها باتت أقوى من ذي قبل على الأقل في مواجهة سارة التي رأت في عين عليا وعين أبيها تبادلًا للنظرات يحمل معاني المواعدة أو أن هذا حدث بالفعل، لكن فتاة العشرين التي لم تبلغها بعد لا تزال تصر على إثارة مشاعر عليا.

على العشاء كانت عليا في كامل رونقها تفرض نفسها سيدة القصر الوحيدة بالمكان بلباسها الحريري الشفاف وخصلات شعرها الناعم تسبله على جبينها فيتوهج مشهدها مع سلاسلها الذهبية الرفيعة التي ترسلها على صدرها البض الذي يظهر كالروابي من خلف قميص نومها، يتهامسان وتداعبه عليا بتمرير يدها بين خصلات شعره الكثيف...

انزعجت سارة وبدا عليها الحنق والضجر فتبلدت ملامحها وجلست على المائدة دون كلمة، كانت كالعادة في ملابسها الخليعة

الفادحة، لكنها لم تفلح في استنفار مشاعر عليا.. بينما رؤوف لم يحفل بما يراه من حرب باردة بين عليا وابنته..

ولزيادة قوة صفوفها لم تخجل من إحضار زجاجة نبيذها، وتتجرع من كأسها الكريستالي وعينها تكاد تخترق سارة التي لم تهنأ بعشاء جيد أو لم تهنأ بجولة تكسبها ضد زوجة أبيها، فقد كانت المعركة فعلاً بيد عليا حين وضعت إصبعيها في كأس شرابها وداعبت شفاه رؤوف بها ثم قبل يديها وهمس في أذن عليا التي انفجرت بضحكة تغلفها ثمالة مصطنعة فصاحت سارة..

- أبي ناولني طبق الخبز من فضلك.

ففعلت عليا هذا وابتسامة على شفاها وكأنها تخبرها أن هذا أول الغيث.

بعدها جرى نقاش تقليدي عن أعمال رؤوف الذي وصفها بالممتازة، فقالت عليا:

- لكن دعني أجعلها لك أكثر تميزًا.

أمام عينها التي ملأها الجنون ودموع الحسرة، أغلقا باب غرفة نومهما أمام عين سارة، لم تعرف بأي شيء ترد أو أي شيء تفعل، لكن يبدو أن في جعبة عليا الكثير...

صباح اليوم التالي بعد أن انتصف النهار، طرقت عليا باب سارة التي فتحت والانزعاج على وجهها الذي استحال إلى شيء من الضيق لكنها حاولت كسب ما فقدته أمس.

- صباح الخير يا عليا:...

لم تتردد عليا في الرد وسألتها.

- هل لي بدقيقة واحدة.

رفعت سارة كتفيها، وردت بهدوء:

- بالطبع.

دخلت عليا تتفحص تفاصيل الغرفة كالأجنبي الذي يطرق طريقًا جديدًا لأول مرة.

- غرفتك ذوقها جيد لا يخلو من لمسات فنان...

ارتابت سارة من هذا النفاق وردت ببرود:

- ليس كمثل غرفتك.

فحصت عليا كتب سارة على سطح مكتبها، بيدها اليسرى، بينما يدها اليمنى متكورة على شيء ما، لكن نظرات سارة لعليا لم تخرج من إطار المراقبة، والتشكك في زيارة عليا المفاجئة لها.

- هل تودين الحديث عن شيء ما؟

فرفعت عليا عينها عن كتابها ونظرت حول سارة بلا مبالاة، وقالت والسكر لا يزال يثقل جفنيها:

- لدي شيء لك.

- ما هو...؟

قالتها سارة في شك فنظرت لها عليا مباشرة

- هدية صلحنا...!

لم تكد تفكر سارة فيما تعنيه حتى ألصقت عليا يدها اليمنى بفمها فضحكت عليا.

- إنه ما اشتقتين له ليلة أمس.

لم تكد سارة تمسح فمها حتى تبين لها أنه ماء أبيها، فتجاوزتها عليا وهي تضحك معلنة نصرها...

- إنه تذكار سيبقى ما دمت حية في مخيلتك،أليس كذلك؟

***

كمن فقد ماشيته.. صاح أبو طرف وهو يُمسك بثياب النساء، وأشاح بها في وجه الأحف، حينما أبلغه الأول بالمجيء إلى أستوديو التصوير.

- لقد فقدنا نساءنا كلهن، تركن ثيابهن وغادروا دون حتى أن يسألوا عن باقي أجورهن، أراهن على أن أقطع طرفي إذا ما كانت سعاد خلف هذا الانقلاب.

صاح الأحف بدوره..

- بل هذا بسبب ضيق أفقك وسوء تعاملك معهن، لم تجد اللعبة كما ينبغي.

ألقى أبو طرف بالثياب، وقال في حدة:

- لم أجد اللعبة، أهذا رأيك الأخير؟ بعد أن أسهمت في زيادة ثروتك ومالك تتهمني بعجزي عن إدارة حثالة النساء، أراهن على أن سعاد قد أتت بهذا الانقلاب علينا.

أشاح الأحف بيده:

- كفاك رهان يارجل، لقد قمت بما أشارت عليّ به، وزوجها الخانع هذا لم يدلني على شيء.

رد أبوطرف بحدة:

- هذا لا يعني أنها لم تفعل، بل على العكس أنت تعرف جيدًا كيف تدخل إلى الرجال، وأيضًا لها تأثيرها على النساء.

أمسك هنا أبوطرف الأحف بقوة،وقال له:

- تذكّر ما مضى مدينوك أصبحوا من الأغنياء بين ليلة وضحاها، والفتيات لم يعدن للعمل معنا كما كنا سابقًا.. وهالة أيضًا...

قالها أبو طرف بهدوء كمن يدفع بحقن مخدر للأحف فسأله الأحف وقد بدا عليه عدم الفهم.

- ماذا.. هالة.. ماذا تقصد؟

رد أبوطرف:

- نعم هالة لقد شاهد أحدهم سعاد وأخبرني أنها قامت بزيارة هالة ليلة أمس.

اعتلى الاستغراب على وجه الأحف.

- وما في هذا،ربما كانت زيارة تقليدية أو شيئًا ما.

صاح أبوطرف مجددًا..

- عاااااااه.. سعاد لا تطيق هالة؛ لأنها تشعرها أنها طاهرة، وأكثر رفعة وشرفًا منها، أنا أعرف ما أقوله، فهي لا تقوم بزيارتها إلا بأمر منك، بالتأكيد دعتها للانقلاب عليك.

ضحك الأحف.

- تنقلب عليّ هالة؟؟؟ هالة في غنى عن أحد ليدفعها إلى إزكاء نار كرهها لي.

نظر أبوطرف له، وقال بهدوء مفاجئ:

- حسنًا هل لك أن تعرف ما غرض زيارة سعاد لهالة؟

غاب الأحف في التفكير حين شرد ذهنه..

- طبعًا لا، فكيف أعرف شيئًا كهذا؟ حديثي مع إسماعيل معدوم، وحتى إذا كان هناك وصل بيني وبينه فلن يخبرني طبعًا، هذه كانت وظيفة سعاد على أي حال...

ثم ضرب الأحف كفًا بكف..

- اللعنة على النساء جميعًا.. لكن كيف أتوصل إلى ما تُخطّط له سعاد، كيف؟؟

***

كانت سعاد قد ضربت بكل أطراف مملكة الأحف، فليس النساء بالجناح الضعيف بقدر ما يملكونه على الرجال من تأثير وقوة في تحريك الأمور.. أموال سعاد تزدهر، شكوى الفقر وسوء الطالع دفعت الناس دفعًا إلى سعاد التي بدأت تخرج رويدًا رويدًا عن طوع الأحف...

في أستوديو حمدان كان العرض على أشده، فتيات في سن المراهقة أمام رجال بجلباب أبيض فضفاض بملامح أجنبية عن البيئة المصرية، ست فتيات وأهلهن ينتظرون النتائج عمّن يكتب لها القدر بالعيش في جنة الزواج غير الكفء هذا والناقص والآثم، بينما كانت هالة تخطو خطواتها الأخيرة في الشارع الذي سيصبح ذكرى إلى الأبد لترفل في نعيم الجنة الخضراء، مرّت على بيتها القديم لتتذكر الحسرة والمرارة التي شعرت بها حين أبلغها طارق أن عليها الرحيل...

ومرّت بمحل حسن زوج سعاد الذي تنتعش الحركة على عتبة محله، وعلى المقهى الذي فاوض عليها طارق إسماعيل أخيها، شريط الذاكرة يجري أمام عينها، وكأنه صورة فيلم بسيط حتى تلاشت الصورة أمام فردوس شقيقة طارق، فوقفت لترد لها بعض حاجات قد أقرضتها فردوس لهالة...

- ما من أحد أحب أن أقرأ غيبه مثلك يا صغيرتي!!!

قالها رجل شيخ يرتدي أسمالًا بالية، ويتعكز على غصن شجرة أو ما شابهه لحيته طليقة، وعين مفقعة وأصابع مبتورة، يلف حول عنقه سلاسل من أشياء كثيرة، غير رائحته التي لا تُصدق أن يعيش بها إنسان أو حتى حيوان...

ردت هالة ببرود..

- كيف حالك يا شيخ سليمان؟؟

صاح الرجل كالمجاذيب:

- لله الحمد الذي بيده الملك، وهو على كل شيء قدير، يأنس لشكوى عباده الصالحين، كم يسألني خالك عنك!!!

ردت هالة باستنكار واستخفاف..

- ماذا؟ يسأل عني؟؟؟! وكيف حاله؟

أشاح الرجل بيده وصاح بكلمات غريبة قبل أن يقول بالعربية:

- إنه يسكن فسيح الجنات وينعم بأرائك من حرير وإسفنج!!!

صاحت هالة وفردوس في نفس واحد..

- إسفنج! هل في الجنة إسفنج؟!!!

صاح الرجل وهو يشيح بعصاه

- بالطبع.. أنتم أيها الملحدون والكافرون بنعمة ربكم تنكرون على الله أن يملك ما يملكه العبد الضعيف؟؟!

المهم.. ألا تودي أن أطلعك على أخبارك وأخبرك بما يخفي لك الغيب؟؟؟

هزت هالة رأسها وهي تناول فردوس حاجاتها...

- كم أنت مدّعٍ يا شيخ سليمان!!! أنت لا تعرف حتى مصيرك البائس!!!

صاح الرجل بغضب عارم:

- أنت أيتها المجنونة تتفوهين بما لا دراية لك به، بل أنا أعلم مصائر الناس أجمعين!!!

قالها، ووقف بحركة عصبية أمام هالة، وفردوس تضحك على حركاته التمثيلية حين ثبت عينه مباشرة نحوهالة...

- أنت سوف تعانين ألمًا مبرحًا وصراعًا مريرًا، وسوف يّقتل عدوك إثر ضربات زائدة.. سلام !

قالها، وتركها، فقالت فردوس وهي تتابع خطاه:

- هذا الأفاق خرج من سجنه لتوه.

- سجنه ! ولمَ؟

ردت فردوس:

- نعم عاشَر من النساء عشرًا، حين لجأن إليه ليفك عقدة أزواجهن عن معاشرقن، فادّعى أن الحل أن يجامع كل واحدة على حدة أمام زوجها وسوف تنفك عقدتهَ !!!

قالت هالة متلهفة:

- وماذا بعد؟

ردت فردوس وهي ترتب صفوف خضرواقما:

- لا شيء غير أن ما من شيء تغيّر وأصر على التجربة حين أوعز إلى أمهات أزواجهن أن المرة الواحدة لا تكفي فما كان من أمهات أزواجهن إلا الضغط عليهن حتى هربت إحداهن، واشتكت بقسم الشرطة...

- ياله من كذاب أشر!!!!

قالتها وتركتها هالة وكلمات الرجل رغم ما حكته فردوس إلا أنها تدور برأسها حتى أفاقت على صوت الأحف يقف على باب دكانه.

- هالة هل سمحت لي بكلمة؟

ردت دون النظر إليه:

- أليس من العيب أن يخاطب الرجل الشهم امرأة لا تحل له؟

وتجاوزته فما منه إلا أن وقف أمامها، ونظرات المارة تتحاشى أن تقع عليه، وكأنهم نيام أو مسحورون!!!

- أنا أقول: إنه لن يستغرق حديثي أكثر من سؤال ورد، كنت أود أن أعرف إذا كانت سعاد.. تجاوزته هالة ثانية.. فصاح:

- هالة..

وأمسك بذراعها،فدفعته بقوة حتى تهاوت الأرض من تحته،فوجد نفسه يفيق من ذهول سقطته...لقد سقط الأحف...نعم سقط!!!

هنا حدثت كل الأمور متتابعة متعاقبة؛ فقد سقط من احتفال الناس به كصنم معبود بعد أن فقد دينه أهميته، وفقد حركة نسائه،

وتزداد الطين بلة حين تطرحه امرأة أرضًا!!! غضب عارم جرى في عروقه حتى إنه جرى خلفها فوقفت الناس حاجزًا بينه وبينها، حين استنجدت بأحدهم ربما كان الساحر مخطئًا حين ظهر إلى النور أمام أعين الناس متوكلا على قوة سحره أوحساب الناس له ألف حساب...

عاد الأحف إلى بيته كالمحموم تماما كإله فقد عباده أو إله بلا دين.. الجنون يمخر عروقه ويعصف بعقله.. ماذا يحدث؟؟؟ وكيف حدث؟؟ مالي أرى نهايتي؟؟ أهذه هي النهاية؟؟ أنا عيضا الأحف.. سوف أحيل رأس هذه الفتاة إلى قلادة أرتديها في مناسبات.. كان أبو طرف أمام الأحف يحاول أن يهدّيء من روعته، حتى جاءت سعاد لتكون قريبة من ساعة الحدث الأكبر لتشاهد الأحف وهو يتداعى كبناء قديم بلا أساس!!!

أمسك بتلابيب أبي طرف

- اسمع.. أنت من سيفعل ما آمرك به...

فأمسك أبوطرف يده..

- اهدأ، إن الانفعال يزيد المشاكل.

لم يكد ينطق بها حين وقعت عينه على سعاد التي أسرعت إلى بيت الأحف حتى أمسك الأحف بها حين ضاق بها ركن غرفته، بعد أن دفعها نحوه، وقال بصوت يذبحه الحزن والجنون:

- أنتِ أيتها العاهرة.. أنتِ سبب كل المصائب.. لولاكِ لما كان هذا حالي!!

فدفعته محاولة التخلص منه، فانهال عليها الأحف بالضرب قبل أن يخلصها أبو طرف، فصاحت بصوت مبحوح يخالجه البكاء ونظرات عينها تتوعد بالكثير:

- أنت أيها العاجز تضربني.. لن تفلت بفعلتك هذه!!

وغادرت المكان بسرعة فمسك الأحف بأبي طرف وجذبه...

- يجب أن تفعل ما آمرك به، أتفهم؟؟ سوف تعتدي على هالة!!!

قال أبوطرف في استنكار:

- هه؟ أعتدي على هالة!!! بماذا تفكر يا عيضا؟ طبعًا لن أفعل!!!

قال الأحف وعينه الجاحظة تنبئ بإصابته بنوبة قلبية:

- أرجوك.. افعل هذا من أجلي، أليست هذه وظيفتك؟؟؟!!!

أجلسه أبو طرف على مقعد قريب، بينما الأحف تهاوى على نفسه وعينه تبللها الدموع!!

- طبعا ليست وظيفتي.. كانت في زمن سالف على ما نحن عليه الآن، لقد ولّت بلا رجعة!!

فأمسكه أبو طرف قبل أن يسقط على الأرض، وترتخي أعصابه وبصوته المبحوح:

- أرجوك...

- آسف ليس بمقدوري أن أفعل شيئًا.

نظر الأحف له، ونظرات اللوم تعلو وجهه...

- حتى أنت يا أبا طرف تتخلى عنى؟؟!!!!

ليكن.. سوف أثأر لنفسي، وسترى...

***

خلال الفترة الأخيرة وحركة التطور المذهل الذي أصاب مجالات عدة، كانت حركة التبرع بالأعضاء فكرة ثورية قامت في البدايات كنوع من الترف التقني حتى أضحت اليوم شيئًا يوقع عليه المرء مقدمًا عما إذا كان بالإمكان استهلاك أعضائه لإنقاذ أو لإشفاء مريض آخر بعد مماته، وموضوع التبرع لا تشوبه شائبة البيع أو التجارة؛ لأن في هذا إهدار كامل لحقوقية الإنسان لنفسه، حتى إن الدول الناطحة في التقدم تفصل في مسألة التبرع والبيع بالعرض على لجنة يعرض عليها كل من المريض والمتبرع وكل حالة على حدة لتقصي حقيقة الأمر.

لكن أمورًا كهذه تستمد شرعيتها بحسب تقدير التشرعيين لها في كل دولة على حده.

لكن في دول تغفل تشريع مثل هذة العمليات يكون من السهل انتشار تجارة الأعضاء أو حتى إقامة تجارب على بشر متبرعين بأبدانهم لقاء مال محدد، تقوم كبريات شركات الدواء في العالم على رعاية مثل هذه الأعمال، وطبعا في الخفاء، أو تؤسس مراكز للتجارب في البلدان الفقيرة التي يغيب فيها التشريع المناسب لأمر كهذا.

***

- أجرينا ثلاث عشرة تجربة باءت كلها بالفشل، لكن طريق العلاج لم يبدأ حتى...

قالها أحد الأطباء الثلاثة المجتمعين مع شارلي وهو يطالع أوراق نتائج تجاربه، فسأل شارلي الرجل الذي رفع رأسه عن أوراقه:

- لكن بصراحة أنا أتعجب من المكان، أهو مشفى؟؟ أنا أرى أنه أقرب إلى منتجع صحي!!!

فرد الرجل:

- المكان هنا ليس هذا ولا ذاك، الفكرة متوقفة على التجريب وتطوير ما لم يتم بيعه حتى الآن.

هز شارلي برأسه غير متفهم لطبيعة الأمر، فعاود السؤال:

- بصراحة أنا لم أفهم طبيعة العلاج، فأنت تقول (تجارب) اعذر جهلي.. هل أوضحت لي أكثر...

قالها شارلي فنظر الرجل إلى الآخريين سائلًا إياهم أن يعفيه من لإجابة، فأعفاه أكبرهم سنًا بمبادرته للكلام بهدوء:

- هنا سيدي لا يوجد إلا أصحاب الأمراض النادرة أو المستعصية أو الأمراض الشاذة التي لم تخلف وراءها أي أثر وراثي أو سجل مكتوب نستدل به على معلومة تفيدنا في العلاج؛ لذا تقوم شركتنا على تطوير علاجات في طرق مختلفة لعل أن تصيب طريقًا نسلكه في محاربة تلك الأمراض.

نظر شارلي من النافذة الزجاجية العملاقة ليطل على أناس مسترخي الأعصاب على مسبح ينضح بالبخار...

- إذًا أنتم تعملون على ما لم يتم التصريح به بعد!!

نظر الرجلان الآخران لأكبرهما سنًا ليرفع عنهم حرج الإجابة ثانية، فأجاب الرجل بهدوء:

- تمامًا سيد شارلي هل هناك سبيل آخر؟؟؟

فأشار شارلي إلى الأناس المسترخين:

- وهل هؤلاء هم المرضى؟

فرد الرجل ببرود هذه المرة:

- عفوًا سيد شارلي ليس هذا من اختصاصي للإجابة على هذا السؤال.

فبادر آخر بسؤاله بسرعة:

- هل تحب أن ترى السيدة ميولا...؟

وافقه شارلي، فرافقه الطبيب، وعبر ردهات المكان الفسيح أشار الرجل

- هذه هي غرفتها...

كانت ميولا رغم إخبارها بسلبية النتائج إلا أن ملامحها التي غطت القشرة اللحائية جزءاً بالغًا من جبهتها لم تتبدل، ولم تترعج،

كانت ترقد على فراشها، إذ كانت بدأت تفيق لتوّها من حالة خدارها التي تصيبها عادة.

اقترب منها شارلي، لكن غشاوة الخدار لا تزال تغلف عينها التي ذبلت وأرهقها المرض وجلدها الذي يزحف عليه المرض أصبح أزرق شاحبًا يابسًا، لا يحمل نضرة وحمرة الحياة، لكنها قادرة على الحديث.

صافحته فأراد أن يُقبّلها لكنها منعته من الاقتراب منها.

- لا تحاول.. إن لهذا الفطر اللعين رائحة يفرزها كرائحة الجياف!!

فتحاملت عليه أن يعينها على النهوض والجلوس بجوار النافذة المطلة على جنان خضراء تزهر بأوراق الورود والأزهار...

فقال همسًا:

- أخبروني أن العلاج لا يزال في البداية.

أومأت برأسها دون كلمة،فتابع محاولًا مواستها..

- ما من بداية إلا وكانت غير موفقة لكن بعدها تأتى النتائج جيدة.

فهزّت رأسها مجددًا، فأطرق برأسه، فعرف أن محاولاته لا ترفع من معنوياها، فقالت هي بصوت مبحوح:

- تـــخيّل أن العلاج هنا يُنفق عليه ملايين لكن كلها محاولات فاشلة لا تحظى بالنجاح!!

حاول شارلي الرد لكنها تابعت..

- منذ أن حللت بهذا المكان وأنا تتناوب عليّ محاولات لفحص الدم والجلد، لكن بلا جدوى!!

وأشارت من نافذة حجرتها إلى ما خلف الأشجار المزهرة..

- أنا هنا أنفق الملايين وأعاني الهزال والمرض وفقدان الوعي، بينما يستقر بعيدًا أناس بصحة وافرة!!!!!

فواجهها شارلي وقال بسرعة:

- بالمناسبة.. من أولئك الذين يسترخون في سكون وسلام وكأن على رأسهم الطير، أهم مرضى أيضًا؟؟

شبح ابتسامة على وجه ميولا التي قالت:

- مرضى؟ لا يا عزيزي إنهم أولئك من تقوم عليهم تجارب شركات الدواء هنا !

قطب شارلي حاجبيه وقال صائحًا:

- أي تجارب تقام هنا، أحدهم أخبرني بها لكن دون تفصيل.

ردّت ميولا:

- هنا في هذا المكان يتم جمع أكبر قدر من المتطوعين لتجارب شركات الدواء التي تتستر وراء هذا المنتجع الصحي بحجة العلاج علاج أمثالنا ومن على شاكلتنا.

فأشارت يمينًا ويسارًا..

- في الغرفة المجاورة لي يرقد أحدهم، إنه يعاني من تآكل مفاصل العظام بشكل لم يسبق للطب أن قابل حالة مماثلة، وفي الجهة الأخرى يرقد آخر يعاني من التواء أطرافه للداخل، وهو مرض قيل: إنه سبق وتم علاجه، أما ما تراهم مسترخي الأعصاب، وكأن أقدارًا من الماء فوق رؤوسهم هم من يتم استخلاص ما يلزمنا للعلاج!!!!

صاح شارلي:

- آه الآن فهمت، إنها تجارة بالبشر تأخذونهم كقطع غيار! أليس...

قاطعته ميولا صائحة في حنق:

كفاك هراء..أنا لم أعهد منك السذاجة، أتعرف كم أنفقت في يومين فقط لقاء تجارب فاشلة؟ أتعرف كيف يعيش هؤلاء الناس خارج أسوار هذا المنتجع؟؟ إنها فرصة عظيمة لهم وتعاسة لأمثالنا.

ضحك شارلي ساخرًا حتى إن علامات الدهشة باتت على وجه ميولا:

- هذا هو قدرك، أتذكرين حديثك يوم صببت على الخادمة هول عذابك؟ أنا أعرف أنك تتعاملين مع الناس مثل الآلة، لكن ها أنت ذا تنفقين ثروتك على من تعتقدين أنهم دون البشر يرخي أعصابه على نغمات الموسيقى، ويمتع بصره بالخمائل الخضراء وأزهارها من حوله بينما أبخرة الساونا تدلك عضلاته كل هذا من نفقتك الخاصة، في

حين تبقى أنتِ هنا حبيسة غرفتك الكئيبة هذه لا تقوين على مواجهة الناس!!

بادلته ابتسامتها الساخرة..

- ليس الأمر كما تتصور بهذه البساطة؛ فهؤلاء أيضًا يعانون هول التجارب والتحاليل عوضًا عنا وما تراه ما هو إلا فترة راحة بسيطة حتى يرجعوا إلى معامل تجاربهم، هل اتضح الأمر لك الآن؟؟؟

رفع شارلي كتفيه وأشاح بيده في إشارة لمماطلتها

- الحقيقة أن الفكرة تتركز أيضًا في أنك لست من يظن نفسه إله.. أليس الأقدر بكِ أن تعترفي بأن الله قد حل بعذابه عليكِ؟ أليس من الأقدر أن تعرفي أن الله هو من يُقدّر لنا أمورنا؟؟!!!!!!!

ضحكت ميولا ساخرة:

- أنا أُفضل أن أكون وثنية على أن أعتقد في قدرك هذا.. أفضل أن أبقى على حالي، بينما قدرك هذا يعبث بحياة من يؤمنون به، أتعرف أكثر الأمور التي تشوّه صورتك البرّاقة عندي أنك تؤمن بوجود إله يقود هذا العالم البائس!!!!!

اقترب شارلي منها وسدّد نظرات عينه مباشرة لها..

- أعتقد أنه آن الأوان أن تعتقدي بوجود أقدار وصائغها، فما أنت فيه ليس إلا دلالة على عجزك الكامل وعجز من حولك في محو قشرة تافهة عن جلدك الثمين!!

ضحكت ميولا هنا حتى أن ضحكتها تجعدت لها بشرتها..

- بل حان أن تعرف أنت أنك تحيا في خيال خصب من أطياف أفكارك البليدة، أتذكر حين أخبرتك عن السكين العظمية التي بقصري، إنها تأتي على حساب قطيع الأبقار الوحشي فيحيي بشرًا آخرين.. هذا واقع جادلتني أنت فيه بينما أنت ترى من يقومون الآن بإهداء أنفسهم قربانًا لنا لقاء عيشة رغدة ما كانوا سيحظون بها في جنة ربك، أليس آن الأوان أن تعرف بأن لا وجود إلا لقيمة المادة والنفع المتبادل؟؟ أليس ربك إلا خدعة سذاجة؟

حاول شارلي الرد إلا أنها قالت:

- أتعرف يا شارلي حين أخبرتني بحملة التبشير بدينك هنا في هذه البلاد القاحلة تبادر فورًا إلى ذهني أن لا وجود لرب، والدليل أن صاحبك تخلى عن دينه وربه الذي يعبده ويؤمن بوجوده مقابل أن ينتفع بشراكة والدك، أضف إلى كون المعتقدين بالأديان سواء دينك ودينه يصلان إلى نفس الهدف، لكن كل منكما يظن في الآخر الخطأ.

أومأ شارلي برأسه:

- هذا صحيح...

فقاطعته ميولا وهي تحك جلدها برفق شديد..

- أي صحة في الموضوع؟ أن تدفع مالًا لقاء أن تخوض بحملتك هذه إلى أعماق القرى حيث الناس هناك أكلهم الفقر؟؟ أهذا هو الطريق إلى الدين القويم أن يبدأ دربه بالرشوة واستغلال مواقف الناس؟؟؟!!!!

رد شارلي بهدوء وهويرخي أعصابه على مقعده لإظهار نصرته:

- بل إن هذا ليس إلا طريق نخوض من خلال رفع المعاناة عن الناس في بقاع شتى في العالم أنا أؤمن تمامًا بهذا.، ثم إن الرشوة لا تبقى رشوة إلا إذا كان النفع منها ماديًا بيد أنني أدفع بالطريقة التي تناسب أهل البلد وينفع مرادي.

فقالت ميولا:

- حسنًا اذا كنت أنت تؤمن بالدين وربك.. فهل شريكك صديق والدك الآن يؤمن بربه ودينه؟ صدقني ما من شيء إلا النفع وقيمة الأشياء ومقابلها.

أمسك شارلي برأسه وقال متحسرًا:

- حسنًا، لن أجادل؛ فالجدال يزيد الأمر عقمًا، والآن ماذا بعد؟؟؟

لم يكد يكملها حتى أضحت صورة شارلي مشوشة، وغابت ميولا في إغماءة عميقة.

***

لقد مات الإله...ونحن من قتلناه!!!

لم يكن للأحف بد من أن ينتقم، فكره لم ينغلق إلا على كيف أن يقع تحت طائل العيب، وهو المهيب الذي يخشاه الناس.. (نيتشه) قال: إن أكثر ما يصيب الآلهة بالعجز هو عزوف العباد عنها ما داموا لم يستقروا على عروشهم بقوة!!!!

فكيف للأحف أن يحفظ صورته بعد أن تهاون ملكه؟ كيف يسخر منه عباده؟ هل من الممكن أن يحل أحدهم عوضًا عنه يحكم العالم السفلي لأشباه البشر المنحشرين في مدقات العشوائيات؟

ليس هناك ما يشغل باله غير هذه الأفكار التي لم تتبادر قط إلى ذهنه في سابقة جعلت الأمور من حوله تتغير...

رطب ذقنه الحليق، ونمق أطراف شاربه، وهذّب حواف حواجبه، وشعره الأسود الكثيف مشطه، كان يتأنق كمن يسرح إلى عُرسه؛ جلباب نظيف جديد، ورائحة عطر تنبثق منه، ووشاحه الثقيل يلف كتفه، مشى بضع خطوات في الشارع المهجور، أو يكاد، لا ناس ولا سيارات ولا حتى نوافذ تُطل منها العيون على الشارع!!

صعد الأحف بوقار كمن يتعالى على ذاته إلى أستوديو تصوير أبي طرف هذا الأستوديو أو معمل التفريخ أو التبويض الذي يستولد منه فتيات أعماله في البغاء فيه هالة من الأبهة والعظمة التي لا يحتفل بها محتفل إلا على قياصرة الرومان أو ملوك بابل وآشور، المكان تحيطه لقطات لفتيات في أردية تظهرهن عاريات وأخرى بأردية خليجية كان أبوطرف بانتظاره، فحين حل عليه قال الأحف في تشكك أو كمن يلوم نفسه على شيء ما:

- ألا تزال تفكّر في الانتقام يا عيضا؟؟؟

رد الأحف بعد أن أطلق زفيرًا طويلًا دون أن ينظر إليه.

- هجّان هل أنت جاهز؟

نهض أبوطرف، وقال بهدوء:

- أحسب نفسي لن تطيعني على فعل هذا!!

لم يرد الأحف بل ظل جامد الملامح، لا يعرف أمرًا آخر إلا أن يدين هالة بدينه، وهو أن ينكل بها.

نظرات أبي طرف كانت طويلة كالدهر كمن يتوسل إليه أن يرجع عن فعلته، فما الانتقام إلا وكانت نتيجته وخيمة.. لكن في النهاية كان أبو طرف يطرق باب إسماعيل يستأذنه في خطب ما، فخرج إسماعيل معه،كان الأمر بسيطًا ومعقدًا في الوقت ذاته...

فحين حل المغيب أمر الأحف على الجميع أن يبقوا بمنازلهم، وحتى سيارات الأجرة التي تقف على ناصية الطريق أعفاها من الوقوف، وحتى حركة الناس في الشارع كانت معدومة.. أمر غريب أن تقنع

الناس بأمر ليس فيه من المنطق شيء.. أي مسوخ استطاع الأحف القوي أن يستحيل الناس إليها؟ هل هو الدين؟ أم الناس لديها خشوع الآلهة لمن يخرج عن أعراف الناس ويخرج على التقويم السليم وأحكام القانون؟؟؟؟؟

وفي النهاية يبقى إسماعيل مع أبي طرف الذي كان شارد الذهن، يسأل نفسه عن ما سيقع عليه حين يجهز الأحف على ضحيته!!!

شبح في الليل يتحرك ومن خلفه ظل طويل، ظل يرسمه ما تبقى من ضوء الأفق، طرقات الأحف على الباب، لكن لا مجيب، حتى فتحت هالة الباب مترعجةً، فطالعها وجه الأحف، فوقفت تسد ثغرة الباب بجسدها، ترمقه دون كلام، فبادر هو بكلامه:

- هالة أنا أعتذر عما حدث اليوم!!!!

ردّت ببرود:

- إسماعيل ليس موجودًا هنا.

هز كتفه:

- على أي حال ليس لإسماعيل طرف فيما سأقوله تمامًا حين طلبتك منه، هل تذكرين...؟

أحكمت هالة يديها على طرف الباب..

- الآن هل تتركني وسأخبر إسماعيل بزيارتك؟؟

قالتها وحاولت غلق الباب إلا أن الأحف صد الباب برفق، وقال بصوت هاديء:

- حسنًا، سأتركك، لكن هل سامحتيني على فعلتي؟؟؟

ردّت بنفس البرود:

- هلا تركتني الآن!!!

قالتها، فرد هو مودّعًا، فأغلقت الباب دون أعصاب مشدودة أو عروق نافرة، أو عقل مشحون بردود الأفعال.

لكن.. فجأة ركل الأحف الباب الخشبي بقدمه حتى إن هالة سقطت على الأرض، فما كادت أن تلتفت إليه حتى كان قد خلع وشاحه الثقيل وحاول أن يجثم على هالة مكبّلاً، نظرات ذعر ورعب غير مصدقه لما تراه أن الأحف أخرج حيوانه الهمجي وأطلقه عليها، كانت الأفكار لا تتبادر إلى رأسها حين أدركت أنه نجح في تطويق عنقها بوشاحه الخانق، لا فرصة للحراك، ولا حتى فرصة للسعال، نظرات عينه كانت كقرش يهاجم بضرواة، هذه النظرات التي تشعر أن لا حياة فيها...

ثورة الثأر تفور بعروق الأحف، إنه الآن يشعر أن الجميع تحت سطوته:هالة.. سعاد.. أبوطرف، وكل الناس أجمعين تحت إمرته، شعر الآن أن الفخر يأزره، بل شعر أن دقات قلبه صارت أقوى ألف ألف مرة من أي قلب آخر سليم.. أخيرًا انتصر على من كانت تشغل باله، ومن كانت تترفع على أن تكون له زوجة، ها هي الآن فتاة تتوسل العفو، تتوسل الرحمة تستغيث، أنفاسها مكتومة، طيلة عمرها حبيسة طبيعة ازدواج جنسها، حبيسة بين طيات فتاة منبوذة من قوم لا يتعقلون، حبيسة شهوات الآخرين تجاهها.. حتى هذه الثواني التي

دارت في خلد كل منهما لم تأتِ أبدًا فكرة أن تكشف هالة عن حقيقتها...

أين إسماعيل؟؟؟

أين الناس؟؟؟

وكيف للناس أن تغيثها وهم في خزيهم المقيت؟؟؟

هل للخانع المذلول أن يحرك ساكنًا؟؟؟

يد الأحف راحت تتحسس جسد هالة بينما الأخرى تقف على عنقها، ربما كانت هذه فرصة هالة لدفعه وفعلاً حاولت أن تضرب بأطرافها في الهواء عبثًا مرة تلو أخرى حتى شعرت بحرية حركتها، ووجدت نفسها واقفة تفكر أين الهرب؟؟؟

فمواجهته ليست سهلة الأسلم أن تستغيث.. تخرج إلى الشارع الساكت الهاديء الذي لم يكن قط بهذا الشكل، تجري في الشارع، لم تكن تفكر أصلاً في الهرب، أو في المواجهة، لم تكن تعرف أي شيء عليها فعله.. ذهنها مشتت، أعصابها مخدرة لا تقوى على تحريك أعضائها، كمن ضرب جسدها بألف طعنة.. تجري في الشارع بلا هدف، أنفاسها متلاحقة، ترى البيوت كالأشباح تصرخ في وجهها، العيون تتابعها من خلف النوافذ الخشبية ومن خلف الأبواب.. الآذان تسمع صراخ استغاثتها، لكنها تُكذّبه..الطريق أمامها لا نهاية له!!!

صراخها يملأ الفضاء، لكن لا رد...

أوقاع أقدامه خلفها، تعرف أنه خلفها...

تركض.. وهو ويركض!!!!!

تسمع سبابه ولعناته على قلبه المريض...

تسمع صراخه باسمها...

تسمع نداءه لها ووعيده...

وصلت إلى نهاية الشارع على الطرف الآخر من الشارع، كان هناك من يقف تود لو أن تلوّح له، لكنها لم تكد تفكر في هذا حتى كان الأحف قد ضرب مخالبه القاتلة في جسدها الطري؛ فقد طوق ذراعها الأيمن خلف ظهرها، وركل ساقها الثابتة، فسقطت، وسقط عليها!!!!!!

سمع صوت طقطقة كسرات عظام ذراعها بسبب وطأة جسديهما، لكنه واصل كذئب ضارٍ.. فأطلقت صرخة مكتومة لم يسمعها أحد قط بعد أن حبس أنفاسها!!!

ودون إضاءة وصل الأحف إلى فرجها بعد أن نهش ومزق ثيابها، وعراكها معه مستميت لكن قدرته كانت أكبر رغم أنفاسه التي يلتقطها بصعوبة والعرق الذي يغرق جبهته...

لكن فجأة.. توقف حين تبين من تكون أو تبين من يكون!!!!!

قضيبًا ذكوريًا كاملًا.. لم يفهم.. لم يُصدّق، فصاح وعقله يحرقه التفكير بملايين الأسئلة المتضاربة..

- سُحقًا بربك، ما هذا؟؟؟

آلام ذراعها يطوف بعقلها، وتشعر أن نزيفًا قد لوث فرجها!!!

كالأحلام سمعته يصرخ كمن لدغه عقرب، متلفظًا بكلمات لم تفهمها كأنها ترانيم لطرد الشيطان...

جرى الأحف وهو يصيح فيأهل الشارع أن هناك من بينهم جنية أو ابن للشيطان!!

يملأ الدنيا زعيقًا وصراخًا مثل من يطالب بحقه عند الوالي.. جرى يدق الأبواب والحوانيت، يستغيث، يُهرول حتى تتعثر قدماه، فيسقط.. فينهض.. ويسقط أخرى وينهض.. يواصل الجري وكأن خازن النار يفتح باب جهنم المستعرة ويدعوه إليها!!!

دقائق فاصلة كانت منذ أن طرق الأحف باب هالة، وحتى اجتمعت الناس في الشارع تتقصى الحقيقة وتتبادل الأقاويل وتؤول ما حدث...

العقلية الخرافية التي توارثتها الناس تدفع بالأحداث إلى شيء لا يمكن فهمه تمامًا كتصور طفل عن مدينة الملاهي حتى إن استنتاجاتنا لا تساعدنا كيف يفهم الناس طبيعة الأمور أو تسلسل الأحداث...

(هربيرت جورج ويلز) وصف في كتابه الموسوم بموجز تاريخ العالم كيف كان الإنسان الروديسي والنياندرتال يشق عليهما فهم وتصور ما يظهر لها من ظواهر الطبيعة، وكيف كان يفسرها تمامًا كطفل صغير تدفعه الأهواء والعواطف في أخذه منها مأخذًا لا يتطابق مع ما يأخذه الإنسان الراشد الآن، هذا ينطبق بشكل مماثل على العقلية الخرافية التي تؤثر على ما يدور حول أصحابها؛ فهناك من قال: إن الأحف أيضًا من الخناث، وهناك من قال: إن هالة وأخاها

من نسل جن تزاوج بإنس تمامًا كالأسطورة التي سُطرت في الصعيد...

لكن ما يُضاف إلى العقلية الخرافية أنها تمتزج بالعناصر الهاوية غير الأصيلة وتكون منها أصولًا وحقائق تخالف الواقع.. فكم شعرت الناس بالحنق والغضب الشديد أنهم لم يفطنوا لحقيقة هالة.. فكيف لها أن تندس بين بني البشر كأنها منهم!!!!

وكيف لإسماعيل هذا الدمث أن يكون نسلًا لأم زانية مع عفريت من الجن!!!

وكان من الواجب على هالة أن تجهر بسرها على الناس!!

سعاد لم تُصدّق ما سمعته من أنباء.. أبوطرف تعجب لكون هالة من بني الجن!!!!

الأحف في بيته محموم وحالات من الإغماء تطول عقله، وحين يفيق يصرخ ويصف ما رآه ينطق بعدها لسانه بكلام خرافي لا مثيل له... زيارات كثيرة للرجل، الحكاية رجل الساعة في مخر الشخاخات.. رجل الحدث الذي سقط في هوى الجنية.. الكل أتى ليأخذوا العظة والعبرة ورؤية العقاب ولتزداد الأسطورة ثبوتًا...

ذكر فرويد ذات مرة.. أن الأسطورة ترتبط بالعقل الذي لم تضبطه السلوكيات حتى ولو تلقى من التعليم درجات أعلى من غيره.. صدق الرجل.

فقد أتى إلى الأحف أطباء لم يفهموا كيف لرجل يعاني اضطرابًا مزمنًا في القلب يسقط في حمى قد تأتي عليه، لكنه يهذي طوال الوقت.. ففسّر بعضهم أن هذا أثر مسّ من الجن!!!

- هذا الرجل ممسوس!!!

قالها أحد الأطباء فالتقطت هذه الكلمات سعاد التي تخمرت فكرة ما برأسها..

- مـــمسوس؟؟!

في صباح اليوم التالي أرسلت سعاد إحدى الفتيات لمعرفة أين هالة وأخوها.

لكن لا أثر لا لهالة ولا أخيها.. حتى حاجتاهما التي تم توضيبها لم يغادروا بها، تدافع الناس إلى الغرفة يبحثون عن أي شيء يدل على مكانهما نهشوا حاجتيهما في وحشية واتفقوا في إظهار عدم رحمتهم بهما إذ أضرموا النار في الغرفة الصغيرة لطرد روحهم الشريرة من المكان، هذا ما أوصى به الشيخ سليمان...

هذا المشهد يفسر أمورًا كثيرة تستند إلى العاطفة، فبدلًا من لوم المغتصب وسؤاله عن فعلته، أشاحوا بوجوههم عنه وصبّوا لعنتهم على الضحية المنبوذة...

هنا أحكمت سعاد لعبتها جيدًا.. ويبقى فقط أن تختار وقتها المناسب.

***

مع بيرة كولش الألمانية وقطعة من خبز بولان الفرنسي الفاخر وجبن جودا الهولندي.. هذا هو إفطار ميولا التي اعتادت عليه منذ فترة.. جالسة شاردة تلف رأسها بأشرب أسود وخصلات من شعرها تتدلى على جبينها كإسدال على فطرها الذي ينمو باطراد.. تنتظر

خبر تحليلها الأخير الذي لم تكد تفيق من إغمائها حتى كان طبيبها يجلس أمامها يشرح لها ما انتهت إليه التحاليل والتجارب، فقال الرجل بهدوء متحاشيًا أن تقع عينه عليها:

إلى هنا سيدة ميولا لن نستمر كثيراً في أبحاثنا وتحليل دمك بشكل تقليدي؛ فقد أظهرت التجارب على مختلف الناس هنا أن ما من أحد تتطابق صفته مع مركب فلوسول دي ايه وبالتالي سوف نستدعي كل العناصر المتاحة حتى نتمكن من أن ننتخب أفضل النوعيات التي يمكن أن تتناسب وحالتك هذه...

ردت ميولا ببرود..

- وهل من الممكن أن نحصل على هذه العناصر؟ أقصد في القريب العاجل؟؟

تردّد الرجل برهة من الزمن قبل أن يغمض عينه للحظة قبل أن يقول:

- يجب أن تعرفي سيدتي أن كلمة (عناصر) التي تتبع هنا في الحديث نقصد بها المتبرعين أو المتطوعين، لكن كما ترى من حولك فهؤلاء ليسوا بمتبرعين ولا هنا طواعية بل لقاء حياة رغدة، وبما أن الحالات التي ترد إلينا غالبًا لا تكون صالحة لا في المواصفات، ولا في الشروط فيجب أن تعلمي سيدتي..

وتوقف قليلًا قبل أن يستطرد...

- يـــجب أن تعلمي أن نسبة توافق دم العنصر قد تصل نسبتها 1 إلى مليون وهذا الأمر صعب العثور عليه في محيط البشر المتواجدين هنا...

غمغمت ميولا في ذهول :

- 1 إلى مليون!!!!

فتابع الرجل في سرعة محاولا تدارك ما ألقاه من مفاجأة.

- نعم هذه الحقيقة تبدو مؤلمة، لكن ليست هذه آخر الحلول، ثم إن الوافدين إلى هذا المكان كُثر والتجارب لاتتوقف...

لم ترد ميولا بينما أكمل هو..

- يجب أن تحمدي الله سيدة ميولا فلولا هذا المختبر لما كان لنا أن نفكر في أمر كهذا في أي بقعة أخرى من العالم...

ردّت ميولا هنا وقد أفاقت فجأة، وقالت بغضب محموم:

- أحمد الله!!! حسنًا...هلا تركتني الآن؟؟

غادرها الرجل دون أن يعرف سبب غضبها، فتمتمت في غضب...

- سحقًا على المتدينين!!

بعد أن فرغت من طعامها، أخذت تتجوّل في المصح وخمائله الخضراء وفي حدائقه وزهوره اليانعة.. واجمة تفكر مليا فيما ستؤول إليه الأمور.. بعدها أخذت تتجول وتخطو نحو معامل التجارب بجدارها الباردة وممرضاته الهادئات الرتيبات، ومرّت على جدار طويل عملاق ينتصف جزؤه العلوي بزجاج سميك لتطل على اثنى عشر فراشًا ممددًا عليها رجال ونساء تتصل بهم أنابيب وخراطيم وشاشات عرض للبيانات، تطلّعت في شغف وفضول...

هذه أول مرة منذ أن أتت إلى هنا وهي لم ترَ هذه الصورة للعناصر التي يستشفي الناس بها هنا.. وهذه هي أول مرة ترى الوجه الآخر للجانب المظلم للعناصر التي تلهو حول المسبح وتتذوق الطعام بتلذذ ويمرحون دون معاناة أومشقة أو أن يحسبوا حسابًا لشيء، فهم يسرحون هنا وهناك كالأنعام!! لم تشرد كثيرًا إذ أطرق أحدهم بيده على الزجاج برفق لتنبيهها، فقال الرجل بإنجليزية جادة:

- معذرة سيدتي الوقوف هنا ممنوع.

نظرت له ميولا بغير اكتراث:

- هل تُحدّثني؟

كرّر الرجل العبارة بنفس الطريقة فعرفت أنه ليس إلا حارس الأمن وهذه العبارة لا ينطق إلا غيرها.. فلم ترد ولم تهتم.. وظلّت واقفة تتابع ما يحدث!!

بعد فترة دخل ممرضون يفكون أولًا ما يرتبط بالراقدين من أسلاك وخراطيم ويرفعون أجسادهم المرتخية إلى أسرة متحركة في إهمال ودون اهتمام الواحد تلو الآخر إلا أن أحد الأطباء المعنيين تنحنح بجوار ميولا، فاستدارت لتجد حارس الأمن وهذا الطبيب الذي قال بلطف:

- معذرة سيدة ميولا لا يجوز الإطلاع على مثل هذه الأمور.. هل لك أن تغادري الآن.

ردّت ميولا وهي تشير إلى العناصر الغائبة وكأن الرجل لم يطلب منها الرحيل:

- إلى أين يذهبون بهم؟؟؟ وماذا تفعلون بهم؟؟؟

رد الرجل بهدوء:

- ليس هذا من اختصاص أحد إلا صاحب الشأن سيدتي!!

ردّت ميولا متعجبة:

- صاحب الشأن؟؟؟ أي شأن؟؟؟

لم تنتظر لتسمع الرد بل غادرت مباشرة، ورأسها يحمل علامات استفهام بلا جواب.. نعم في قرارة نفسها تعرف أن هؤلاء البشر هنا لخدمتها جميعاً: أطباء.. عناصر.. ممرضات، وأجهزة، بل إن المكان كله من أجلها.. لكن لا تعرف على نحو الدقة إلى أي شيء يتم هذا العمل الذي يقومون به...

في المساء رأت الإثنى عشر رجلًا وسيدة مجتمعين تحت أضواء الهوجين الباهرة في قاعة طعام فاخرة يقوم على خدمتهم خدم منمقون ومهندمون، لم تفهم بعد سر احتفاء إدارة المصح بهذه الطائفة دون غيرها بينما الآخرون يعاملون معاملة لا تشبه هذه في أي شيء.. إلا أن الجواب جاء سريعًا..

فقد طلبت ميولا من فريق العمل الذي يقوم على خدمتها من أطباء على الاجتماع في غرفتها..

وحين اجتمع الأربعة سويًا قالت ميولا، و هي تشير باتجاه مبهم:

- صباح اليوم رأيت أناسًا مُخدّرين، وجاء حارس ومعه طبيب يدعواني إلى عدم رؤية ما أراه، وبعدها في المساء رأيتهم في قاعة

الطعام الخاصة بنا ينعمون بوافر الصحة ويعاملون كالنزلاء، هل لكم أن توضحوا لي ماذا يجري؟

نقر أكبرهم سنًا بقلم على سطح طاولة الاجتماع

- الحقيقة سيدة ميولا لولا أني أعرفك شخصيًا وأعرف أنك مالكة لشركات الدواء لما أرهقت نفسي في شرح ما سأقول، إن ما رأيته اليوم فعلًا لا يجوز لكِ أن تراه، الأمور تسير هنا بسرية بالغة، فكل نزيل صاحب علة لا يجوز أن يشاهد عناصره في ساعة إجراء التجارب عليهم، فكل نزيل له سلسة طويلة ومعقدة جدًا من التجارب تُجري بداية عليه، وهو أمر لا يحب أحد منكم الإطلاع عليه.

أشاحت ميولا بيدها في سرعة..

- نعم.. نعم أعرف هذا.. إنما سؤالي هو هذه المعاملة الخاصة وهذه السرية لمَ؟

فأجاب الرجل قبل أن يتردد نظره مع زملائه:

- باختصار؛ لأن ما شهدته اليوم هو النجاح الأول لشخص يعاني نفس ما تعانين، واليوم تحصّل هو على من تتوافق معه صفات المتبرعين أو العناصر التي تقوم عليها التجارب...

صاحت هنا ميولا وتهللت أساريرها..

- حسنًا.. يمكن إذن.. أن يتم نفس الشيء معي..

رد هنا شاب آخر تبدو عليه سمات التفكير العميق:

- إن من يفرح كثيرًا لم يسمع النبأ الرهيب بعد سيدة ميولا.. أولاً عناصر هذا المريض لا يمكن أن يُفرّط فيها؛ لأنها نادرة كما أخبرتك، 1 إلى مليون، هل تذكرين؟ الأمر الثاني أن هذه التجارب فعلًا تمت هنا لكن لا تنسى أن شركاتنا هنا ليست وحدها، بل هناك منافسون يعملون أيضًا في نفس المجال، ومع الأسف هذه الشركة هي المنافس الأقوى لنا.

أطبق الصمت على الاجتماع الذي يضمهم، فقالت ميولا بخفوت:

- إذًا ما الحل؟ سأشترى هذا المركب بأي ثمن..

مط ثالث هنا شفته، وقال بابتئاس:

- هذه ليست المشكلة، وهذا ما فعلناه فعلًا، ولكن لا نملك العناصر التي تتوافق مع حالتك، كل من انضموا إلى سلسلتك تم إقصاؤهم لعدم التكافؤ وهو الأمر الذي لا يمكن أن نعيدهم إليك، وبالتالي يحق للإدارة أن تنتقل بهم إلى مريض آخر ويصبح بحوزته، بالمناسبة هناك ثلاثة أو أربعة منهم كانوا في حوزتك قبلًا..

اعتلى الاستغراب على ميولا!!!

- بحوزته..وبحوزتي؟؟؟ لا أفهم.. ماذا تقصد بالحيازة؟

رد الرجل:

- حسناً.. الحيازة هي حين ينتهي المريض من تعين أي العناصر التي تتلائم مع حالته لا نستقصي العناصر، بل يتم ربطهم بمريضهم في

حالة الحاجة إليهم وبالتالي يتم الإنفاق عليهم من نفقاته الخاصة؛ لأن بساطة حياته تتوقف على حياتهم!!

أكمل أكبرهم معقبًا حين لمح في عين ميولا السؤال مجددًا

- طبعًا سوف تسألين عن كيفية الربط بمريضهم..

وأمسك معصمه وتابع..

- يتم زرع شريحة تعمل على نبضات القلب، توسل إشارات بمكان العنصر وحالته التي عليها، وغالب البيانات التي نحتاجها ولا يمكن نزعها، ويتم وشمه باسم مريضه ورقم سلسته في التجارب التي أجريت عليه...

طال التفكير عقل ميولا..ملامحها..

- إذًا هذا نوع من العبودية !

أشار الرجل إشارة مبهمة حيث قاعة الطعام

- نعم لكن فاخرة جداً.. وتُكلّف الكثير...

***

في تتبُع الأسطورة على مر الأزمنة اللاحقة لا تجدها تختلف كثيرًا عن الأفكار الرائجة في العصور السابقة عليها.. طرد الروح الشريرة من المكان.. تقديم قربان.. تمائم لحراسة الشخص النبيل أو الُمبجّل بين قومه كلها أمور لا تختلف عن التفكير الأول نحو ما يُشكّل مصائرنا أو يصيغ أحداث حياتنا وتصريف أقدارنا...

إلى أن جاء الدين لجعل الحياة أكثر استقامة من تخبطها ولتقويم مصير البشر، وفي النهاية الدعوة إلى خالق يعبدونه ودين يهتدون به...

وهذا أكثر الأشياء إلحاحًا على فكر الإنسان أن ينتمي لشيء قوي استثنائي، لا مضاهٍ له ولا مضارع، لكن حتى هذا الكلام رغم قناعة فكره وجمال صياغته إلا أنه لا يلقى الرواج المطلوب؛ فحين نجد من يؤمن بأن الله قد أوجد الحسد والحاسدين فهذا شرك.. شرك بين أكيد، فحين تسند إلى قوة أخرى غير قدرة الله عز وجل في تصريف أمورك فهذا شرك لا جدال فيه، وحين تتكلم أن فلانًا له قدرة على إنجاب قرد من رحم عجل فهذا شرك، الغريب أن أولئك هم في الأصل من أنصار الدين، لكنهم يُشركون بربهم عن جهالة !!!

حفل الزار.. ليس هناك أكثر الأعمال همجية، وليس أكثر الأعمال تطرفًا مثل حفلات المجون أو حفلات الزار!!!

هذا الفكر أصيل مع الفكر الإنساني الأول للجماعات التي سكنت أمريكا الشمالية من السكان الأصليين أيقنوا إلى وجود قدرة تفوق قدرة الفرد العادي، وهي لها عليه احترام وتبجيل؛ لأنها تحرك وتسيطر على مجريات شتى في أمور عدة...

فكان يجب أن يقدم القربان إليها.. ليس شاة أو عجل ثور، أو شخصًا منبوذًا، أو مكروهًا، بل فرد يهابه الجميع يعتلي قيادة قومه، يتم تقديمه كهدية لشيطان الخرافة الذي يسيطر على أفكار الناس.

لكن هذا كان بدافع من الإنسان لكي يتوصل مع ربه خالق حياته ومدبرها.

وحين أعلن الدين وجود خالق وإله الحق جل علاه فوق سبع سموات ويحكم حتى الأراضين السبع ظل هذا الفكر الوثني لصيقًا بالإنسان، وحتى العلم ومستحدثات التعليم لم تزل هذا الفكر الغريب الذي يسيطر على العديدين.

حفل الزار...لا يختلف كثيرًا عن حفلات تتبع أثر عفريت من الجن لخدمة النبيل أوخدمة أحد أفراد الأسر الحاكمة.

حفل الزار لا يختلف عن ما توارثه وكرسه الإنسان الأول واعتبره أحد أهم إنجازاته قبل المبعوثين من عند الله من أول النبيين حتى خاتمهم محمد صلى الله علية وسلم...

وهذا يفسر أن الدين لا يغير في أتباعه كثيرًا مادام أتباعه على جهل، ولم يُهذّب الفكر المدني الحديث من طبائع سلوكهم.

فيذهبون بأمور دينهم إلى أكثر النقاط حرجًا، فيظهر الدين وكأنه لوثنيين أو من الدهريين.

أليس في هذا كله شرك وحنس بالدين؟

***

نار مستعرة تلتف حولها دفوف كي يصبح الجلد المشدود عليها أكثر طربًا حين الدق عليه، النار تتوسط المكان.. غرفة تتسع لأناس من رجال ونساء تلقي النار بظلالها الداكنة على وجوههم الشاخصة، رائحة البخور تزكم الأنوف ودخانها يعبئ فراغ المكان.

هنا يحضر الشيخ سليمان وبصحبته شخص مجذوب يرتدي عباءة بيضاء، طليق اللحية، فما أن توسط المكان وتلى الشيخ آيات من الذكر الحكيم، ومن بعدها ألفاظًا بلغة غريبة كتعويذة أو شفرة لطرق الباب السفلي لملوك الجان.

فقد أرادت سعاد لمخططها النجاح؛ فقد دفعت بالشيخ سليمان أن ينشر بين الناس أن الأحف مطلوب للزواج من ملك الجان!! وما هالة إلا وسيط بين عالم الإنس والجن، فما كان إلا أن (حشكبوت) عملاقًا بحجم بناية كاملة يستقر فوق ظهره لإجباره على مغادرة عالم الإنس!!

قصة صاغتها سعاد أبو سلطان وضفرت أحداثها جيدًا؛ كي تدفع المجذوب الأحف إلى حافة الانتحار.

بدأ الحفل بدق الدفوف وإضرام النار بقوة والطواف بالأحف بعد أن ألبسوه رداء النساء، صخب وجنون، ونار تُلهب الأجواء من حول الرجل الذي يتحرك كمن في كابوس، وفي العرض الذي أخذ شكلًا دائريًا دار بالأحف رجال أشداء وفي عتمة البخور والجو الحار انهالوا عليه بالضرب وحرق أجزاء من جسده يصرخ من الألم لكن الأسوأ لم يأتِ بعد...

اشتدت ضربات الدفوف والشيخ سليمان يرتل القران بآيات قرآنية مقلوبة ويلقي ببخوره على النار التي ازدادت سعيرًا ولهبًا...

سقط الأحف وتشابكت الوجوه أمامه وأظافرهم تنهش جسده، وهم يتناوبون على اغتصابه.. يصرخ.. فيضربونه.. يتألم فيزداد ألمه حين يوجعونه بدفع قضبانهم بعنف!!!

صرخاته تذوب في ضجيج الدفوف.. عيون الناس من حوله تتلذذ بألمه والرجال الأشداء جامدو الملامح بأنصاف أجسادهم العارية فرحين بما أنجزوه في هتك عرضه!!!

قلبه المريض لا يحتمل هذا الجهد الوافد وهذه الحركة المجنونة المتشنجة، العرق يحرق جروحه!!!

ضحكاتها تملأ الدنيا.. سعاد تكاد لا تصدق أن الأحف تكون نهايته ارتداء ثوب امرأة يتناوب عليه الرجال في هتك عرضه!!

دماء وعرق وأنفاس لاهثة وجهد لا يطاق...

فجأة توقفت حركة الرجل بعد أن جحظت عيناه...

حل الوجوم للحظات على وجوه الحاضرين حتى سعاد شعرت للحظات أن هناك شيئًا قد حام وطاف حولها حين سقطت عينها على عين الأحف!!!

فليس الموت هنا عبرة للاعتبار، وإنما تأكيد للعقلية الخرافية بأن هذا هو مصير المرموق النبيل، أو مصير من يحظى بالأهمية، قد يكون فعلاً على الناس أن يكونوا مهمشين مهملين؛ لكي لا يحل عليها الاختيار، وهذا أحد عوامل السيادة بل أهمها على الإطلاق حين تنشر في نفوس الناس أن للوضاعة قيمة وللخنوع فائدة!!!

بعد لحظات الإفاقة...

ضربت الدفوف مجدّدًا وصياح الفرح وإيقاعات السعادة بالزواج السعيد!!!

هنا أدارت سعاد الموقف كربان سفينة فأمرت الرجال بحمل الأحف وكأن شيئًا لم يحدث متظاهرين أنه بينهم يسير كالآخرين، وإلى بيته كانت دفوف الفرح تسبقه وعلى فراشه أرقدته.

- لقد مات إثر جهد زائد، إنه مريض بالقلب، ويعاني تصلب الشرايين منذ أمد!!!

قالها الطبيب في الصباح التالي، والوجوم مصطنع على وجوه سعاد وأبي طرف وصبي العصارة والشيخ سليمان وآخرين...

- ثم هل لأحد أن يُفسّر لي ما سبب هذه السحاجات؟ إنها آثار ضرب واضحة،كمن كان يعتدي عليه.

هنا شرحت سعاد ما كان وكيف كان...

راح الأحف بغير سؤال.. لازوجة.. ولا أبناء.. ولا أقارب!!!

وبات السبب هو ضغط زائد على قلب ضعيف أفقده قدرته على المواصلة، فسقط الرجل قتيلًا.. وهنا نفى هذا الحادث أي مسئولية جنائية، صحيح أن الشكوك حامت حول سعاد؛ لأنها لصيقة به، لكنها أجزمت أنها لم تكن تعرف أبداً بمرض قلبه، بل على العكس كان فتيًا قويًا، وما صدق على كلامها أن ما من أحد من الناس رأى الأحف يشتكي قلبه.

***

لقاء الغرماء...

في هذا الحين كان قد مرت أشهر على العقد الذي دفع بمال البلاد إلى الخارج في حوزة جاك اشكنازكي الذي جاب بالمال في وديان الأفاقين ومنحرفي الضمير أمثال رؤوف داغر وأنصار حزبه الحاكم...

بدأت حركة المال الدائر بين البلاد وعبر الأطلسي تدر أرباحها، رؤوف منتشٍ، وفخور بانتصاره الذي حظي به من جهة الداخل حين أكد أنه رجل البلاد الأول، وفي الخارج عرف أن هناك طرقًا أخرى ليسترد كل ما خسره في فترة الاتجار بالسلاح، رجال الحزب الحاكم دخلوا في صراع تمثيلي حين بدأت المعارضة توجيه أصابع الاتهام إلى رجال الحكومة في قضايا إهدار للمال العام بأرقام وإحصائيات تقل كثيرًا عن المال المدفوع لتأسيس شركة العربية للتسويق العقاري.

جلسة في مجلس الشعب في حلقة تمثيلية أبطالها نائب لحزب معارض وبالمقابلة كان الوزير الذي أخذ يرد على استجوابات

النائب، يصيح ويشيح وبيده رزمة أوراق تقريبًا لا تحمل كلمات، ولا حتى سطورًا!!!!

على الجانب الآخر رغم ما كسبه اشكنازكي من جانب شراكته مع رؤوف وعودته بقوة إلى الظهور على صفحات أنباء العالم إلا أنه خسر شريكه الأساسي، واكتسب غضبه بدلًا من ثقته، فما كان من جاك إلا أن يوضح بعض نقاط وقف عليها قبل هذه الشراكة، فقال، وهو مرتخي الأعصاب ومكنمارا يتوسط مجلسهما:

- بداية سيد إسحاق أنت شريك لا يمكن الانفصال عنه أو المقارنة به.

هذه المقدمة رطبت من الجو المشحون.. فتابع جاك..

- حين حل ابنك بهذه البلاد وأخبرنا أن هناك من يود المشاركة صار الشك في أن يكون هذا ممكنًا وحين اطلاعنا على مسير هذا الرجل المدعو رؤوف وجدنا أنه ليس من الحسن أن يكون شريكًا.

تردّد إسحاق بنظره بين جيفري وجاك فتابع الأخير..

- في الحقيقة أن الدين مقابل الشراكة أمر غير مضمون النتائج؛ فحين ساوم شارلي هذا الرجل على أن يدفع بمده التبشيري في ربوع هذه البلاد أتى الدور عليك لتبت في الأمر بالموافقة أم لا..

فرد إسحاق بسرعة..

- وكان ردّي أن أعمال هذا الرجل لا تحتمل النقاش، والمشاركة أمر ليس في محله لقاء أن ينتشر دين الرب في أرض الجهال والمغتصبين.

فأكمل جاك حديث إسحاق..

- فخسر ابنك مده الديني، أليس كذلك؟؟؟

أومأ الرجل برأسه، فاستطرد جاك..

- هذه النظرة التي أوليتها للموضوع اعذرني سيد إسحاق ضيقة..

وأشار جاك لجيفري:

- جيف.. توصّل إلى أن هذا الرجل بجانب أعماله هذه لديه محفظة سياسية قوية، تخيل أنه كان مُعينًا للأمريكان خلال فترات متقطعة من تجارة السلاح حسبما تأمره الإدارة الأمريكية.. حصل بعدها على تقييم ممتاز في بلاده.

رد إسحاق متهكمًا..

- في بلاده!!! وبماذا يفيد هذا؟؟ أنت تعرف أن أولئك القوم لا يعتبرون للأخلاق اعتبارًا أو للقيم نصابًا

ضحك جيفري قائلاً:

- معذرة جاك سأوضح هذه النقطة للسيد إسحاق، الحقيقة أن هذا ما دفع السيد جاك لشراكة هذا الرجل لن تتخيل سيدي.. تصوّر..

وأشاح جيفري بذراعيه متابعًا..

- هذا الرجل يدفع بمال ليس بماله بل بمال لأصول لشركات وقطاعات صناعية خاسرة في هذه الشركة التي أقامها مع السيد جاك،

بل والغريب أن هناك مباركة له فيما يقوم به من رجال الحزب الحاكم لديهم، كم هو بالغ التأثير هذا التقيم الذي حاز عليه هذا الرجل.

فرد إسحاق مشككًا

- لكن أعتقد أن هذا يفقد من قيمة أسهمنا في السوق، فبالتأكيد رؤوف هذا معروف لدى من يهتمون بشؤون الحروب وتجارها وتجارها سيكون اسمنا لصيقًا لاسمه.

قلّب جاك يده..

- ومَن قال إن هذا الرجل سيكون الممثل الأول على المسرح، ستكون شراكة من طرفي أنا ولن يظهر لا أنت ولا هو، صدّقني الأمر مُربح وسيجني لي المزيد وسيربح الفتى الذهبي مد دينه.

تردّد إسحاق في الرد وغاب في التفكير بعمق، بينما جيفري وجاك ينتظران الرد، فقال الرجل ببطء:

- رغم عدم اقتناعي التام إلا أن الأمر لا يخلو من المخاطرة، وهذا أمر اعتدت عليه منذ زمن أرجو أن نوفق في هذا.

ضحك جاك وربط على كتفه..

- أبشر سيكون كل شيء كما نود، سنملك الدين والمال معًا، رضا النفس ورضا الرب.

وضحك ثلاثتهم...

***

في الجنوب.. رغم الحداثة التي حملها القرن الحادي والعشرين إلا أنه إلى الآن هناك القرى بأكملها لا تستطيع التعرف عليها عن طريق خريطة، ولا تعرف لها عمدة، بل لا تكون مبالغة أن هناك من لا يزالون يعملون كدليل للإرشاد، أهذه مصر الحداثة؟

كان سهلا أن تظهر أعمال شارلي جلية وتأثيرها العظيم؛ فجميع هذه البلاد التي تمتد جنوبًا حتى شمالًا إلى جنوب العاصمة تعاني مرارة الفقر وسوء الحال، وبديهيًا أن تضرب أعمال جمعية ميكاروس الخيرية على أوتار العاطفة في قلوب غير المسلمين، ومن قبلهم المسلمين بأن البشير قد حل عليهم وبيده الخير كله.

هنا الصيف قد حل بسرعة نضجت وجف بياضها.. واستحال صفارها الفاقع إلى برتقالي غامق.

- لكنها لا تزال غير صالحة للأكل.

أمام الأعين المتعجبة كان شارلي ورئيس الإرسالية قد شاهدا قدر الحرارة التي تلفح الوجوه وتشوي الأبدان وتقلي البيض بعد تجربة أجراها أحد الرهبان المبتدئين على سطح صخرة ملساء وتابع الراهب..

- كما ترون فقد كان هذا ولاتزال الشمس لم تنتصف بعد في كبد السماء الأسوء لم يأتِ بعد!!!

كان مكان الإيواء ديرًا قديمًا لطائفة أرمانية هُجر واعتلت معالمه التشويه والطمس، ليس المكان أثريًا أو معلمًا ذا أهمية، بل تم إهماله كباقي الأشياء التي تم إهمالها عن غفلة من المسؤلين.

هنا في هذه البلدة البائسة وبعد فترة قضاها شارلي وإرساليته أعاد للمكان رونقه، وشيّده على أن يكون مكانًا للطائفة البروتستنتية.

هذه هي الزيارة الأولى لشارلي إسحاق الذي جاب الربوع وشاهد اسوداد وجوه الناس والفقر قد أتى على الناس أجمعين.

عند المدخل كان شارلي الذي ارتدى جلبابًا أبيضاً فضفاضًا، وأسدل على رأسه غطاءً أبيض هفهافًا تتطاير أطرافه مع ضربات الرياح الحارة وبرفقته كبير القساوسة في زيه التقليدي...

كانت الفكرة هي ربط العمل في تعمير الدير مقابل الغذاء، وأيضًا تنصير وترسيخ فكرة أن البشير لا يعرف المقامرة، وإنما العمل هنا في سبيل الله وأيضًا في سبيل البشر.

فقد شاهد شارلي أعمال أناس ذوي بشرة سمراء تتعرق جبينهم بما بذلونه من جهد، هذا بجانب فتيات في مقتبل أعمارهن يُلقون عليه البسمة رغم ما شق عليهن في حلب الأبقار التي أودعتها الإرسالية رغم الجو القائظ، إضافة إلى آخرين يتواثبون فوق ألواح خشبية منذ أيام لكبس الجبن الذي أقسموا أن العديدين لم يعرفوا مذاق طعمه قط، وآخرين يصنعون أشهر الأشياء التي عادة ما تشتهر بها الأديرة وهي صناعة البيرة في قدور نحاسية عملاقة تتخمر فيها حبوب الشعير.

وبما أن الجو قائظ لا يساعد كثيرًا على العمل إلا أن شارلي أعجب كثيرًا بصهاريج الماء والكثير من الرهبان والمتنصيرين يعملون يدًا بيد على جلب مائه لكي يرووا بأيدهم حقولًا كانت كالقفور في أراضٍ جافة...

وجال في الفناء الفسيح للدير ليرى الأفران المستعرة نارها كالجحيم لإنضاج الخبز الذي فاحت رائحته وأسالت لعاب الجائعين المنتظرين بفارغ الصبر، وأيضًا حجرات كي الملابس التي تنضح بالبخار الكثيف...

كان عمل جهيد كهذا لا ينتهي إلا في المساء، لكن ما من أحد يتضور جوعًا أو يعاني ألم التشرد فما بذره شارلي في أعمال التنمية التي بدأها في القرى الصغيرة المجاورة حصد نتاجها في نشر دينه الذي أظهره أنه الحق وأن ما من رب سوى من يدعو إليه من خلال تعاليم مسيحيته.

***

مرّت أيام على قتل الأحف على أيدي من كانوا يومًا ما عونًا له.

الغريب أن الأحف لم يمثل الطاغية الظالم فحسب الذي قاد الناس في مخر الشخاخات بالدين والربا وتسهيل الدعارة، بل إن الناس شعرت بخلل وأن الأمور لن تسير على ما يرام؛ فقد أدمن الناس على التعامل بالقرض لتسهيل متطلبات حياتهم ،وبات فكر الأحف يسري مجرى الدم في عقول الناس كمخدر يمحوأ ثر المنطق منه، فكان ظهور شخص آخر يحل محل الأحف من الأمور التي تدعو إليها الناس تمامًا كمن أدمن وانقطع عن التعاطي، فتكون أول جرعة بعد العودة كإكسير الحياة!!!

إلى هنا تستقر الأمور نوعًا ما، كل من شاركوا في ليلة الزار تعهدوا بكتمان ما يحملون من سر وإلا...

حتى الشيخ سليمان سافر إلى بلاده حتى يهدأ الأمر وحمدان النخاس بقي بعيدًا عن المنطقة رغم وفرة الحصاد بها والطلبات تلح عليه...

حتى طارق ظل بعيدًا عن سعاد بقدر الإمكان.. زوج سعاد ظل غير مستوعب كيف أن الأحف قد سقط في حفل زار ميتًا وقد قرر الابتعاد عنها خصوصًا أن أمر معاشرتها للأحف فاحت رائحته كجيفة الميتة، وبات على كل لسان...

بقي هنا أبو طرف في المشهد الأخير، بلا مرجع يسترشد به، ولا أنيس لجلسات الدخان المكتوم، لكن لا يعني أنه لا يمثل خطرًا أو يشكل تهديدًا، بل هو حاضر دومًا في ذهن كل من استدانوا من الأحف على أنه رسوله وملاك عذابهم.

سعاد أيضًا تعرف خطورته جيدًا؛ لذا بقيت على أن تمتص سمه فكان هذا أول لقاء بينهما منذ فترة طويلة...

كان الميعاد بعد المغيب، ومحل اللقاء هو أستوديو التصوير الذي بات يعج بالفتيات مجدّدًا بعد أن غابت سعاد عن مد العون لهن، أو بعد أن انقضى العمل الأساسي منهن وهو الابتعاد عن مملكة الأحف، حتى إنها التقت مع الفتاة التي أغرتها بالعمل معها حين ألقت بنظرة ساخرة على سعاد التي كانت على غير عادتها حين قالت الفتاة:

- الحقيقة ليتني ما تعاملت معك، لكن أيضًا هذا لم يفقدني الكثير، فبين الأحف وسعاد أبو سلطان كمثل كلاّبات العقرب وإبرته في مؤخرة ذيله!!

ردّت سعاد بنفس التهكم:

- لو أن الإنسان يصبو أمامه، وينظر كيف تجري الأمور، لعرفت أنك ومَن على شاكلتك سيلعبون قريبًا في ملعبي، أحب أن أراك قريبًا.

قالتها، فحضر أبو طرف وأعطى للفتاة ورقة بها عنوان حين قال بعناية، وهوينظر إلى سعاد بنظرات ذات معنى..

- هذه المرة الزبون أجنبي يعشق الممتلئات أصحاب البشرة الداكنة والشعر الأسود مثلك، وقد اختارك أنت دون الأخريات، لا تحاولي سبه إذا أغضبك فهو يعرف العربية رغم قلة حديثه بها، حين تنتهي لا داعي أن أُذكرك أنه دفع ثلاثة أرباع المبلغ لي أما الباقي وما تجود به يداه فحلال لكِ.

مصمصت الفتاة شفتها وردّت وهي تطلع على الورقة..

- ثلاثة أرباع المبلغ!!! زمن أغبر أن تتولى أنت العمل، الله يرحم أيام المعلم عيضا!!

سحب أبو طرف نفسًا عميقًا وتجمّدت ملامحه حين فكر أن يحطم وجهها حين كور قبضته، وقال ضاغطًا على حروف كلماته:

- لولا ما أنت ذاهبة إليه لحطمت وجهك، ما كنتِ تحلمين بربع ما تتقاضين الآن أيتها العاهرة!!!

ضحكت برقاعة قبل أن تقول:

- لم ولن تفعل فأنا من يأتي إليك بالذهب، أليس كذلك؟

قالتها وولت تاركةإياه مع سعاد التي دار الحديث أمامها وحللت واستنتجت عدم قدرته على إدارة الأمور كما كان أيام الأحف، فما كانت واحدة تجرؤ على الحديث، حتى ولو لم تحصل على شيء أصلًا!!!

انشغل أبوطرف بجدول باقي الفتيات المرسوم في كشكول أحمر كبير، بينما سعاد تراقبه وتتفرس في ملامحه لتتأكد من أن الدور أكبر من أن يقوده بمفرده، إضافة لتتأكد أن عرضها عليه سيأتي بثماره لكن المدخل إلى الحديث يعد من أهم النقاط؛ فأبو طرف يعي جيدًا أن سعاد باتت بلا سند لها فلا وجود للأحف وأعماله أصبحت نسيًا منسيًا؛ لذا فهو يعرف أن كعبه أعلى منها، لكن يعرف أيضًا أنها لم تفرغ سمها بعد...

أما هي فتعرف أن أبا طرف كرُفات الأحف يجب أن يخفى أيضًا، لكن الأمر هنا بات مستحيلًا، إذًا يبقى اتجاه واحد إما احتواؤه وتدير هي الأمور كما تشاء، وإما أن تبقى في كنفه كسابق عهدها مع الأحف، لكنها كم تكره هذا الدور الثانوي...

لذا هنا الكلمات الآتية يتوقف عليها دوران العالم...

- أرى أن أعمالك ازدهرت، وقد أجدت اللعبة، وعرفت كيف ترتقي بين أصحاب المهنة.

ابتسم دون أن يرفع عينه عن كشكوله حين قال:

- هل تتذكرين الأحف؟ حين قال: إنها عادة، وليست مهنة تمتهن، لقد صدق رحمه الله!!

هنا وجدت سعاد طرف الحديث المناسب حين قالت مباشرة، ودون أي تعابير على وجهها:

- أرى أن أنسب شيء هو الحديث عن المستقبل بخلفية الماضي...

لم يفهم أبوطرف هذه العبارة إلا أن أكملت سعاد موضحة..

- اسمع يا أبا طرف، في الماضي حين أتيت إلى هذا المكان القذر الموبوء كنت لا أعرف أحدًا سوى زوجي والأحف، وأنا تعلّمت بعدها منك كل شيء عن أعمال الربا، وتحصيل المال، إضافة إلى أعمال الدعارة.. هل تذكر؟؟ لكن ما مضى لا يمكن إنكاره أو مسحه من الذاكرة؛ لذا أعتقد أن علينا أن نستمر...

لم يتحدث أبو طرف بل ظل صامتًا ينتظر المزيد فتابعت سعاد..

- لكن لكي نستمر علينا أن نوحد أعمالنا، ويجب أن نستعيد الثقة القديمة كاثنين يعملان كفريق واحد وعلى إصابة هدف واحد، إذا وافقت سوف أشرح لك كيف يكون الأمر وإذا رفضت لا أعتقد أنك لن تخطو خطوة إلا وتعثّرت قدماك، والآن كيف ترى الأمر؟

ظل أبو طرف متكئًا على مرفقه فوق سطح مكتبه ينظر إلى سعاد طويلاً بلا إجابة حتى إنها أشاحت بيدها في وجهه، فضحك وحك ذقنه بيده قبل أن يقول:

- حقيقة أنا لا أعرف من أين أبدأ وإلى أي شيء أنتهي ،قبل وفاة الأحف – رحمه الله – كنت أنت تعملين مع النخاس الذي أهدر بنات المخر في زيجات مجحفة غير متكافئة!!

نظرت سعاد لأبي طرف بتعجب كأنه رجل صالح يكافح الجريمة بالموعظة الحسنة.. فتابع...

- وأنا أيضًا أعرف أنكِ من أخذت فتياتي، ومن بينهم من غادرت منذ دقائق، هذا الأمر لا يخفى علي وأعرف أيضًا أنك من أطاح بهالة وأخيها حين أو عزت للأحف بأن يقايض طارق الحناوي بأن يطرد هالة وأخيها مقابل ألا يدفع ما عليه من دين، أنا أيضًا لا أنكر عليك عقلك الماكر!!!!

حك جبهته كمن يتذكر شيئًا ما، وتابع، وعينه على سعاد التي تجمّدت ملامحها حين استطرد

- فعلاً ما كان الأحف يستطيع الاستغناء عنك، وما كان ليفكر بدونك، وما صدق كلامي عنك وعن أعمالك؛ فقد كنت عقله المدبر، لكن...

توقف هنا عن الكلام حين اقتربت منه سعاد، والتصقت به محاولة مداعبته

- أفهم أنك تود العمل معي...

أزاحها أبوطرف برفق، وقال مبتسمًا:

- لا تحاولي معي، فهذا ما أهلك الأحف...

رفعت حاجبيها مبدية عفويتها الزائفة، فتجاوزها أبو طرف، ولم يرفع عينه عنها، ثم جلس على أريكة مقابلة للمكتب، بينما هي واقفة تنتظر أن تسمع ما يدور برأسه حين قال:

- اسمعي يا سعاد سوف أبرم معك صفقة، إذا أردت أن نبقى سويًا سوف أحتفظ بنصيب النصف عن عمليات الزواج التي سيتمها صديقك النخاس هذا دون شرط، ما رأيك؟؟؟

قطبت سعاد حاجبها..

- رأيي في ماذا؟؟

ثم تابعت قائلة:

- إن ما تطلبه ليس من شأني، ثم ما أنا ألا مُسهلة للأمر ليس إلا.

غمز أبوطرف بعينه

- لكن بدون شك لك تأثير عليه حاولي إقناعه.

أشاحت بوجهها

- وإذا رفض؟

نهض أبو طرف وواجهها مباشرة:

- حينها لن تكون سعاد أبو سلطان، ووقتها لن تعملي معي، أعرف أن الأمر ليس سهلًا، لكن الأمر يستحق المحاولة...

نظرت له سعاد

- وماذا إذا أنا رفضت؟؟؟

رد أبو طرف وهو يجمع بعض صور لفتياته من فوق سطح مكتبه.

- بديهي سوف تخسرين الناضج من الفتيات؛ لأن من لن تتزوج ستقف أمام عدسة كاميراتي بالتأكيد والخيار بيدك...

تردّدت نظراتها ودار عقلها كالمحرك الرحوي الدوار يجوب هنا وهناك، لإيجاد مخرج مناسب، وقالت بشرود كما كانت حين دخلت إلى الأستوديو...

- وهو كذلك، لنرى ماذا يمكننا فعله...

***

خلال الفترة التي تلت انعقاد الشراكة بين جاك اشكنازكي ورؤوف داغر أثمرت عن أرباح استعاض بها الأخير ما خسره من مال عن مصنع أسلحته، بل إنها فاقت ما كان يتوقعه هذا الأمر أسعده كثيرًا، لكن الأهم أن الأمر أسعد رجال الحزب الحاكم وأنصاره في عمليته هذه وأكدوا على توالي العمليات من بيع وشراء في سوق لاتنضب كتيار من الأمواج لا يهدأ، هذا ما استدعاه لقيام حفل عن ناتج الأرباح التي أحصاها الرجل في أزمنة قياسية، في حين عاد اشكنازكي تسطع ملامح وجه على وهج أضواء الكاميرات لواجهات الصحف والمجلات واسمه تعنون به أخبار المال والاقتصاد، لكن ظل إسحاق ومكنمارا يراقبان عن كثب كيف ستسير الأمور أن سقط الفارس من فوق صهوة جواده...

كان الحفل يجمع اشكنازكي ووكيل أعماله في قصر رؤوف المنيف بضواحي القاهرة حفل اعتبره رؤوف تجديد لعهد مع من يسترف ثروة أمة، ويفقد قدرة شعب على التواصل في إنماء فروعه وإخصاب جذوره..

حتى إن عليا وسارة اجتمعتا على مأدبة العشاء التي أعدت بأصناف من لحم الخراف بحليب جوز الهند ولحم الغزال الملفوف برقائق الخبز الألماني، وأصناف فواكه البحر إضافة إلى المُقبّلات من الخمور الحمراء والبيضاء، وشراب الشمبانيا من (دوم برينون) الفرنسي الأفخر في العالم.

في العادة يعتلي المضيف قمة الطاولة حسب الضيافة الغربية لكن الأمر مختلف مع رؤوف الذي توسط زوجته وابنته وأمامه كان اشكنازكي ووكيله، كان الحوار الدائر على المائدة قليل وضاحك ومجرد عبارات الإشادة بالزيارة والضيافة من الجانبين، لكن أيضًا الأمر لم يخلُ من نظرات متبادلة بين عليا واشكنازكي، وأيضًا سارة التي التقطت النظرات كمجس كهربائي لكن لم تتعدَ الأمور أبعد من هذا.

في غرفة الضيافة ذات الجدران المنقوشة والمزينة بالوحات لأعمال سريالية كان الجميع حاضرًا حتى إن اشكنازكي ووكيله اندهشا لتواجد ابنة رؤوف بينهم خصوصًا أن الجميع يتحدث عن أمور بالتأكيد لا تعي لها أولاً تعنيها علاوة على كؤوس الشمبانيا التي تتداول بين أيدي الجميع، قد يكون دار حوار بسيط بين عليا وجاك ولكن الحديث الأساسي لا يتجاوز غير النقاش عن الأرباح.. بعد حفل سامر تفرق الشمل..

في البيت عادت عليا إلى السيطرة على الأجواء واستعادت ما أفقدته لها سارة، فراش زوجها، وأمام المرآة توضب عليا شعرها، وتزيد من بهرجتها وإثارتها بعطرها الفواح المُسكر!!!

جاورته الفراش ولم تنسَ أن تزكي حائط النار بمزيد من النار.

- أرأيت كيف أتت سارة بكأس الشراب أمامِ شريكك؟ مثل هذه الأمور لا تفوت فقد أشار إلى هذا الأمر.

- ابتسم رؤوف..

- أرى أنك قد أصبت شيئًا جديدًا اليوم مع جاك..أليس كذلك؟

- فيمَ كان حديثكما؟

مطّت عليا شفتها قبل أن تقول:

- لا شيء يُذكر لكنه كان مندهش لجرأة ابنتك الفاسدة.

نظر لها رؤوف قبل أن يقول بهدوء:

- أنا لا أبالي كثيرًا بما قد يلاحظه الرجل على ابنتي ما دامت الأمور لم تتخطَ المعقول، حتى حديثك معه لا يثيرني كرجل أخطرت المدنية والتحرر من القيود.

قاطعته عليا بحدة.

- رؤوف! ماذا تقول ألا تغار عليَّ؟

ضحك رؤوف وهو يستعد للنوم.

- بالتأكيد يا ملاكي!! لكن لست أنت من تقولين هذا، فأنتِ للمرة الثالثة تترأسين نادي يتبادل أعضاؤه أزواجهن! بل وتروّجين لزواج المحارم والانتخابات قادمة، ولا أعتقد أنه من الحميد أن يسمع أحد عنك هذا التعنت والتحجر في التفكير،أليس كذلك؟

نظرت له ولم تعلق...

في النزل الذي يقيم فية جاك ووكيله قال الأول للآخر.

كم هي مثمرة حياة الأثرياء هنا، فلا رقابة، ولا مُساءلة، ولا دعاوى قضائية، تخيّل أي من الأشياء التي يقوم بها أولئك القوم قانونية أو صحيحة!! كم أحب الجشعين والمغفلين...

ضحك الرجل وقال معلقًا:

- لكن أكثر ما يثير دهشتي هو الدعم الذي يحظى به هذا المحظوظ داغر أنه يتصرف باستثنائية لم أرَ مثيلها، حتى أسرته الصغيرة تبدو غريبة ومرتبكة...

أجابه اشكنازكي الذي تسلم مفتاح غرفته..

- لا تتعجب هذا حال الناس هنا.. إنهم يتصرفون تمامًا كآلهة الإغريق.. بيد أحدهم النماء والآخر ماء السماء وآخر قوة النار...

ثم قالا بصوت واحد..

- ويجمعهم زيوس بقبضته...

فضحكا برقاعة حتى إن بهو الفندق ردد ضحكاتهم، فتابع اشكنازكي..

- أهلاً بك في مرتع الآلهة، كل الأمور هنا تتحكم فيها الأهواء الفردية والعنصر الواحد الكل ينصهر في الواحد رحسب ما يرى وليس العكس ورغم غرابة الجو هنا أرى في هذا صيدًا ثمينًا، ألا توافقني؟

***

ممشى في الجنة...

نشرت الصحف البريطانية مقالات عدة حول حالات التعدي البدني أو الأذى الجسماني والذي يشمل حالات الاعتداء الجنسي على النساء، إن غالبية من تعرّضن إلى حالات من الاغتصاب لم يفصحن بشكل صريح عن حادثة الاعتداء..

وتباينت نتائج الاستطلاعات التي أجرتها الصحف، فمنهن من أخفت الأمر وكأنه لم يكن، ومنهن من أفصحن بشكل أكيد وتوجهن ببلاغ للشرطة كأنهن يبلغن عن جريمة سرقة!!!

لكن ما أشارت إليه جميع الصحف على حد سواء هي الحالة التي تعتري كل من تعرض لحادثة اعتداء، ولم يفصح عنها، وكم هي الآثار المحطمة التي تعصف بحياته وآثارها التي تترسخ في المجتمع كأول مؤثر في الضحية وأول مستقبل لعواقبها الوخيمة...

هنا في منتجع **life is live** لا يعد المكان أكثر من محرقة للموتى بالنسبة لهالة عبد العظيم...

كانت إجاباتها عن السحاجات والخدوش التي غطت أجزاء من جسدها وضلعها المشروخ وذراعها المكسور...

إنه حادث سير...

لم تعرف بعد هي وأخوها المرافق لها أي المهام التي ستوكل لهما.. لكن أكثر الأيام إثارة حسبما وصفت هالة هي أيام الاستضافة التي تجولت خلالها في أرجاء المكان لتتعرف إلى أي مكان تنتمي، لكن هذا لم يمنع أن تكون الصورة باسوداد جزارة للآدميين..

ملامح وجهها باتت أكثر جفافًا وقساوة في تعبيرها أوقات شرودها طالت كلما تذكرت تفاصيل الحادث أوكيف سيجري الأمر فيما بعد، إسماعيل نفسه ألمت به آلام الحسرة والندم وهو ينظر إلى شقيقته كركام لحائط كان في يوم ما زاهيَ الألوان أو حطامًا لسفينة كانت تمخر عباب البحار العالية يومًا، لكنه اكتفى أن يرافقها في جميع خطواتها ويبقى حريصًا على خدمتها كنوع من تكفير الذنب وتخطي الإثم...

بعد مرحلة التحليلات التي باشرت عليها عرفت هالة أن حالتها جيدة، وأن إدارة المنتجع استقرت عليها كأحد المتبرعين، لكن أخاها زائد عن الحاجة فما كان إلا طرده إلا أنها عارضت وأشارت إلى أن بقاءها مرهون بوجوده، فلم تتردّد إدارة المنتجع من طردهما سويًا، فحسب ما يحكم المنتجع من قاعدة فلا يجوز بقاء فرد ليس له علاقة بالعمل هنا.

لكن مَن مِنا يعرف قدره؟؟؟

كانت ميولا على وشك الجنون من عدم ملائمة أحد المتبرعين مع حالتها.. حين أتاها طبيبها يسعى..

- سيدتي.. أعتقد أننا وجدنا السمكة التي تحوي بين أحشائها خاتم سليمان..

***

لأول مرة منذ قرابة عام يلتق يشارلي إسحاق مع رؤوف داغر...

كان الجو لا يسمح بالمجاملات كما سبق وفعل داغر مع قدوم شارلي لأول مرة.. هذه المرة داغر متكيء على وسادة اشكنازكي المخملية، ويعرف كم هو قوى الآن، صحيح أن شارلي لم يخبُ نجمه، لكن هنا أصبح هذا اللقاء لقاء أنداد؛ فلأول مرة يأتي شارلي بمطلب ينظر فيه داغر بالموافقة أو بالرفض...

كان محل اللقاء في نادي العاصمة، أجواء الشتاء عادت من جديد تطل برأسها مع نهاية العام الحالي إلا أن شارلي لا زال بثيابه الخريفية ورؤوف الذي ازاذ على هذا بكوفية من الستان للتأنق...

على مائدة الطعام يكون للحديث بُعد آخر، فهي حيلة متّبعة في مثل هذه الأمور وأكثر ما يناسبها من حالات هي حالة العرض أو الاتفاق على شيء.

على مائدة لشخصين كان رؤوف وشارلي يجلسان متقابلان وأطباق الخزف الملون بنقوش عثمانية تحتوي على أطعمة تحتاج إلى تدقيق لمعرفة كوها.. لكن الحديث الهاديء لم ينقطع..

- أرى سيد رؤوف أن أعمالك مع اشكنازكي أثمرت عن ما هو أكثر من الأرباح؛ فقد كسبت جبهتك الداخلية وأيضًا عوّضت ما خسرته..

مضغ رؤوف طعامه قبل أن ترتسم ابتسامة ثقة على شفته..

- صحيح.. لكننا نسير بحذر؛ لأن أي خطأ سيعيدنا إلى ما كنا عليه، والآن كيف تسري أمورك؟؟؟

نظر شارلي طويلاً في طبقه قبل أن يرد..

- الحقيقة أن الأمور تسير بشكل جيد، وأحسب أن هناك أفضل.

وضع رؤوف شوكته وسكينه على حافة الطبق حين أكمل شارلي..

- إلى هذه الساعة كل الأشياء تسري كما ترى، أعمال الخير والنماء تسير بوتيرة متزايدة وهو أمر جيد، لكن دور العبادة هناك تكاد تكون منعدمة، إما هالكة أو قليلة بالنسبة للمسيحين الموجودين؛ لذا أرى أن تؤشر ببناء جمعية خيرية ودور عبادة هناك، وأنا سأكون مموّلها.

شرد رؤوف قليلًا..

- وماذا بعد؟ أقصد ما المقابل؟ فأنت تعلم كم هذا الأمر مثير للمشاكل؛ لذا يجب أن يكون هناك دافع..

قطب شارلي حاجبيه قبل أن يقول..

- أي مقابل؟ أنت تحصل على تأييد جيد جدًا من قبل الجميع سواء بالخارج أو الداخل هذا سياسيًا واقتصاديًا فعائداتك من أرباح العقارات ممتازة حتى إن اشكنازكي أشاد بك...

ضحك رؤوف هنا حتى احمر وجهه، وأثار حفيظة شارلي الذي تماسك حين قال رؤوف:

- هذا صحيح.. صحيح.. بصراحة سيد شارلي إن موضوع الدين لا أكترث له كثيرًا ولا حتى أفهم كم هو هام لدرجة أن تقوم صراعات ونزاعات طائفية كما يحدث الآن.

ثم سكت قليلاً واستطرد..

- أتعرف قديمًا كنت أشتري بأغلى الأثمان أبسط الأشياء!!! لكن لأول مرة أدفع بشيء أغلى من المال لشراء شيء لا يعنيني البتة، بالمناسبة هذه لك.

عبث رؤوف في طيات سترته وأخرج ظرفً وعرضه على شارلي، وقال بهدوء..

- لا تسئ فهمي، أنا لا أقصد الابتزاز، وكنت قريبًا ودون طلبك هذا كنت سأعرض عليك ما عندي من أسرار.. فكر جيدًا في عرضك.

كانت مفاجأة لا تصدق حين فتح شارلي الظرف...

ليجد صور شارلي إسحاق وميولا ترباتوني سويًا بين أوضاع شتى، وفي أماكن عدة، لكن جميعها التُقطت هنا في مصر خاصة في النزل الذي نزلت به ميولا...

أشعل رؤوف سيجارة الباريسي ذا الحلقات الذهبية، وقال وهو يراقب صدمة شارلي:

- في البداية حين أخبرتني أن مشاركتي لوالدك ستكلفني تتبع خطواتي، ومعرفة أدق تفاصيلي خطر ببالي نفس الأمر، وقلت: لماذا لا أبدأ بالمبادرة؟؟ ولا أخفي عليك ما كنت أتوقع ما لقيت..

ميولا ترباتوني.. يا لهول المفاجأة لم يخطر ببالي قط أن تكون أنت على صلة بميولا.. إنها كتلة من الجمال المتوحش والشر في آن واحد مصبوبين في وعاء بشري لتخرج ميولا ترباتوني، أعتقد أنك تُثمن هذه الصور غاليًا، فليس من المعقول الحديث عن بناء دار للعبادة وأنت تمازح الشيطان نفسه، بل وتضاجعه، راجع عقلك ورجح مصلحتك سيد شارلي...

***

شعرت عليا بثقة كبيرة وهي مقبلة على انتخابات ناديها التي تحكمه منذ تسع سنوات، طبعًا تقدر جيدًا ثقل زوجها في دفعها للاحتفاظ بهذا المنصب لسنوات رغم وفود رؤوساء من بلدان عربية، علاوة على أن التصويت في الانتخاب خاص برجال المال والمجتمع من خارج مصر وداخلها، فكان مجرد الترشح للانتخاب لمنصب نادٍ قديم وذي تقليد بهذا الشكل يعبر عن قوة المرشحين، ومدى ارتباطهم بعلاقات جيدة وناجحة.

خصوصا أن مثل هذه الانتخابات تحظى باهتمام الجمعيات الحقوقية حول العالم، والتي باتت تلعب دورًا في نشر فكرة الديمقراطية بضرب أمثال من انتخابات هذه الأندية وحتى الأحزاب المعارضة...

لذا تعرف عليا كم هو هام أن تخطب ود رؤوف هذه الأيام، وهو الأمر الذي لا يخفي على سارة أيضًا...

هنا لا حديث عن عبث ابنته في مفكرة عليا، وأي عودة لها وظهورها من جديد سيحيل الأمر كابوسًا.. حتى هذا اليوم!!

إفطار تقليدي، يجلس رؤوف وتجاوره عليا، وأمامهما سارة التي لم تكل عن محاولتها لإثارة أبيها أوتشويش فكره بعيدًا عن زوجته.

لكن ذهب جهدها سدىً، لكن عقلها لم يحط عن التفكير، عليا وقتها لا يسعها فقط إلا للحضور في النادي باستمرار ورؤوف في غنى عن بيان طريقه الذي يسلكه كل يوم، فكان سؤاله على عجلة..

- موعد تدريب التنس اليوم أليس كذلك؟؟ هل أصحبك إلى النادي أم أترك السائق؟

قاطعته بضجر..

- لا هذا ولا ذاك.. أنا متعبة اليوم...

قالتها، فألقت عليا نظرة أخيرة عليها تحاول أن تخمن فيما تفكر، لكنها لم تبالِ حين غادرت بصحبة زوجها.

حتى إن الانفجار لا يناسب ما تشعر به سارة حيال زوجة أبيها، لا تعرف أي طريق تسلكه لتضرب حصارها من جديد حول أبيها كما كانت قبلاً...

جولة صغيرة في غرفة نومهما قد تفيد، هذا ما خطر بذهن سارة التي جالت هنا وهناك، لكن دون جدوى، عبثت بخزانة ملابس عليا لعلها تعثر على شاردة ما هنا يقودها إلى شيء، لكن النتيجة سلبية!!!

خلف مكتب أبيها جلست تعبث بورقه على غير هوادة، لكن أيضًا لا جدوى، ثم ألقت بنفسها على الفراش تتذكر ما فات من أحداث، وكيف كانت تلعب بوالدها على أوتار عليا كعازف محترف، يسير شريط ذكرياتها إلى أن وصل إلى محاولة عليا الجريئة في إهانتها.. لكن فجأة...

خطر ببالها أن تدير آلة التذكير الآلي بالمواعيد، بالتأكيد عليا لسيت كل مواعيدها تتعلق بالنادي، لربما تواعد أحدهم، أي ثغرة الآن لها ثمنها وبقدر ثمنها فتكون عليا رهن ما ستفضحه سارة من خبر.

قفزت تدير رسائل التذكير عن هذا اليوم كلها، كانت لأبيها ولا شيء آخر عادت بالتاريخ إلى الوراء يومًا آخر لم تجد شيئًا.. عادت.. ثم عادت.. لم تسمع شيئًا غير رسائل تذكير لأبيها ورسائل لها... أغلقت سارة الجهاز والضجر اكتنف وجهها ونهضت تفتح باب الغرفة، وهي تجر أذيال الخيبة وأطفأت مصابيح الغرفة، لكن...

- عليا إنها الثامنة....

هكذا سمعت سارة رسالة تذكير بصوت أبيها لكنها لعليا!!!!

عادت بسرعة إلى الجهاز تسترجع الرسالة لكن لا إضافة أكثر من هذه الجملة...

- اللعنة ما معنى هذا؟؟؟رسالة لا تحوي أكثر من الميعاد وبصوت أبي.. أنا أراهن على هذه الرسالة!!

دار بذهنها أنها الثامنة صباحًا الآن، لكن عليا ليست موجودة، فكيف ستسمع الرسالة؟ ثم بما تذكر هذه الرسالة؟؟؟؟

رسالة ألقت في نفس سارة أملًا جديدًا في العثور على شيء، عادت تبحث بدقة أكبر في ملابسها على أي شيء.. لكن بلا جدوى!!!

- الملعونة لا أثر لشيء..إنها الثامنة ما معنى هذا.. ما معنى هذا؟؟؟

وفي قرارة نفسها عزمت على أن تبدأ مراقبة عليا عند الثامنة هذه الليلة..وكل ليلة...

***

كانت هذه أول حالة خدار تصاب بها هالة وتفيق منها على أصوات موسيقى حالمة..

بدا الأمر كالحلم، لا تعرف بالضبط متى بدأ، وإلى أي شيء سينتهي، كل المؤشرات تؤكد على صحة هالة، وهالة هي العنصر الوحيد الذي تلاءم مع حالة ميولا التي أخذت أولى جرعات دوائها.

كانت هذه هي الزيارة التي يقوم بها شارلي كلما أمكن إلى ميولا.

وجهه شاحب ومزاجه غير متزن لا يقترن بما يتمتع معه،فكره منشغل بما عرضه عليه رؤوف من صور شق جديد،بدا في الصراع الذي يواجهه شارلي من أجل نشر الدين ومساعدة من أحالتهم ظروف الحياة إلى غير البشر!!!

خرجت ميولا بعد تمامها الدافئ لتجد شارلي وقد استغرقه التفكير جاورته، فحياها، وقال وقد حاول إظهار بعض الاهتمام:

- بلغني أنك قد عثرتِ على مبتغاكِ، أرجو أن يكون هذا نهاية المطاف.

قالت ضاحكة:

- بل إن البداية لم تأتِ حتى.. على أي حال إنه أمر مبشر بالخير، لكن قل لي تبدو على غير عادتك!!!

هز شارلي رأسه..

- أبداً...الأمر يتعلق بمشروعي الإنمائي.

قالت باستخفاف:

- أنا حتى الآن لا أفهم ما قدر المكسب العائد عليك من مغامرتك مع الشحاذين وأصحاب أمراض الجدري والمجذوبين، لا أرى فائدة غير المشقة والمخاطرة، إن الأمر لا يسلم من العرضة للمخاطر!!

قال شارلي شاردًا:

- مشكلتي أنني أتاجر مع أناس لا يعرفون للدين قيمة، أمثالك.. تخيلي حين عرضت على الرجل أن أُقيم مركزًا للثقافة يتضمن دور عبادة أشاح لي بهذه..

قالها، وألقى لها ظرف الصور الذي تناولته ميولا وتصفحت ما به من صور...

ردت بلامبالاة:

- أمر عادى أن نكون صيدًا للمصورين، لكن بصراحة صاحبك أجاد اختيار نقطة ضعفك، صور تستحق الاهتمام، لكن حتى نشرها لا يفيد كثيرًا.. فهو لن يخسر ما يكسبه من وراء شراكة اشكنازكي، ولن يخسر ما يكسبه من معونة بلده التي يكتب تقريرها أبوك، فلن يغامر بنشرها.. صدقني إنها مراوغة لكسب الوقت...

أومأ شارلي، وقال بصوت خافت:

- ربما..

ثم طرق يفكر مليًا حين قال:

- ربما فعلًا إنه على أن أتعامل مع من لا دين لهم أو الوازع الخلقي لديهم ضعيف، رغم ما هددني به إلا أني لن أجد أحدًا أفضل منه، فهو لا يعبأ بدين أو شيء من هذا القبيل، كل ما يدفعه لقبول عملي هو شروط مدفوعة الأجل بمال وافر.

قالت ميولا ساخرة:

- هذا ما أقوله دائمًا، إن لا دين إلا المنفعة، وأنا أراهنك على نفاذ مالك مقابل نشر دينك....

هذا (الرؤوف) لن يعمل في خدمتك ما دمت لم تعمل على إنضاج ثروته.. صدقني أنا مشفقة على مالك المهدر هذا.

لم يرد شارلي وهوشارد الذهن.

[طرقات على الباب فأذنت ميولا بصوت عالٍ بالإنجليزية..]

- ادخل.

يدخل أحد أطباء ميولا ويقول بهدوء:

- سيدة ميولا.. هالة عبد العظيم الشخص النادر الذي توافق مع حالتك تقف بالخارج هل أستدعي إياها؟؟؟

أومأت ميولا وانتظر شارلي أن يشاهدها أيضًا، فشارلي يشعر أنه مقيد بمقعد يطوف به في أرجاء عالم من الخيال، دخلت هالة ورهبة تحيط بها، ونظرات عينها لم تتوقف بين شارلي وميولا، بل استقرت على الأخيرة التي جلست وهيبة تطل من وجهها رغم المرض إلا أن عينها الجامدة أعطت شعورًا أقوى مما هي عليه.

كانت التحية العادية هي مفتاح الحديث..حين قالت:

- أنتِ محظوظة..

بينما شارلي كما لوكان يود أن يقول لها:

- أنتِ مخدوعة.. المكان بظاهرة الرحمة، وبباطنة الجحيم، ليتك ما كنتِ هنا!!

فردّت هالة بإنجليزيتها البسيطة:

- أنا هنا في خدمتك سيدة...

ردت ميولا تلحقها باسمها..

- ميولا.. اسمي ميولا ترباتوني، احفظي اسمي جيدًا؛ لأن ما سيربطنا أقوى من مجرد علاقة خادم بمخدومه...

قالتها وكانت محقة.. ونظرات شارلي المشفقة عليها..

- ليتك ما كنت هنا...

- أنا حتى لا أعرف كيف حدث هذا؟؟؟

قالها اشكنازكي بسخط وغضب شديدين.

- إنها خسارة قد تودي بي بلا رجعة.

قالها لمكنمارا الجالس قاطبًا حاجبيه، يتابع الأنباء أمام الشاشة المسطحة، السوق العقاري تهاوى فجأة بلا إنذار كمن ألقى بثقل على هرم من أوراق اللعب!!! بعد أن عجز المقترضون عن سداد فوائد قروضهم!!

بينما تابع اشكنازكي، ووجهه الأبيض احتقن به الدماء من فرط غضبه..

- ما كسبته من الشركاء العرب فقدته في لمح البصر أي حظ عثر هذا؟؟!!!

رد مكنمارا دون أن يرفع عينه عن الشاشة:

- الخسارة ليست كبيرة ولا يزال الوقت باكرًا على الحكم بالفشل.

ظفر اشكنازكي وضرب وجهه بيده..

- لكن الحيطة والحذر واجبان.. على أن أكبح أعمالي لبعض الوقت.

- وهل ستخبر صديقك المصري بهذا؟؟؟

- الغُنم بالغرم.. ما اغتنمه من فرصة الشراكة حان الآن دفع ضريبته...

***

ولى الربا.. وحلت النخاسة..!! أي الأمرين أسوأ؟

في السابق كان الأحف يقود المنطقة كسجان لحفنة من الأشرار!! بقيادة غاشمة وغضب مستطير وردود فعل متشنجة، ولى الآن بلا رجعة، بلا عودة، وحلت النخاسة مع ابتسامات سعاد الساحرة...

بعد أن زالت نقاط الخلاف بقي أبوطرف وسعاد ومعهم حمدان يتنالون مخر الشخاخات كوجبة دسمة وافرة بكل ما يشتهون، ليس بديهيًا أن يرى المرء الخلاص في عيون الهلاك، لكن من الربا إلى الرق ليس الأمر ببعيد..

بعد أن استوت سعاد على عرش المخر يشبه الأمر هنا بالعقد الاجتماعي،عقد ضمني أبرمته الجماهير مع مالك المخر على أن يحسن قيادهم ويتولى شؤون حياهم كيفما يرى على حساب أعراضهم!!! وهل يملكون غيرها؟؟؟

لكن ما ظهر من سعاد جعلها أشد من الأحف، أكثر قساوة، وأكثر جفاوة مع أهالي الفتيات الصغار حتى عاهرات أبي طرف لم يسلمن من سطوة سعاد..

تشعر من خلف سعاد بظروف النازحين المقهورين الناقمين على حياة الحضر، أو تشعر أنها تثأر من ماضيها المشوّه، فتجعل حياة الناس أكثر عارًا وخيبة.. ليست للنخاسة جانب مادي بقدر أن تجعل المخر عاجزًا على أن يظهر كمجتمع سوي...

في أستوديو حمدان كانت عمليات العرض أشبه بمنصات عروض الأزياء.

بشهوة أكثر اندفاعًا كانت تتلذذ ببيع الفتيات، أكثر من تحصيل المال لم تبالِ بقسمة المال مع أبي طرف، بل حتى إنها لم تظهر الثروة التي جنتها رغم عدم وجود من يسألها مالها...

سالفًا كانت تابعة، أمّا الآن فهي متبوعة.. ربما ما تفكر فيه تطرو في الذكاء أو طريقة للتخفي، فالأحف رغم ماله أيضًا كان لا يظهر أمام العامة إلا في صورة صاحب عصّارة قصب!!! هي أيضًا لا تعرف في أي صورة تضع سُورة دنانيرها...!

فأبو طرف له أستوديو تصويره يسهل أعمال البغاء من خلاله أما حمدان فهو بعيد عن أهل المنطقة قد لا يعرفه أحد إلا سعاد الطرف الفاصل الواصل بينهم وبينه، إذن ما الذي عليها فعله؟؟؟

عائدة ذات مساء يطوف بذهنها خواطر عن الماضي وأفكار عن المستقبل الواعد.. مرّت بالمقهى تتذكّر كم عانت في البداية لتحصيل ديون الأحف ومحل الأقشمة الذي بات الآن أكثر ازدهارًا بعد أن أعفي من الديون التي رحل صاحبها بلا عودة...

لا يشعر من يرى سعاد أنها متزوجة، فما لزوجها فيها إلا ما عليه من دين وها قد انقضى الدين، أما العلاقة نفسها فقد تكون أدت واجبها كزوجة مرة أو مرتين على الأكثر بعد رحيل الأحف، فرباط الزوجية قائم لم يقطعه زوجها بالإطلاق، فكانت إعادة المياه إلى مجاريها هام لخطوتها القادمة، فكان لها أن تقف وتدخل إلى من أتت معه إلى البلاد لأول مرة حافية القدمين...

عرجت إلى المحل المفتوح لتجد زوجها جالسًا مع صبيّ عصارة الأحف!!

كانت شكوى الظروف قد دفعت به إلى زوجها ليسأله العون، فبعد الأحف استحالت الحياة ضنكًا...

هذا لم يرق لسعاد، تجهمت واسود وجهها، ألقت التحيه عىى زوجها دون الصبي إلا أنها دعته إلى داخل خزانة المحل، فتقول له بصوت خفيض وبلهجة حادة:

- ما الذي أتى بهذا الرجل هنا؟

رد زوجها بهدوء:

- يسأل العون.

- أي عون يحسب أن دار البر والخيرات أتت بفرع لها هنا؟ إنه أحف آخر لكن ينتظر الفرصة...

قالتها وعينها مثبتة مباشرة على عين زوجها،وتابعت..

- اسمع.. اخرج الآن وأخبره أن يرحل فلا خير فيما كان يظن به خيرًا.

ضاق زوجها من أسلوبها وقال ساخطًا:

- إنه يستغيث بنا نحن أبناء بلد واحد فلمَ لا...؟؟؟؟

- قاطعته سعاد

- حسنا.. أنا أعرف كم أنت لا تجيد مثل هذه الأعمال.. راقب وتعلّم.

لم يستطع مقاومتها.. وخرجت إلى الصبي وهو في أعقابها يتحاشى النظر إليه بانشغاله بترتيب صفوف أقمشته.. نظراتها أكثر تعبيرًا من الكلمات القليلة التي تفوهت بها..

- أعرف أنك تعتقد في العشرة والذكرى الطيبة، لكن أي منهما لا يوجد هنا، فأنا لست ملجأً عند الحاجة وأيضًا لا أهدر مالي بدون طائل.

رد الرجل بتضرع:

- لكن يا ست سعاد ما بيننا لا يُنسى. المعلم الأحف كان دائمًا ما يُذكّرني بك إذا ما ضاقت بي الظروف.

قالت ساخرة:

- حسنًا فلتلجأ إليه.. لكن أنا لا أعتقد أني بمقدوري مساعدتك، صدقني لو أن الأمر بيدي لما تأخرت لكن ظروفي أيضًا لا تسمح لي بهذا العمل الخيري الجليل!!

حاول الرجل أن يرجوها مجددًا:

- يا ست سعاد بعد العصارة لم يعد لي ولأولادي دخل، لكن إذا ساعدتني لن أنكر جميلك هذا ما حييت..

ضحكت سعاد باستخفاف:

- وهل تذكر الذئب جميل الحملان حين أنقذوه من قسوة البرد بفتح بابهم له..! إن الجميل والغفران من أثقل الأحمال على الإنسان.. سريعًا سريعًا ما يسقطهما عن كاهله..كم أنا مشفقة عليكم، كيف تفكرون؟

قالتها وغادر الرجل مُنكسرًا.. وزوجها يطعنها بنظرات العتاب، وهذا أقوى الإيمان!!

***

قبل الانتخابات كانت عليا في حالة مزاجية جيدة ورؤوف لم يعرف بعد بأول خسائر شراكته.

كالعادة كانت وجبة العشاء في تمام السابعة، نزلت عليا درجات السلم، وهي في أوج صورها، عقد من حبات اللؤلؤ وتصفيفة شعرها المتقنة ومكياجها غير المُفرط ولا الهادئ أيضًا، كانت مثيرة تلفت الأنظار ببساطة.. اجتمعت مع سارة ورؤوف على مائدة العشاء وكانت على عجلة في إنهاء وجبتها باكرًا، وهذا ما لاحظته سارة، بينما رؤوف لم يعد يبالي بحروبهما الباردة، هنا قالت سارة بخبث وهي تنظر إلى عليا:

- قل لي يا أبي ما أكثر الأشياء ضررًا بك؟؟

لم يرد رؤوف وتظاهر بانشغاله بطعامه، فكررت سارة السؤال، بينما عليا تتوقع التالي، فقال دون اهتمام..

- لا أفهم ما تقصدينه، الضرر قد يبدأ من بيتي حين تتعرض إحداكن لخطر ما أو شيء يصيب تجارتي بالخسارة، هذا ما أعتبره ضررًا.

قالت سارة باستشفاف..

- أهذا هو الضرر فقط؟؟إذن ماذا عن من يفشي سرك؟؟؟

قطبت عليا حاجبيها حين حك رؤوف مؤخرة رأسه، وقال:

- أنا لا أعرف ما ضرورة سؤالك هذا الآن، هل من شيء؟

فكرت عليا في المغادرة لكن فات الأوان حين قالت سارة وصوبت شوكتها نحوها كأداة اتهام:

- قد ترى الضرر بتجارتك وأيضًا في الخطر المحدق بنا، لكن أكثر الأشياء خطورة هي أن يفشي أحدهم سرك.

نظر رؤوف إلى عليا غير متفهم مقصد ابنته حين تابعت..

- فالسيدة عليا.. التي تتعجّل الرحيل على موعد بعد ساعة مع معالجتها النفسية..

غمغم رؤوف:

- معالجتها النفسية....!

ظلت عليا جامدة متماسكة لم يطرف لها جفن.. فاستطردت سارة

- نعم معالجتها النفسية التي تطلعها على سرك، أقصد سر علاقتنا أنا وأنت، وكم هذا يؤثر على سلوكها كسيدة مجتمع، ألا ترى في هذا ضرر بك؟؟؟

لم يرد رؤوف بل ردت عليا ساخرة:

- يا للروعة..! ابنتك خرجت عن كونها فتاة باغية إلى أحد أفراد الجستابو..

فوجهت عليا كلامها إلى سارة بتحد:

- وهل تملكين إثبات على ما تقولين.. أنا بصحة نفسية جيدة، ولا أحتاج إلى علاج، بل أنتِ..

لم تتقهقر سارة وظلت على جبهتها جامدة وقالت ببساطة:

- حسنًا.. اسألها يا أبي أين ميعادها التالي وسأثبت لك صحة قولي...

أشاح رؤوف بيده

- ما خطبكما؟ ليس هذا وقته..

ثم نظر لعليا بطريقة تعرف معناها جيدًا..

- وإذا صح كلام سارة أنت تعرفين ما ينتظرك، أليس كذلك؟؟

***

بجلباب أبيض غير متكلف وطرحة من قماش رخيص تلف رأسه وتغطي أطرافًا من ظهره عاد شارلي إلى حيث عمله، والصحافة تتابع خطواته والأقلام تكتب عن (رجل النجدة) القادم من السماء هذا التعبير الذي وصفه به أحد الشحاذين وآخر وصفه بأنه عيسى بن مريم.! وآخر تحدث عنه على أنه أحد أنبياء هذا الزمان..! قُرى بالكامل تعترف بجميل شارلي وجمعية ميكا روس التي أعادهًا للحياة!!

ومسؤولو مصر في أكناف مبيتهم نائمون.. يتسرب النمل من بين عيوهم كحبات الرمل بلا مانع!!!

شارلي أدمن العمل، وتابع بجهد جهيد خربات أعاد إعمارها وإسكانها، عمليات التبشير لم تتوقف على النهج الديني..

فمثلما يقول يوهان جون كلفن المصلح الديني الألماني صاحب الثورة الفكرية: إن العلاقة بين الرب والعبد ليست عبادة وصلاة بقدر ما هي عمل الخير وإن الفقراء والمساكين ما هم إلا وسائل لبذل الجهد الذي أقره الرب على الإنسان المؤمن وموطئ امتحانه!!

هذا ما كان يتبادر إلى شارلي كلما صادف من المرضى والجوعى ومحطمي الفؤاد وتسأل عن ما ذنب أن يلقي الله بأولئك دون غيرهم بين براثن فقر لا يقهر وموت لا يرد؟؟؟

بناء الكنائس عاد يظهر كعائق لشارلي ولم يستطع أن يتقدم خطوة واحدة فيه بعد أن هدده رؤوف بما لديه، لكنه على عمله مقدم لا يهاب نشر الخبر...

هنا هالة وأخوها في حالة من البهجة بعد أن نعما برفقة ميولا، ولأول مرة يشعران بالأمن من ضربات الحظ العثر أو الظروف القاهرة.

وشم صغير على رسغ هالة بحرف M باللاتينية يربط الأخيرة بسيدها ميولا ترباتونى بينما ظل إسماعيل ملاكها الحارس..

عبر ممشى من الحصى الملون، تحفه خمائل من الزهور العطرية وأشعة الشمس لم تلقِ بحرارها بعد وعند مسبح ينضح بالبخار ومياهه الكبريتية تجري من روافد صخرية حقيقية جلست ميولا لأول مرة مع هالة، ولأول مرة أمام الجميع لكن بإيشارب حريري من (لانفان) ونظارها من (مون بلان) العائدة لعقد السيتنيات أعطاها مشهدًا أقرب إلى الجريد برجمان اوجريتا جاربو.. داعبت بيدها الماء، بينما هالة تراقبها وكلها هيبة من منظرها غير المهيب!!

كم هي صغيرة هالة وضئيلة جدًا مقارنة بميولا، لكن حاجة ميولا لها تجعل الكفتين متزنتين.. بدا حديث ميولا حين حدثت هالة..

- هل عملتِ قبلًا ياهالة؟

ردّت هالة ونظراها تتحاشى أن تسقط خلف أشارب ميولا..

- نعم سيدتي.. عملت بالمجال السياحي.

لم ترفع ميولا يديها من الماء،وقالت:

- وهل كان يدر عليك مالاً، أقصد دخلك كان جيدًا؟؟؟

- يمكن قول هذا، فكان بإمكاني أن أدخر أيضًا...

هنا قالت ميولا:

- إذًا فما دعوتك إلى هنا؟؟؟

رتبت هالة خصلات شعرها حين ضربها الهواء..

- الحقيقة.. حدث أن حاول أحد النزلاء استمالتي وحين رفضت تم طردي بحجة سرقته..

- آهه.. فهمت حفاظك على شرفك كأنثى أفقدك وظيفتك.. غريب.. اعتقدت أن هذا يحدث فقط أمام كاميرات السنيما.

ردت هالة مبتسمة..

- وفي الحقيقة أيضًا سيدتي

نظرت لها ميولا من فوق إطار نظارتها، وقالت بخبث:

- إن كانت هذه الحقيقة..

صمتت هالة لم تعرف كيف ترد لكن ميولا تابعت..

- أنا لا أقصد أن أُكذّب قولك.. بالمناسبة هل تعرفينني يا هالة؟؟ أقصد هل سمعتِ باسمي قبلًا؟؟؟

قطبت هالة حاجبيها كنوع من التذكر أو إظهار التذكر لشيء لا تعرفه أصلًا، ثم قالت:

- معذرة سيدتي قد تبدو الأسماء...

قاطعتها ميولا بإشاحة يدها..

- هوني عليك.. حسنًا هل تعرفين ما يربطك بي.. أقصد هل تعرفين متطلبات عملك الجديد؟

قالتها ميولا ونهضت وفي أعقابها هالة التي قالت بتردد:

- لا أعرف الكثير.. لكن برفقة سيادتك وطبيعة الإقامة هنا تغنيني عن معرفة طبيعة العمل وعلى أي حال سأعرف لاحقًا..

ضرب الهواء مجددًا شعر هالة فحطّت ميولا يديها على رأسها لترتتب شعرها وتربطه خلف أذنيها.. هذه الحركة فاجأت هالة وقد احمر وجهها خجلًا، فقالت ميولا:

- أنتِ بسيطة جدًا يا هالة.. أعتقد أن من الأفضل ألا تعرف الموجة وجهتها حين ترتطم بالصخور، أليس كذلك..؟

***

الإبداع في قواعد اللعبة...

أربعة وعشرون ساعة استغرقها اشكنازكي الذي زار مصر ليوضح موقف ما حدث من هبوط بأسهم الشراكة التي أبرمها مع رؤوف داغر وشركاه...

كانت خطة اشكنازكي تسير حسبما توقع لها، لكن ما حدث خرج عن توقعاته، لكن لشريكه أن يعرف ما التالي...

زيارة سريعة ببيت رؤوف كانت هامة، ورؤوف على غير عادته متوتر، والأنباء الجديدة أحرجته مع رجال الحزب لكن قدوم اشكنازكي لطف من حرارة الجو، اشكناركى يعرف متى يختار أن يكون ضيفًا ومتى يكون مضيفًا!!

على مكتب رؤوف داغر وحاسوبه الدفتري.. كان يتابع مع اشكنازكي بداية الهبوط غير المسبوق حين قال الأخير:

- الأمر لا ينبيء بخير، علينا أن نتوقف في مد سندات القروض للتمويل العقاري خاصة لأصحاب الدخول المتدنية وأصحاب

المعاشات؛ لأنها خطوة خطيرة أن تستمر في قرض من تعرف عنه عجزه في السداد إلا إذا كانت هبة منك!

حك رؤوف ذقنه..

- ترى أن نتوقف الآن بعد أن بدا موسم الحصاد.

أشار اشكنازكي لمؤشر الأسهم..

- ما كسبناه ليس موسمًا للحصاد، ولكن مرحلة مبدئية قد تعترضها حالات خسارة كما ترى، وأنا أرى أنها إشارة لتجنب خسارة أكبر..

فكر رؤوف مليا قبل أن يقول:

- ألا تعتقد في حل آخر أفضل من بتر الجزء المصاب، أعني أننا لو حجزنا على منازل المتعثّرين ألا يقينا من شر ما سنخسره في حالة توقفنا؟!!!!!

رسم اشكنازكي بيده على ورقة بيضاء ما يفكر فيه..

- لا أعتقد أن يفيدنا هذا بشيء؛ لأننا لو حاولنا إعادة بيع هذه المنازل لن نكون من الرابحين؛ لأن ما من أحد سيبتاعها إلا لكان أصحابها أولى بها.

أومأ رؤوف برأسه.. بينما اشكنازكي وقتها رسم مثلثات ومربعات متداخلة وأشكالًا متقاطعة، لكن بلا معنى، فقال رؤوف:

لكن في حالة توقفنا عن العمل ما قيمة خسارتنا؟

ابتسم اشكنازكي..

- التوقف لا يعني الخسارة، بل ربما المكسب.. مكسب وقت للتفكير ومكسب لما كنت ستخسره إذا استمر بنا الحال هكذا؛ لذلك لا أرى في المراقبة عن كثب خسارة، بل هي أكبر مكسب في الوقت الراهن...

سأل رؤوف:

- وهل عليّ أن أتوقف أنا أيضًا.. أقصد ماذا لو فضّلت الاستمرار؟

مط اشكنازكي شفته..

- في حالات كهذه يتم فصل المال المشترك بيننا ويكون الربح لمن غامر وثابر، لكن صدقني ليست الحماقة من سمات الفرسان...

رد رؤوف بشرود:

- بصراحة أنا لم يعهد أحد مني أن أنسحب لمجرد بوادر خسارة، ثم من يقبض على الأشواك سينعم حتمًا برحيق أزهارها، أليس كذلك؟؟؟

ظل اشكنازكي على لامبالاته..

- برأيي خسارة معركة تجنبك خسارة الحرب؛ لأن وقتها الخسارة لن تحتمل...

في النهاية لك ما ترى...

نظر رؤوف له طويلًا، ولم يعرف على أي قرار يستقر وعينه تتابع مؤشر الأسهم الكابوسي وهو يهوي...

***

بجانب الخسارة.. كانت سارة تُعرّي عليا أمام زوجها وتكشف كيف كانت طوال الفترة الأخيرة تعمل على فضح أسرار زوجها بحجة أنها تتعالج من أثر الفعل الآثم الذي يرتكبه بحق ابنته وإن كانت راغبة ذلك.

في بهو الطابق الثاني كانت سارة تتحدث بطريقة مسرحية أمام أبيها ذي الذهن المضطرب، وزوجته التي أطرقت برأسها لتتحاشى نظراتهما...

- الحقيقة.. ظننت أنها النهاية وأن عملها كرئيسة لنادٍ يتبادل فيه الأزواج زوجاتهم وحفلات أفضل خمرًا وأجمل تصميمًا، شيكولاتة.. لهو بالعمل الذي يستحيل أن أضرب سيطرتي عليه مجددًا، لكن حقيقة فكرت أن هناك من بين هذه الصورة البراقة جانبًا خاسرًا مظلمًا.. لهوت عبثًا في العثور على شيء.. لكن المفاجأة كانت أكبر من صادمة!

وأدارت جهاز التذكير بالمواعيد واستطردت بخبث وكراهية مسيطرين

- اسمع هذا.. رسالة بصوتك تُذكّرها بموعد لها لكن بلا مكان...

نظرت عليا لها بينما رؤوف لا يبدو أنه يتذكر شيئًا، فتابعت وعينها تلمع بزهو..

- هذا بداية خيط العنكبوت الذي نصبته شركًا لها.. والنهاية صيدًا ثمينًا؛ طبيبة تعرف بأدق تفاصيل حياتنا كمن يحيا بيننا، أليست هذه خيانة؟؟؟!!!!

لم يرد رؤوف وظلت عليا تنتظر عقابها!!

فصاحت سارة:

- أبي فيمَ شرودك؟ لقد كشفت لك أن الأعداء ينامون في فراشك كل ليلة، نفّذ وعدك لي.

قال هنا بصوت خافت:

- عليا.. هل فعلًا فعلت ما قالته سارة؟؟ أقصد أنك – فعلًا – تعاودين أحد الأطباء لسرد ما يكتم به صدرك؟؟؟

ردّت عليا وعينها على سارة:

- إذا كانت ابنتك محققة فلتأتِ ببرهانها!!!

ضحكت سارة وقالت باستخفاف:

- قرأت ذات مرة كيف تحكم الفريسة شرك العنكبوت حول عنقها، هاكِ برهاني؟؟!!!

وعلى هاتفها الخلوي مقطعان عرض مختلفان متى دخلت عليا إلى إحدى المباني عبر بوابة حديدية عملاقة ومتى خرجت منها.. وتابعت..

- هناء الخربتلي.. أحد أعضاء ناديها المرموق، طبيبة تسكن وتمارس عملها في هذا البيت!!!

أخذ رؤوف هاتفها يعيد المقطعين عدة مرات، رغم ظلمة الليل وضعف الإضاءة إلا أن ملامح عليا لا يمكن تكذيبها غير أن سارة قد لقطت لوحة أرقام سيارة عليا لتقطع عليها فكرة الطعن في هذين المقطعين.

خطفت عليا الهاتف وأطاحت به ليرتطم بالحائط المقابل، فجلست سارة بحركة مباغتة على حجر أبيها وطوقت ذراعها حوله وقالت:

- الآن يمكنني أن أخبرك أن ما من شيء قد تبكينه الآن...

اذهبي فلا راجع لك!!!

***

خلف طاولة البنك الخشبية.. وعلى مقعد خشبي من الأرابيسك حُفر على مسند رأسه كلمة (الله اكبر) كانت تجلس سعاد تراقب الأحياء من حولها...

محل الأقمشة الخاص بزوجها رأت أنه أنسب مكان لتأخذه ركيزة لأعمالها...

هذا من بين ما اكتسبته من ولي نعمتها وحاضنها السابق عيضا الأحف الذي ارتكز في عصارته، ومحل تجارته ومنها يراقب أحوال أعماله..

كان الأمر بسيطًا أن تستقر سعاد عند زوجها، فكم هو مطمئن الآن أن غالب تصرفاها تحت نظره، هذا أيضًا يخفف من الأقاويل بسوء سلوك زوجته، وإن كان ما من أحد جريء أن يقولها علنا، لكن بين العيون حوار أكثر هدوءًا وأشد قساوة...

هذا أيضًا لا يعني أها تشاركه مالها، فهو لا يعرف من أين لها مالها، ولا أين تكتره، أو تنفقه، لكن هو سعيد بأها تجلس خلف البنك الخشبي تراقب الناس عن كثب كقط قلق لايكل الانتظار.

محل الأقمشة.. هذا أيضًا محل التقاء النساء ومحل إدارة الحوارات التي تفضح بعض الأسرار، مجرد كلمات بسيطة قد تفيد سعاد بشيء...

فتيات البغاء والعاملات عند أستوديو أبي طرف لا يفوّتن الفرصة في المرور على محل حسن زوج سعاد لكسب رضاها، وأيضًا ما يعزز من مكانة هذه التجارة، وأها ليست كاسدة، بل عاملة نابضة!!

قد لا تفعل الشيء الكثير، بل إها لا تعد ماله ولا تحصي ما أراده، ولا تجني ما كسب أو تخسر ما فقد...

رغم هذا شعر الرجل بأهمية زوجته كواحدة تدور نساء المنطقة في فلكها، وأيضًا عرف كم هي في حاجة إليه؛ لأن ما من قاعدة تطلق منها سهامها إلا محل أقمشته.

حل المغيب وحان أذان المغرب واعتلت أصوات الأذان في المسجد الذي كان يومًا ما يرفع شعائر أي صلاة إلا الجمعة إن أجاز به الأحف!!!!!

غادر حسن إلى المسجد وبقت سعاد..

- لا بأس.. الجلوس لساعة أو ساعتين هنا لا يضر، بل ربما من يأتي بجديد..

قطع تيار أفكارها امرأة تسأل الصبي عنها، اقتربت سعاد لتجد امرأة في منتصف عقدها الثالث غطى الفقر على ما تملكه من جمال استشفته سعاد حين رفعت الأخيرة وجهها لتحدث سعاد في ضراعة...

- ست سعاد أنا فاطمة زوجة فراج صبي المعلم الأحف، أرجو ألا ترديني كما فعلت مع زوجي، أنا أسال أن تُساعديني بثمن العودة!!

تعمّقت سعاد بنظرها في تفحص المرأة كأنها تود لو أن تخترقها، فقالت بهدوء:

- أي عودة؟؟؟

ردت المرأة بسرعة..

- لقد ضاق بنا الحال، ولم يعد معنا ما يبقينا هنا، والعودة أصبحت خيارنا الوحيد، هذا بعد أن طلب زوجي منك المساعدة.

قاطعتها سعاد باستنكار وتشنّجت ملامحها:

- زوجك؟؟ ومن قال إني على اختلاط بالرجال؟ أنا لا أساعد إلا النساء!!

تطلّعت لها المرأة كوثن من حجر..

- إذًا ستعطيني مالاً؟؟

ردّت سعاد وهي ترفع يديها اليمنى مشيرة بسبابتها:

- لا.. لن أفعل.. سأعطيك شبكة بدلاً من السمكة!!!!

- أنا لا أفهم.

مسحت سعاد بيديها على وجنة المرأة الخشنة..

- الدرس الأول.: اتّبعيني ولا تخبري أحدًا..اتفقنا...

***

في مقر العالم.. عادت ميولا إلى قصرها المنيف ومعها ضيفتها وإكسير حياتها هالة وأخوها إسماعيل...

حظيت هالة بحصة من الاهتمام دون أدنى معرفة بسيدتها، مظاهر البهجة وملمس النعيم استغرقا على عقل هالة أن تفكر فيما تخبئه سيدتها الجديدة، أو أصل العلاقة القائمة بينهما!!

لأول مرة تنعم هالة بخدمة تفوق ما ينعم به الملوك.. خمسون خادمة هندية يكدّون بلا كلل على خدمتها حتى أنها للحظات تشعر أن الأمر مجرد حلم وردي قريبًا ما ستفيق منه.

في الصباح.. في غرفة ميولا الرهيبة.. جدرانها المصفّحة بالذهب ومبطّنة بورق الحائط من (راش) أحد أكثر المنتجين لأوراق الحائط تفرّدا.. ورق فاخر جدا تمتزج فيه الأقمشة والجلود وحتى دقيق الفلين وطحين القمح في طبع نقوش سيرالية..!!!

تتصاعد أبخرة المياة الدافئة التي امتزجت برائحة الشاي مع الحرنكش والقرفة لتلهب الذاكرة في أجواء دافئة عملت على صناعتها الأضواء الصفراء التي تضيء قاع المسبح الذي يتوسط الغرفة...

على حين كانت هالة مع إحدى خادمتها تعتني بشعرها بعد أن أنهت أخرى تدليك جسدها، بعدها أخذت أخرى تقلم أظافرها

وتطليها بلون لؤلؤي براق.. حتى إن ارتداء ملابسها كان على خادمتها فعله، هنا كانت هالة حريصة على أن لا ينكشف أمر جنسها على الأقل مع خادمتها.

لكن لأول مرة تقريبًا تشعر هالة بمثل هذا الشعور الغريب الذي راودها، فكلما وقع نظرها على ميولا لا تجد ما يكبح فورة ثورتها الجنسية كذكر!!!

لم تصدق أنها قد تضاجع ميولا أو تفترشها تحت فحولتها؛ لأنها أصلاً لم تجرؤ يومًا على الاعتراف بذكرها كعضو، بل إنها لطالما أرادت التخلص منه وبتره!!!!

لكن أيضًا ليس هذا من الحكمة الصائبة أن تلوّح بطرفها لسيدتها حتى لو أن الأخيرة في أمسية ذات مرة قالت بلهجة لم تدرك هالة معناها:

- لا تشعر المرأة بحراكها كأنثى إلا بما يتثنى لها من علاقتها مع رجل، صحيح؟؟؟

هل في هذا تلميح لها بالضوء الأخضر إيذانًا بما يمكن فعله؟؟؟

ثم هل ترى فيها رجلًا.. فهالة ليست إلا حالة كثيرًا ما ارتبكت لو أن أحدًا لوّح لها بأنها ذكر ولو مازحًا.. إلا أن سيدتها تعرف خير معرفة وبتمام التفاصيل كيف هي؟؟ وما حالتها بالضبط؟؟ هذا طبعًا دون ماضيها الأليم...

في صباح باكر كانت الشمس لا تزال وليدة، لم تبدّد بضيائها عتمة الظلام، ولا ما يخلفه الندى من ضباب..كان عرش ميولا وما يحيطه من تماثيل وفسحة المكان بالإضافة إلى القبة السماوية التي تعتليه، كانت الإضاءة القادمة من القناديل تحيل المكان إلى جمرة

صفراء، الخدم نيام وإسماعيل ينعم بملمس وسادته المخملية، بينما ميولا وهالة في أول لقاء حقيقي يكشف بعض التفاصيل عن الماضي الأليم.

ميولا وهي على عرشها المرمري وهالة جليسة دون مستوى سيدها تنظر لها بتعجب حين أومأت برأسها، بعدها قصّت هالة ما جرى لها في سنين حياها مما لاقته من أبيها وما لاقته من أطياف العذاب ممن يودون النيل منها انتهت إلى أنها ودون أن تدري اللحظة التي أدت إلى مضاجعة سيدها!!!

لأول مرة تشعر بالدماء يتدفق إلى ظهرها لينتصب ذكرها، كانت ميولا في حالة من التلذذ بما تفعله هالة ربما راجع إلى عدم خبرة الأخيرة بمثل هذه المسائل، ولربما كانت نظرات هالة تنم عن فطرة لم ترها ميولا في شارلي، أو ربما أنها لأول مرة تضاجع امرأة لها نهدين ناضجين، وشيء آخر مختلف بين فخذيها!!!!

إثارة محمومة.. دون كلمات ودون تعبيرات، أنهت هالة دورها الذكوري، ولم تعرف حتى كيف تتصرف بعدما أفرغت ما لديها!!!

بعدها قالت ميولا بعينيها نصف المفتوحتين:

- أعتقد يا هالة أن هذا اليوم سجّل حدثًا قد يُشكّل مستقبلك، كم أحب أن لا تعرف الموجة وجهتها...

***

لحظات فاصلة.. ويُعلن الفائز هذا بعد تعيين المرشحين.. حبّات العرق تغزو الجبين وراحات اليد والبرودة تعتري الأطراف.. كانت

عليا بلفاتح في كامل لحظات زهوها وخطاب يلقى على مسامع الجالسين فيما جنته من أعمال الخير في إطار رئاستها للنادي، بينما ولى الخطاب أيضًا

إلى المنافسين.. وبعد فرز الأصوات.. تعلن اللجنة النتيجة كالآتى:

زينات الحسيني رئيسًا للنادي!!!

أشرف خضير نائبًا عنها!!!

وبعد مناصب عدة.. عليا بلفاتح مديرة الشئون المالية!!!

في البيت...

- خلفي أناس لا يفوّتون شيئًا، الصغيرة قبل الكبيرة، أدق التفاصيل قد تُحيل حياتي إلى لا شيء...

كم كنت أود أن لا أفعل ما فعلت، لكن فعلتك هذه أدارت الدنيا عكس عقارب الساعة.

قالها رؤوف لعليا التي جلست أمامه مطرقة الرأس على صدرها واضعة يديها على أذنيها رافضة ما تسمعه غير مصدقة واقعها المرير.. حين تابع..

- عليا.. قد لا يعرف الحمار قيمة ما يحمل من أسفار، لكن في النهاية لها وزنها لدى من يهمه الأمر...

نهضت وغادرت الغرفة دون كلام!!

في حمام غرفتها المجاورة لغرفة زوجها بدّلت ثيابها، وعلى صفحة المرآة التي غطتها بطبقة بخار الماء المتصاعد من الصنبور ارتسم وجهها بتفاصيلة المشوّشة، مسحت لتدقق النظر من جديد.. لقد أحست أن ملامحها شاخت وهدلت وذبل وجهها كقطعة من الهلام!!!

غمرت المياه عليا وهي تفكر في التالي ليست هزيمة بقدر ما هو انتصار لعدوّتها الملعونة سارة!!

الآن قد تتجرأ عليها وتحيل ما تبقى لها من أيامها إلى قطران مغلي.

أخذت تداعب خصلات شعرها الندي وتتحس وجهها؛ فهي تشعر أن ألف صفعة قد هوت بلا رحمة على وجهها دفعة واحدة.. مدير الشئون المالية!!!

أي منصب هذا؟ إنه ليس إلا منصب للأعضاء الجدد ما إن يثبتوا كفاءتهم حتى يتم تعينهم في هذا المقام المتواضع وليس لسيدة النادي الأولى!!!

ثم من تكون زينات هذه؟؟؟؟

إنها نائبتها، ما كانت تحلم أن تعتلي هذا المنصب.. أي خطأ ارتكبته؟؟ أهذا هو جزاؤها بعد أن مرّرت الحملة الدعائية لزواج المحارم؟؟

ها هي الآن تجني ثمرة عملها في بيتها، ترى هول هذه العلاقة الآثمة، وفي عملها هوت إلى الحضيض بعد أن كان نجمها يسطع في سماء ناديها كملكة متوجة!!!!

ضربت الماء بيديها.. اكتفت بما تجرعته من مرارة التفكير، وأعلنت أنها لن تقف مستسلمة، نهضت وارتدت ملابسها وعادت إلى حجرة زوجها، لم تجد أحدًا بالغرفة، فتحت البار الصغير الذي تنبعث منه رائحة الصنوبر، حفرت أحرف اسمها واسم زوجها حين أهداه لها في عيد زواجهما..

أخرجت زجاجة من نبيذ (رينجيت) الفاخر وكأس من الكريستال، وعادت إلى حيث كانت.. أمام نافذها جلست وأخذت من شراها، إنها ليست صغيرة حين عاد عقلها إلى التفكير في حل لمأزقها هذا؛ فهي لن تعود إلى النادي على أنها مديرة الشئون المالية.. لن تكون – وهي السيدة الأولى – أبخس من الجميع، ولن تفعل ما يفعله الانهزاميون !!! عليها أن تتوقف وتعيد ترتيب أوراقها...

دقات ساعاها تؤشر إلى الثامنة مساءً.. فعلاً لم تلاحظ هذا كم استغرقني التفكير؟؟؟

نهضت تبحث عنه فعادت إلى غرفة زوجها هنا وجدته غارقًا في كومة أوراق مرجعية لعل فيها منفذًا لضائقته.. أخذت تجول في الغرفة وكأن لا وجود له تبحث.. وتبحث.. لكن لا جدوى!!!

- اللعنة.. أين علبة الدواء؟

دخلت سارة إلى الغرفة،عليا تبحث بغير هدى عن علبة مهدئها.. جلست على الفراش تجاور أباها وهي تتابع عليا.. كانت عليا تتعمد النظر إلى عين سارة، وكأنها تود أن تخبرها بأنها ليست الضحية، وأنها ليست الصياد الذي تهابه! لكن علبة مهدئها لم تجدها!!! هنا قالت سارة برعونة:

- بالمناسبة سيدة عليا آسف على نسياني بتهنئتك على فوزك في انتخابات النادي، أرى أنك أهل لهذا المنصب، أليس كذلك يا أبي؟؟؟

أشاح رؤوف بيده في إشارة إلى عدم مشاركته الحوار، فسحبت سارة منه رزومة الورق وألقتها جانبًا وقالت:

- ليس من اللائق أن نترك السيدة المدير في عثرتها هذه دون مد يد العون.

نهضت إلى حمام الغرفة بينما شرد ذهن عليا لبرهة، فعادت سارة في ثياب نومها فاستفاقت عليا وقررت الرحيل، فدعتها سارة:

- ألن تحصلي على مهدئك؟؟؟

قالتها سارة وهي تلقي بالعلبة بين راحتيها في لا مبالاة، بينما أثر الصداع بدا على عليا التي قالت بعصبية لافتة:

- فلتحفظيها بين فخذيك.. ليتها أكثر إشباعًا لك!!!!

كان رؤوف يتابع هذا الحوار غير المريح، فبرقت عين سارة حين لعقت شفاه أبيها وحاولت استمالته...

- أليس من المناسب تلقين السيدة المدير درسًا في فن الخطاب، كيف ستخاطب السادة الأعضاء بهذا اللسان البذيء!!!

ضغط الصداع على شعيرات مخها حتى كادت تنفجر حين صاحت:

- ليكن.. أيتها الساقطة ماذا تنوين فعله؟

نظرت سارة إلى أبيها بنظرة ذات مغزى.. سارعت إلى الباب تغلقه بمفتاحه وألقت به من النافذة...

- أولًا سوف تشاهدين ما كنت تخمنين حدوثه طوال الفترة الماضية بمرأى من سمعك وبصرك...

لم تصدق عليا أن يحدث هذا..

- حسنًا يا أبي لنريها بعضًا من حبنا...

كانت هذه أكثر المرات التي مثلت فيها سارة دور العشيقة بامتياز، أبوها يقبلها،بينما هي تفتعل الشغف بحبه، وتنادي باسمه مطالبة بالمزيد!!! بل تصرخ أحيانًا في لوعة الشوق والحرقة المصطنعين حينما تراقب عليا التي سقطت على الأرض تصم أذنيها وتغمض عينيها، لا تقوى على متابعة المزيد...

أنفاس رؤوف اللاهثة وعينه الزائغة نصف المغمضة، وأوردة عنقه النافرة تنذر بأن الإثارة أوشكت على الانتهاء...

أنزلت سارة قميص نومها، ونظرت إلى أبيها الذي تكور على نفسه على فراشه الوثير، وتوجهت إلى عليا في خطوات واثقة كحية تسعى، فاستنهضتها وتطلعت إليها بشماتة، وضربت بماء أبيها الدافق على وجهها!!!

فبكت عليا بحرقة الهزيمة وإعلان الاستسلام، فقالت سارة بهدوء مقيت:

- نحن الآن متعادلتان، لا خاسر ولا منتصر بيننا.. حين يصعد أحدهم إلى هنا يكون قد انتهى الفصل الأخير من هذه المسرحية الهزلية، وأعتقد أنك تعرفين ماذا عليك فعله.. أليس كذلك؟؟؟

فوقفت تطلع من نافذة الغرفة وصاحت:

- عم رجب.. عم رجب.. لقد سقط مفتاح غرفة أبي أسفل النافذة، هل ناولته لي؟؟؟

***

عليا ثراؤها أضحى أكبر من طموحها، عرفت الكثير من المشكّكين فضحرتهم وظهر لها كثير من المناوئين فظهرت هي عليهم.. انحصرت الأرض من حولها، وبات النصر المؤزر حليفًاها، لا تلعب بأشخاصها إلا في الأوقات الصحيحة والأمكنة السليمة، لم تتذوق طعم الهزيمة بعد؛ فهي تجدد جلدها باستمرار، تشرّبت الحرفة كقطعة من الإسفنج ونضحت بإبداع يفوق ما أسسه سيدها من قبلها...

باتت معروفة لدى المتاجر ذات الوكالات العالمية، تدور في فلك أرفع شأنًا مما كانت تحلم، ارتقت إلى مصاف أرباب الأعمال بماضٍ لا يعرفه أحد، ولم يقوَ أحد على التشكيك فيه ما دامت تعلمت كيف أن لا تقاوم النار بالنار،بل بقليل من اللين يصبح ألد الأعداء أكثر المؤيدين لها.

سعاد أبوسلطان.. الشهيرة بسعاد الملاح.. اسم اختارته تيمنًا بأحد الزبائن حين اختارها هي دون غيرها من النساء...

سيارة فارهة وثياب حريرية وأساور من ماس وذهب.. قالت: إنها لم تبالغ في إظهار نعيمها حين طلب منها المقربون أن تخفف من أثر مالها عليها.

- كان صياح الديك سبب موته حين سأله الذئب أتؤذن للصلاة؟؟؟

هكذا قالها حسن زوجها فعلقت هي:

- لا تخش على شيء إننا الآن بتنا في مأمن من الشرور.

كان هذا حين أشرفت سعاد على اللمسات النهائية في شقتها الجديدة المترفة.. بهو فسيح وغرفة طعام لثمانية عشر شخصًا، وغرفة للضيافة أميرية المستوى، فقال زوجها، وهو يجول بنظره:

- لا أحسب أن أعمالك تدر ربحًا هائلًا كهذا، أعتقد أنه وقت التقاعد، أليس كذلك؟

اعتدلت سعاد ونظرت إليه:

- اسمع ياحسن.. هذه الشقة ليست إلا بداية مرحلة جديدة في حياتنا سوف تنتقل بنا إلى مستوى آخر لم يسبق لكلانا أن رأى مثله، وإن كنت تعي ما أقول فاحفظ هذا بعقلك وتذكره جيدًا.

كانت الأفكار تتبادر بذهن زوجها على أنها النهاية لماضيها الذي لا يسر ولا يفتخر به أحد أبداً، وأيضًا لم يعد هناك فرصة على تطويع الزجاج بعد تشكيله، وإلا...

وهذا أمر يعلمه حسن جيدًا.

- إذن ستستمر أعمالك كما كانت.

قالت سعاد بزهو:

- بل أفضل بكثير، أقول لك مستوى آخر لو قدر لنا ذلك، إنها اللعبة ذاتها لكن بقواعد جديدة...

عض حسن على شفته فقد أدرك تمامًا أن باب المفاوضة قد أغلق وتابعها، وهي تطوف في أرجاء المكان تدقّق في التفاصيل.

***

الهروب من الجنة...

استحالت بشرته البيضاء إلى سمرة رمادية قاتمة، وتبدلت ملامحه حين غطت لحيته الكثيفة الجزء الأكبر من وجهه الذي حملت نظرات عينه بؤسًا وشقاءً مريرين!!

وعضلات جسده لم تعد منحوتة، ولا مفتولة، بل هرمة، شملها الهزال والضعف، ونقص وزنه بشكل لا يخامره شك.

أقلام الصحافة انصبت على مجهودات جمعية ميكاروس التنموية للأعمال الخيرية؛ فقد ظل الأمر بين طيات الخفية تارة والعلانية تارة إلا أن ما من مكان حل فيه شارلي وكانت زوبعة ما تدور في مداره!!

كان كوكب الله!!! هكذا أطلق عليه صحفيون مؤجرون وآخرون منصفون، وصفوا الأمر أنه خزي على المسؤولين أن يتسرب بين أيديهم كزئبق مائع يضرب بالفتنة وحدة الصف.

وعلى الساحة الإعلامية تداولات الاتهامات والمنواشات بأن ما يحدث ما هو إلا محاولة لفصل الجنوب عن الشمال في إدارة مستقلة،

وأن هناك من يلعب بقدر هذا الوطن، لكن شارلي ما كان يعبأ بشيء من هذا، بل ظل في طريقه يسعى بين قرى أكلها الفقر والمرض، بين أناس تتضرع سؤال الطعام وطلب النجاة.

في صباح قائز، ورياح تلفح الوجوه، وجفاف تحشر به الحلوق بسبب ما تصبب من عرق على الأجبان، أمهات تجر في أذيال ثيابها أطفالا، وعجائز خائرو القوى يتهافتون على حصص الطعام، ورجال بملامح خشنة بصحة بالغة وقوة وافرة، لكن بأيدٍ عاطلة، لا تغرس، ولا تجني...

أمام جمعيته تكاثرت الناس واحتدمت الصراعات بينهم بالكلام، وأحيانا بالتشابك بالأيدي حين حل شارلي برفقة أعوانه من رجال الدين كانت الإعانات على وفرة تسد الحاجة، لكن تكالب الناس وتدافعها عجل بنقاط للنظام فرضها برجال مدفوعي الأجر يسيرون خطوات الناس في رتابة وبطء، لكن المهمة تمت كانت على خير وجه.

امتلأ عقل شارلي بمئات المشاهد وهو يطالع كيف مئات الأمهات يجزمون أن ما من شيء يؤكل دخل بيتهن منذ أشهر مضت، وأن هناك من يحكي كيف قضى ابنه نحبه لعجزه عن مقاومة المرض، وكيف جرت الأمور أكثر قساوة، وأن ما فات ما هو إلا خير؛ لأن الأسوأ لا يزال محفوظًا.

لعل بقدوم كوكب الرب هذا يكون بابًا للهرب...

كان شارلي يسعى للهرب من عدسات تلاحق ما يمكن ملاحقتهم من مسئولي جمعيته حتى تمكن من منع المتطفلين في التوغل إلى داخل السياج الذي فرضه كمانع لهم.

بعد أن اطمأن أن عملية توزيع المؤن تسير كما ينبغي أن تكون أقر الراحة كمحارب في صحراء يرى فيما يراه من سراب دوحة يلجأ لها في وقت راحته،فما كان إلا أن يعود إلى العاصمة القديمة دون أن يهذّب من شكله، فظل طليق اللحية والشعر حين عرجت ساقه إلى مقر العالم.

لم تتعرف على الفتى الإنجليزي، بهيّ الطلة بسهولة؛ فاسمرار البشرة واللحية قد غيرا من ملامحه كثيرًا.

كانت ميولا قد تعافت على دماء ضيفتها هالة هذا ماعلق عله شارلي حين قال:

- لا أرى أثرًا لشيء على جبهتك، بل أحسب أنها أضحت أكثر نضارة، كم كلّف هذا الدواء؟؟؟

حكّت ميولا جبهتها بإعجاب:

- أتعرف؟؟؟

هناك في كتاب المسلمين المقدس آية أرى فيها شيئًا مناسبًا لك تقول إن بعض الأمور حين تظهر للناس تسوؤهم، فليس من طبيعتها أن تتطلع عليها.. أرى فيها شيئًا صحيحًا، لكن يبدو أن حالتي تعجبك.

تأملها شارلي حين قال بهدوء:

- أتعرفين في دراستي للفلسفة والدين اطلعت على دراسة تقول بأن الملحدين أكثر معرفة بالأديان الوضعية والسماوية من المتدينين أنفسهم، لكن ما من أحد منكم يؤمن بالله مفارقة أراها الآن ماثلة أمامي، وما لا يعجبني فعلًا أن يتسلق المرء على حاجة أو جهل أخيه.

فأنت هنا على دراية بما قد يحل بهذه الفتاة التي قد ألقى بها القدر في طريقك، الحقيقة ميولاً لقد تحوّلت إلى مسخ هم شقي عابث لا يعبأ بمقدّرات الناس...

قاطعته وقد مالت إليه تداعب لحيته التي تخضبت أطرافها:

- لا تؤرّق نفسك بما كسبته يد غيرك، فأنا اليوم أفضل مما سبق، وضيفتي تعتني بها من الخدم عشرون.. كيف ترى في هذه الأمور إشكالية؟ أنا بخير وغيري يرفل في طيات النعيم...

تابعت وهي تقترب لشارلي..

- صدّقني إنها مسألة مقابلة.

لم يعلّق شارلي.. لكن لأول مرة يشعر في قلبه بالفطور نحوها، لم تعد هي الفتاة التي يلجأ لها، بل إنه شعر أن الأمور تبدّلت بعد شفاء ميولا..

كان ينوي أن يستغل شفاءها على أن يدفعها إلى اعتناق الدين وعبادة الرب في إشارة إلى أنه هو الشافي وهو الرحيم، لكن هذه الصورة تبدّدت حين حل المساء!!

أقامت ميولا ليلة استحضرتها من الأساطير العربية القديمة، ارتدت كأميرة عربية وخدمها الهنود في ثيابهم المزركشة بهية الطلة حسنة المظهر، بين الألوان المختلفة وتناسق أجسادهن، والقاعة العثمانية التي تحوي المبخرة النحاسية قد ازداد رونقها وباتت أكثر أبهة وعظمة، وأيضًا عرش ميولا لم يتثنَ من هذا الاحتفال، بل حظي بقدر وافر من الاهتمام...

أما هالة وإسماعيل فكانت النتيجة بادية على وجهيهما، فوه مفتوح وعيون مشدوهة مفتوحة عن آخرها تود لو أن تلم بكل ما تراه دون تفويت شيء، وخطاب مكتوم.. أين نحن؟؟؟!!

في قاعة الطعام القوطية الثرية الذهبية العملاقة تضيء بمئات الشموع، والحوائط تتزيّن بما يكفي من مشاعل تنعكس أضواؤها على الأشياء...

على طاولة العشاء...

مأدبة لا توصف.. صدور الحمام بالصنوبر والشمر، كبد البط مع صلصات الفلفل والبصل الحلو، ولحوم كيانينا الفاخرة ممزوجة بروائح الريحان والبقدونس، يستحيل مقاومتها، وكؤوس الشراب موزعة على الجميع من شمبانيا فرنسية...

كان شارلي يتابع هذا البذخ والإسراف اللامتناهيين دون أن يطرف جفنه عن شاردة أو واردة حسب ما يقول، إنه عليه أن يتقبل مثل هذه الأمور بنوع من الجلد والصبر تمامًا كحالات العوز والفقر التي يراها؛ لأن أيًا منهما يصير بالإنسان إلى عواقب وخيمة، فيسلخ الإنسان من إنسانيته، ويجرّده من بقائه على صلة بالله؛ فالفقر والبذخ وجهان لعملة واحدة.

كان لأول مرة يتطلع إلى هالة في زيها التاريخي الذي يكشف عن بعض من جسمها وراء أردية شفافة كالجواري التي امتلأت بها قصور الأمراء في الآونة الغابرة.

لم يعجبه أن تعيش هذه الفتاة كالبهيمة في حظيرة ميولا، ترعى في مراعيها، ثم يأتي وقت الحصاد المرير.. فكان وجهه جامدًا لا يحمل من المشاعر شيئًا، وأيضًا كان يراقب تصرفات أخيها الذي بدا هادئًا

كيسًا، أما ميولا فكانت في غبطة فرحها؛ إذ وجدت من يحمل عنها كأس مرارة مرضها وينعم مقابل هذا في رغد العيش بلا حساب، بل إنها رأت في هالة خير رفيق، رغم حبها الجم لشارلي، لأنها لا ترى ما يمنع أن تمارس حبًا جديدًا مع شيء جديد فطري عذري، وغريب!!!

صحيح أنها لم تخبر شارلي بشيء كهذا لكي لا يمطرها بمواعظ من الإرشاد والنصح عن الكف عن اللهو بالفتاة، وأيضًا لكي لا تكشف عن جنس ضيفها...

حتى إن هالة حاولت أن تتجنب الحديث مع شارلي لكن عينها لا تفارقه، عرفت بعد أن رسمت صورة في مخيلتها، بعد أن أزالت لحيته الكثيفة وشعره الطويل، إنه هو من كان يومًا نزيلًا بفندقها حين كانت تعمل به.

- صدّقني يا إسماعيل، إنه هو أنا أجزم أنه هو وأن ميولا هي من كانت ترافقه.

مط إسماعيل شفته بلا مبالاة

- إنها لمفارقة غريبة!!!

دارت هالة في أنحاء الغرفة،وقالت:

- لكن الأمر أكثر من معقد؛ فميولا ليست على خط شارلي إسحاق هذا؛ فهو رجل دين ويدعو إليه، وميولا بعيدة عن الدين والعبادة فما الرباط بينهما؟؟؟

ربّت إسماعيل على كتفها..

- لا تشغلي بالك بما لا طاقة لك به، واحفظي ظنونك هذه لنفسك، فما بين هؤلاء القوم أكبر من أن نخمنه أو ندركه، لكن يمكن أن نقول: إن ما يربطهما لا يهمنا طالما لن يكون سبب طردنا من هنا.

نظرت له كمن يدبر شيئًا:

- لا يهمنا؟! يجب أن نعرف ما يدور بينهما، فالأمر لا يسلم من شر البطش، وأن بطشها لشديد.

في غرفة ميولا..كان شارلي يلوح بيده بعصبية..

- ليس من الحكمة أن يورط المرء أحدًا في أن يكون منفث ترفيهه، أو أن يكون شكلاً يجمّل به حياته كقطعة أثاث، أليست هذه حقيقة؟؟؟

ردّت ميولا، وهي تتفحص وجهها بعناية أمام المرآة العملاقة:

- الحقيقة أنك تُهيل على الحقائق تراب مبادئك البالية، فما تقوله لا يقع بظلاله على الواقع بشيء..

ردّد شارلي:

- مبادئي البالية!!!

نهضت ميولا لتواجهه...

- اسمع يا شارلي.. أنا أقوم على رعاية هذه الفتاة وأخيها مقابل أن أتمتع بما تقدمه من ترف لي كما تقول.. فهل تعلم أن شركات عدة بأمريكا تقوم على تجميد السوائل المنوية والبويضات التي تحمل

مواصفات المشاهير الجنسية، بداية من اليزابيث تايلور ومادونا وحتى جوان ستيفاني لقاء أن يبتاع شخصًا بويضة فيلقّحها أو سائلًا منويًا، فيخصبه في رحم امرأة تنهك أعضاء جسدها لنمو جنين ليس منها، وفي النهاية تُهان شر إهانة على أنها وعاء أو أنها معمل تفريخ!!!

- هل فكرت فيمن يبيع سائله المنوي لمجرد تشابهه مع كيفن كوستنر أو كلارك جيبل أو تلك المرأة التي تعاني لتسعة أشهر ألم الحمل والولادة، وفي النهاية تحظى بحفنة من مال لا يسمن ولا يغني من جوع؟؟

- هل فكرت في حياة الشواذ المقرفة أن يبتاعوا كل شيء من رحم وبويضات وسائل منوي للإتيان بطفل لا علاقة لهما به، ولا علاقة له بهما، فلو كانوا ذكران يسمى أحداهما بابا والثاني أبي، والأمر ذاته مع الإناث السحاقيات!!

- فهل ترى أن ما أنفقه أنا ومن على شاكلتي لعلاجنا – وهو أمر ضروري حتمي نوع من التباهي أوالتفاخر؟؟ أو نوع من الاستغلال غير الآدمي؟ أو نوع من الشذوذ؟ أنا أرى أنها حقيقة لا غبار عليها...

- هل تفهمني؟؟؟

أشاح شارلي بوجهه برهة، وميولا تحاول أن تقرأ وجهه، ثم قال:

- ما أفهمه هو أن كل ما سبق يقع في دائرة الحرام وعدم الإنسانية.

تنهّدت ميولا...

- بل أرى أن هذا هو العطف الإنساني أن تؤوي فردًا في بيتك كابنك، ليس من الأمور الخبيثة، أنا لازلت عند رأيي، لن أتنازل عن الفتاة!!

هذا ما دار على مسامع هالة حين استرقت السمع وقتما مرت بغرفة ميولا تحسست الوشم المرسوم على رسغها.. وعرفت كم هي باتت شيئًا خاصًا لدى ميولا.. خاصًا جدًا.

***

خمسة رجال.. بينهم واحد شارد الذهن وعينه تكاد لا تقرأ شيئًا، خسر من وزنه الشيء الملحوظ وشعره المصفّف اللامع البراق لم يعد كذلك، بل كان رماديًا باهتًا، حين صاح صاحب العوينات السوداء الكبيرة....

- لا أعتقد أن الخسارة قد تدفع إلى المغامرة بالعدول عن الاستمرار، أعتقد أن هذا الرأي لرجل لا يعبأ بمدى حساسية موقفنا.

رد صاحب القحافة..

- لا أعتقد.. فهو أيضًا – يسبح معنا على ظهر السفينة نفسها، ولا أرى أنه يفر هاربًا دون أن يحذرنا من انقلاب البحر، بل أرى من الأفضل أن نتوقف قليلًا لنتبين الأمر.

قال آخر:

- لم نسمع رأيك يا داغر.

هز رووف رأسه قبل أن يقول:

- الأمر ليس بهذه البساطة حين تنظر إلى الأمر تجد أنه من الأحرى بك أن تتوقف عن المتابعة وهذا من القرارت السهلة؛ لأنه من البديهات التي يتوصل لها طفل دون السابعة.

تابع رؤوف وهويقف لمواجهة الرجال الأربعة...

- لكن حقيقة الأمر مختلفة تمامًا؛ فقد كنت منذ أيام مضت قبل اجتماعنا هذا أبحث ما الممكن أن نخسره من توقفنا أو مكسبنا من التحرك قدمًا في مشروعنا، لكن الحقيقة كانت قاسية.

تابعه الجميع وهم يدققون النظر في ملامحه حين تابع..

- إننا باختصار بين فكي الكماشة...

- الكماشة!!!!!

قالها أحدهم بدهشة، فتابع رؤوف وهو يوضح:

- نعم فكّي الكماشة، فما مضينا فيه لا يمكن الرجوع عنه؛ لأن الشروط الجزائية ستنهال علينا بالإضافة إلى الغرامات المالية، وهذا جزء بسيط كفيل بأن يفقدنا قدرتنا على الحركة، أي الخسارة.. أما الاستمرار فهذا يعني أن كل قرش ندفعه نشطبه فورًا من قائمة الديون، كأنه هبة أو صدقة ؛ لأنه لن يرد لعدم قدرة الناس على سداد فوائد الدين قبل رد أصله.. هذان هما فكّي الكماشة، إما دفع الغرامات وإما دفع صدقات، إن النظام المالي هناك كمستنقع وحل...

- إذن ماذا علينا فعله؟؟؟

- لا أرى شيئًا سوى أن نستمر في النزيف المؤقت بدلًا من الجرح الغائر؛ فالصدقة أخف من وطء الغرامة.

أطرق الجميع برؤوسهم مفكرين، حين قال رؤوف:

- إننا الآن في مهب الريح، والسفينة لا تستطيع العودة إلى ميناء القيام، ولا ترى فنارة الإرشاد؛ لذا فالتفكير معنا ما دامت مصالحنا مشتركة.. الآن نصحح المفهوم، ماذا علينا فعله وليس ما عليّ فعله...

لكن على الجانب الآخر ستقع القشة التي ستقسم ظهر البعير، وقتها كانت عليا قد استقرت نزيلة لدى هناء الخربتلي طبيبتها وواصفة علاجها، وأيضًا هي من هدتها لخطوتها المقبلة، وبدلًا من الانزواء دفعتها إلى الظهور مجددًا لمزاولة مهنتها الجديدة في النادي، لكن فكرة أخرى استقرت برأسها هي السعي خلف اشكنازكي شريك زوجها ومحل سره ومربط قوته، كانت لاتزال تحتفظ بهاتف مدير أعماله لعله يكون من الممكن طرق سبيل إليه.

في النادي كانت عليا تتعامل بروح أكثر رياضية وأكثر لطفًا.. على أن ما أصابها هو أقل الشرور وطأة، وهي الديمقراطية، وأنها ليس إلهًا حاكمًا، لكن أكثر الأشياء التي أزعجتها هي خسارتها، ليس لندية منافسيها بل بإيعاز من زوجها.. لكن سواء هذا أوذاك إلا أنها لا تقف إلا في إدارة المال، ولا تظهر إلا إذا تطلب الأمر منها الظهور، وليس كسابق عهدها، هذا أيضًا خفف عليها عبء تفسير اختفائها هنا أوهناك؛ لذا كان انفرادها بذاكربرج مدير أعمال اشكنازكي أمرًا مقبولًا...

كان المكتب فريدًا إذ إن أساسه بسيط جدًا، لا ينم عن أبهة زائدة، لكن أناقة أكيدة تشع من أرجاءه بفضل الإضاءة المختارة مواضعها بعناية واللمسات الفنية في الأنحاء.

كان مخطط عليا أن تبدأ في استغلال ما تعرفه عن زوجها من أسرار، وتؤكد فعلًا أنها لم تكن تود إذاعة سره، بل بقت عليا في مكمن منها إلا أن الشيطان لا يترك الأمور على سجيتها، فيلبس الحق رداء الباطل والعكس، فقررت أن تجعل من منبت عذابها مبدأ قوتها وطريق عودتها.

كان ذاكربرج.. وهو رجل ضئيل الجسد دقيق الملامح يبدو وجهه ذا بشاشة، وسعة عينيه تدفعك على الوثوق به.

برج يتصفح كتالوجًا بإنجازات النادي خصوصًا في الفترة التي تولت فيها عليا رئاسته...

نهض واقفًا حين صافحته وأبدى كامل احترامه لدعوتها له وتبادلا حوارًا لطيفًا حول أعمال النادي الخيرية والجهود المبذولة في الأعمال التنموية.

- أرى أن أعمالكم قد حازت إعجاب شركات كثيرة حول العالم، فالممولون لا يُبقون إلا على الأعمال الناجحة والإدارة القوية.

ابتسمت عليا لملاطفته وقالت:

- الإدارة الجيدة لا تبقي أيضًا إلا على الشريك الجيد، وهذا ما دفعني لمحادثتك.

واصطبغ وجهها بجدية حين تابعت..

- الحقيقة سيد ذاكر لا يوجد شيء أقيم من تعريف مع من تتعامل، فبقدر إقامة الأشياء على نصب قوية إلا أن فيها من الخلل ما قد يهدد هذا البنيان.

قطب الرجل حاجبة محاولًا الاستفسار عن المزيد.

- هذا صحيح سيدة عليا لكن هل أوضحت؟؟؟

تنهّدت، وقالت بنفس هدوئها:

- أرى أنك كوكيل لأعمال السيد جاك اشكنازكي وكنت في معيته، حين قام هو بزيارتنا لأول مرة فإنه من الأحرى أن تعرف مفتاحًا بسيطًا للسيد روؤف..

بدأ الاهتمام على ذاكر حين ذكرت عليا اسم زوجها، فتابعت وهي تفتح براد مكتبها وتعرض على ذاكر بيرة باردة فتناولها، وتابعت..

- فروؤف يبدو كما لو كان هرمًا من عصر بناة الأهرام هادىء قوي الشكيمة يعرف إلى أين تسير الأمور وقرارته في الغالب صحيحة، لكن هذه الصورة البرّاقة لها جانب آخر أكثر قتامة، فالحقيقة أنه كلّف بابنته.

تظاهر ذاكر بعدم الفهم ولم ترسم ملامحه الدقيقة أي علامات دهشة، فتابعت..

- هذا ما دفعني لأقول لك أن الأموركلها ليست في يده بل في يد ابنته..

قالتها تنتظر الرد، لكن ذاكر تجرع من بيرته منتظرًا المزيد، لكنه لم يرد فقالت عليا بشك:

- ألا يعتبر ذلك خلال، أي أن يتحكم آخر فيمن تتعامل معه، أقصد أنه كمثل عروس الماريونيت...

مط ذاكر شفته...

- سيدة عليا.. أنا فعلاً شاكر على هذه المعلومة، فهي قيمة وتفيد كثيرًا، لكن يعيبها شيئان: الأول: أنها منقوصة فلا أعرف بأي قدر سيد رؤوف كلف بابنته وإلى أي مدى تتحكم فيه أما الشيء الثاني: لماذا اخترت هذا الوقت الآن.. وهناك تضارب في الآراء حول الاستمرار في شراكته مع سيد جاك وشيء كهذا له ثمنه الآن...

- قالت عليا بسرعة:

- وهذا ما أرادته.

فضاقت عين ذاكر حين قال باسمًا:

- هل اعتبر هذا انتقامًا؟؟

أطرقت عليا برأسها ثواني تتأمل أظافرها المشذبة، فاستطرد ذاكر وهو يتجرّع آخر ما تبقى من بيرته..

- سيدة عليا.. نحن نتابع خطى زوجك وبصراحة لم نكن نتخيل مدى ضخامة تأثيره على المؤسسات والنظام هنا في البلاد، حتى تأثيره على إدارة ناديك..

- الحقيقة أننا عرفنا أنه قد أدار بك الدفة وأنزلك إلى هذه الدرجة، بدلًا من رئيس للنادي العريق إلى الإدارة المالية به.. كم أعرف أن إدارة المال في أي مؤسسة هي عصبها، وكم هو منصب خطير لكن بين مخالب الذئب وأنياب الأسد فارق كبير لا يقدر.. وهذه الردة لابد أن تكون نتيجة خلاف بينكما، أنت الآن تخبريني أنه كعروس المسرح في يد ابنته!!!

وأشاح بيده في الهواء قبل أن يستطرد

- تخيلي سيدة عليا أنك أمام لوحة جميلة من البازل، لكن ينقصها قطعة هامة نحن نفتقدها.. ما علاقة خسارتك في انتخابات النادي بحبه لابنته؟ أين القطعة الناقصة.؟

رفعت رأسها ولحته بطرف عينها:

- أتعرف سيد ذاكر ليس الأمر بهذه السهولة أنت تقرأ الأمور بشكل غريب وتتوصل للتفاصيل بشكل مدهش.

فتابعت بصوت خفيض وعادت تغرس أنظارها في متابعة أظافرها...

- روؤف يعاشر ابنته معاشرة الأزواج.. في البداية دفعته هيالى هذا لكنه اعتاد على الأمر وبات يطلبه منها دوني!!!

أطرق ذاكر برأسه وصمت لثوان..

- أوووف..!!؟ هذا مالم يخطر ببالي، الآن اللوحة اكتملت.. لقد فهمت الآن.. إذن الأمر ليس انتقامًا من روؤف بل من ابنته.

ردّت عليا بسرعة وقد هدج صوتها بالبكاء:

- نعم.. لقد أحالت حياتي إلى جمرة من نار وأفقدتني وظيفتي وزوجي، وحتى مكان مبيتي، أنا إنسانة خارج العالم، لا أملك شيئًا لأفعله.

وغطّت وجهها براحة يديها وتجهشت بالبكاء فأومأ ذاكر برأسه قبل أن يحاول تهدئتها.

- اسمعي سيدة عليا.. أنا لا أعرف كيف أخدمك، لكن حقًا أنت محل شفقة، على أي حال لا تحاولي إثارة المشاكل، واجتهدي في منصبك الجديد، وسأظل أنا على اتصال بك، سأكون في الجوار.

قالها وغادر الغرفة في هدوء

***

بحيرة تونر – سويسرا...

قد يجزم من شاهد رووف لوهلة من الزمن أن شعيرات ذقنه الحليق نمت دفعة واحدة إثر الخبر الذي أكده مستشاروه.. لقد هوت الأسهم بشكل جحيمي.. دون مبررات انتشرت

الأخبار حول العالم أن سوق العقارات في الولايات المتحدة قد سقط دفعة واحدة، هوى بعد أن كان جبلًا شامخًا ليأخذ معه كل البنوك في التهاوي، كل من وضع مالاً، أودفع باستثمار قد فقده لتوه..

البنوك تغلق وتفلس.. الفوائد أصبحت صفرًا.. المضاربات توقفت.. الوقت أصبح لا يعني شيئًا.. ميناءِ الوصول ميناء القيام.. الفنار.. كلها أمور أصبحت لا تعني شيئًا؛ لأن السفينة بدأت بإحداث دوامات من حولها معلنة غرقها والنجدة أصبحت أمام طريق مسدود...

وجهات لبيوت هرمية مصقولة زجاجها وصفحة لمياه هادئة وشوارع تكاد تجزم أن قاطنيها يستيقظون كل صباح لغسلها بالماء والصابون!!!

على تل يطل على بحيرة تونر هنا تقع الجنة.. ولا جنة سواها.. إنها أحد البقاع حول العالم التي تعفي ساكنيها من دفع الضرائب، وأيضًا لا تدفعهم للإقرار بذممهم المالية، ولا ما يتعلق بأرصدتهم المصرفية...

هذا هوالمكان الذي اختاره روؤف ليقضي أيامه الأخيرة بحجة أنه في متابعة حثيثة للأحداث...

لكن الحقيقة أنه هرب قبل وقوع الكارثة التي كان يتوقعها....

خسر روؤف ملياراته في ضربة قاسمة، بل إن أصول شركاته لم تعد تفي بغرض السداد للبنوك سواء داخل أم خارج مصر.

هذا المكان هو الوحيد الذي ينعم فيه لاجئوه بنعيم الحصانة القضائية من المتابعة أو الملاحقة المصرفية.. ولقاء ذلك تزخر البحيرة بأصحاب المليارات ينفقون كما يحلو لهم دون خوف لكن أيضًا سجناء في هذا السجن اللطيف مقيدون به لا يستطيعون مبارحته...

مر أسبوعان على آخر لقاء جمع روؤف برجال حزبه الذين أكدوا على عدم هربه، وأكدوا أن اقتصاد مصر بأمان وأقوى من أي إعصار.. لقد تورطوا معه في مستنقع اشكنازكي الوحل.. الأنباء أخذت وتيرة أكثر حدة عندما علم روؤف أن جاك لا يبكي على من وثق به!!!

كانت الكلمات مستفزة، دفعت روؤف لسب جاك عبر الهاتف، ثروته التي فقدها أفلتت أعصابه، لكن ما العمل؟

لقد فقد كل ماله ومال غيره بعدما حقق أرباحًا وصفت بالخيالية، لكن الآن ما عاد أمل في شيء!!

على الجانب الآخر.. كان اشكنازكي قد وضع خطته البديلة للهرب من هذا المأزق.

جيفري مكنمارا واللورد الإنجليزي جالسان شاردان حين قال جيف لجاك الذي أوقد المدفأة بزج الحطب فيها:

- إذن لقد فر الرجل.. في غالب الأنظمة الفاسدة مايهرب رجاله، وهم من يحظون بالضوء الأخضر في كل تصرفاهم.. كم هذا مشين؟؟؟!

طقطق جاك بلسانه وداعب أنفه الأحمر بأنامل أصابعه الرفيعة الطويلة، ثم نظر إلى اللورد إسحاق..

- إنها الحقيقة لقد ولى هاربًا، وهذا ما رفضه اللورد إسحاق إنى أرى في مطامع الفاسدين غنائم لا تحصى.

فأرجع رأسه إلى الخلف حين جلس على مقعد هزاز كمن يتذكر..

- أتتذكرون حين كنا في سان مالو.. كنت أنا لا شيء تقريبًا عائد إلى السوق الجديدة بما لا يكفي لإقامة مشروع ملابس أطفال، أما الآن فأكاد لا أعرف لا كم ولا متى أكسب أموالي.

رد إسحاق في تشكك:

- لكنك لازلت خاسرًا، فأموالك وأموال هذا الغبي الجشع محشورة بين أنياب البنوك وتحت رحمة المدينين بها، هل ترى حلًا لهذا المأزق؟؟؟

دفع اشكنازكي نفسه وقفز واقفًا.. وقال بسرعة:

- نعم.. لديّ حل بسيط، حل سيولد من رحم الأزمة نفسها...

فانتبه السيدان حين تابع...

- الخطة ببساطة سأعرض عليه شراء ما يتيسر من أسهم شركاته بمصر إلى الحد الذي يجيز لي الإدارة واتخاذ القرارت بشكل يعفيني من الاعتراض أومشاركة الإدارة، وهو الأمر الذي لن يرى له بد، إنه الباب الوحيد للهرب من مصيدة الإفلاس!!!

رد جيف:

- لكن أعتقد أن قيمة ما ستربحه ما هي إلا أسماء خاسرة.

ثم قال إسحاق:

- أضف إلى ذلك أنك ستصارع أناسًا لا يربطهم إلا قانون فردي لا قانون ولا مؤسسات تحاسب أو تعاقب، إن الجو هناك لا يصلح، أنا لازلت عند رأيي، فأنا من يقر بيده معوناتهم ومن يضع الثقة بالبنوك في التعامل معهم، صدقني الأمر هناك شائك.

أشار جاك بسبابته الطويلة..

- بل إني أرى في هذا أيضًا مهربًا مما نحن عليه الآن...

ثم لمعت عيناه تحت وهج المدفأة..

- لكن الأمر يحتاج إلى تدبر وحسن تخطيط ;إلا لخسرنا الصيد الثمين...

***

أضحت كالغرس في الأرض.. ضربت جذورها بسرعة كبيرة لتطرح ثمارها..

عرفت بسرعة كيف تجعل من بيتها الجديد الجميل مترلًا وملتقى لكبار شخصيات الطبقة الناعمة، تحتمي بهم، وتتدرع بدروعهم وتضرب بسيفهم، اختارت بذكاء كيف تدير كل الأمور لصالحها...

عرفت متى تظهر نابها الأزرق، ومتى تستكين حتى الاحتواء، جعلت من بنات أعمالها وهن من اختارقمن بعناية شديدة ليس لجمالهن بل لولائهن وإخلاصهن لها أن تحرك رجالات سقطوا في بحرها المديد من اللذة والمتعة الحرام كما تشاء...

الأدهى أنها لتذوب في نسيج هذا الكيان اصطبغت كالحرباء بلون نسيجها الذي تلونت بلونه، فعرضت في ملتقاها هذا أمسيات للشعر والموسيقى العربية الأصيلة، حتى إنها أضافت إلى قائمة رواد مجلسها عينات من سيدات هذه الطبقة...

كانت فترة قصيرة جدا إذا ما قورن بما أنجزته، وهذا أيضًا كان يملي عليها أن تنسلخ رويدًا رويدًا عن جلدها الأصلية لتنصب في رداء آخر.

هذا ما يملكه الإنسان صورة وانطباعًا، لا يوغل المرء في صورة أخيه حين تكون براقة ويطعنها بخناجر التشكك حين تتداول عليه الأيام...

لذا كانت سعاد أكثر ذكاء وتدبيرًا؛ فقد عاملت كل ما يربطها بمخر الشخاخات على أهم من الماضي حتى زوجها، وأبو طرف، وحمدان النخاس....

سابقًا لم تكن سعاد إلا محصلة ضرائب نحيلة.. حافية.. مريضة.. تستطيع أن تقول:

إن ما من مطمع في دهنها.. لكن الآن من يراها لا يتعرف عليها بسهولة، صورة وهيئة غير ما اعتاد عليه عارفوها.. وتجزم أنك لا تعرف من الماثلة أمامك..حتى لو قالت: حدّق ألا تعرفني؟!

لكنها لم تنسلخ تماما من علاقتها مع أبي طرف؛ لأنه مورد بنات المخر إليها إلا أنها أبقته بعيدًا على أن تظهره معها في صورها البراقة، وهذا ما قد أشعل نار الحقد، فحاول أن يتقدم مع ضيفه على أن يفعلا شيئًا.

كانت الظهيرة حين هبطا من السيارة.. وضع يده حاجبًا الشمس عن عينه حين رفع رأسه إلى أعلى وأشار...

- تمام.. إنه الطابق التاسع.. هذا هو العنوان...

قالها أبوطرف حين دعى الشيخ سيلمان إلى الداخل الذي قال:

- ما شاء الله ولا حول ولا قوة إلا بالله...

فرد أبوطرف:

- لن تصدق يا شيخ سيلمان إن من تعتلي بناية هذا المكان لم تكن تحلم بأكثر من المرور بهذا الشارع..

غمغم الرجل:

- سبحان مغيّر الأحوال بيده الملك وهو على كل شيء قدير...

قالها وهما يدخلان إلى فناء البناية ذي المقدمة الزجاجية، ورجل أمن يرقب الأشياء بعين حارسة ويتطلع بحذر لأبي طرف حين أخبره أنه على ميعاد مع السيدة سعاد الملاح.. دقائق حتى استقر المقام بهما في غرفة ضيافة سعاد التي ما علمت بمجيء أبي طرف والشيخ السيلمان حتى أعدت ما أعدته لاستقبالهما، لكن في أي غرض أتيا؟ لم تعرف بعد!!!

دخلت إليهما كسيدة أرستقراطية تلحق بها خادمة تضع على الطاولة الرخامية قدحين شراب، هذا بعد أن قامت سعاد بعرض قطع الحلوة بنفسها على الضيفين.

كانت العلاقة بين سعاد وأبي طرف لا تتعدى علاقة عمل، فهو مجسها وناقل أنبائها في المنطقة والمناطق المجاورة وتبقى هي الواجهة البراقة لهذا العمل، لكن يبقى السؤال عن زيارة الضيف الجديد؟؟؟

- بارك الله فيك وأزاد من نعمه عليك.

قالها الشيخ حين بدأ الحديث فقالت:

- أسعدني مجيئك يا شيخ سليمان، فأنت من لهم في قلبي مكانة خاصة، وما يجمعنا إلا حسن الجوار...

فقال الرجل بسرعة:

- وحُسن العمل أيضًا..

كانت سعاد لا تحتاج لشرح لكي تتدارك بسرعة ما يرمي إليه الرجل حين قال:

- فراج وزوجته كيف حالهما؟؟؟

تبادلت سعاد مع أبي طرف نظرة ذات معنى لكن الأخير لا يعرف ما يرمي إليه، فردت بهدوء وبطء:

- أنا لا أعرف أي شيء عنهما، لكن قبل وقت مضى مرت بي زوجته تسأل المساعدة.

تردّدت نظراتها مع أبي طرف.. محاولة أن تستشف من نظراته عن أي شيء يتحدث.

إلا أنها اختارت المواجهة المباشرة مع الشيخ لما اكتسب صوتها طبقة جادة، وقالت بنفس الهدوء:

- شيخ سليمان.. ما خطبي وفراج وزوجته.. منذ أن انتقلت إلى هنا وأنا في عزلة حقيقة بكل من في مخر الشخاخات...

رد الشبخ متهكمًا:

- عزلة؟! هل تنسلخين من بني جلدتك.. يا سعاد..

بدا هذا الرد غير مريح لسعاد الذي ارتسم على ملامح وجهها علامات الضيق، فقالت بهدوء محاولة تجنب الصدام معه:

- شيخ سليمان.. هات ما عندك.. هل تسأل المال؟ أو المساعدة؟

كشر الشيخ عن أنيابه:

- المساعدة..؟ أنا هنا لآخذ نصيبي فيما تنعمين به الآن، فما دفنّاه سويًا مكتوم سره بين ضلوع كل واحد منا!!!

ضحكت سعاد بشكل رقيع كأولى خطوط دفاعها كأنثى.

- آه.. حركة ابتزاز عادية.. تستغل ماضٍ مشترك لصالحك.. ضربة موفقة.. لكن ليس الأمر بهذه السرعة فخلفيتك بها من الظلمة والقتامة ما يجعلك تسعى هاربًا دون النظر خلفك، وإذا أردت فافعل ما تشاء..

تدخّل هنا أبوطرف بسرعة:

- بربك ياشيخ سليمان.. كيف تجرؤ على إهانة سعاد، ثم إنها تعرف كيف تقيّم الناس من حولها وخاصة من قاموا بخدمتها، ما حسبت أن تقول هذا!!

نظرت سعاد هنا بتشكك لأبي طرف.. الذي تابع..

- ثم من قال: إنها تنكر حصة أحد؟؟

قاطعته هنا متفكهة...

- حصة أحد؟؟ من قال إني أقيم الناس بالحصص ماذا تظن؟ لقد تقاضى ما يكفيه ويزيد.

رد الشيخ سليمان ببرود:

- رائع أنا أعرف أن المرء منا لا يتعامل إلا بسمعته، وما أنفقتيه على تجميل وجهك ستدفعين ضريبته التي بخلتي بها علي.

فكرت سعاد مليًا وهي تنظر إلى الرجلين، وقالت:

- أولًا.. أنت لا تعرف كيف الوصول إلى وجهي.. فهو أجمل من أن تلوّثه بأدواتك مهما ادّعيت من القصص الملفقة، زد على ذلك أن ما أملكه أكبر وأكثر مما تملكه؛ فأنا أملك سر وعاطفة من يلقون بأجسادهم عارية خلف هذا الحائط.

وأشارت بيدها بشكل مبهم..حين تابعت..

- حتى لو عرف أحد بما تخفيه فلن يجرؤ على محاسبتي أو حتى التلميح لي بشكل أو بآخر، فأنا أعرف الكثير...

أطرق أبوطرف برأسه وصمت الشيخ هنية، ثم قال بتحد ووعيد:

- حسنًا.. أهذا آخر القول؟؟؟؟

قالها، ونهض، فنهض أبو طرف متقمصًا دوره:

- اهدأ يا شيخ سليمان الخطأ خطؤنا ما كان يجب أن يكون هذا حديثنا...

التفتت سعاد وعينها تحمل معنى واحد..

- أبوطرف لا يخفى علي أنك من أتيت بهذا المجزوب ليمثل دورًا أكبر من حجمه، دفعته كورقة ضغط، حسنًا من الآن وصاعدًا سأعلّمك كيف تتطاول على أسيادك!!!

أيها الغبي.. إنك ذبحت دجاجتك التي تؤتي ذهبًا.. لقد حطمت صالة عرض بضاعتك!!

أطرق أبو طرف ببصره تمنى لو أن الأرض ابتلعته من حجم الإحراج الذي بلغه حين قالت سعاد:

- والآن هل غادرتما قبل أن يقع الأسوأ؟؟؟

- قالتها حين كانت الخادمة تفتح الباب للضيفين المغادرين.

كان عليه التصرف.. كل ما فعله من أجل مخططه الإنمائي ستتداركه الرياح وتحيله إلى أثر بعد عين...

حاول تكذيب ما أعلنته الأنباء عالمية قبل أن تكون عربية ومصرية، أحد الراهبات الشابات شوهدت ببطن منتفخ تحت رداء فضفاض..!!!

كان الأمر بالنسبة لشارلي كالكابوس لا يصدق أن يتعالى أحد الأصوات منادية بأن ما كان يفعله هذا (الشارلي) ليس إلا درب من دروب العهر وتفكيك الوطن..

كان عليه التحقق أولا من وقع الحادث أم أنه مجرد ادعاء من مناوئيه، كان يفكر كيف هذا وهو أولى لمشروعه كل الاهتمام والرعاية، شعر بالخزي بل إن في الأمر خيانة.. وكيف سيكون الحال إذا عزف الناس عنه؟؟؟

الطامة الكبرى أن الباباوات في أوروبا يتصايحون بافتخار لما تجنيه أعمال الجمعيات التنموية وعلى رأسها جمعية الرجل الفارس شارلي إسحاق...

هذا الأمر لم يكن يهم أهل المناطق التي تقوم عليها أعمال جمعية ميكاروس الأمر الأهم هو خبر متى تأتي الغلال وحصص الطعام؟؟؟

- لا أرى داعي للقلق ياسيدي، إنه مجرد حادث، وهل الإنسان في عصمة من الخطأ؟؟ ثم إن الناس لا يشغل بالها إلا رائحة الطعام ودفء المأوى.

قالها كبير الأساقفة ومدير جمعية شارلي الذي سلك طريقه المترب الوعر مع شارلي بسيارة رباعية الدفع رسم عليها شعار جمعية ميكاروس الإنمائية.

حين غابت الشمس عن الأفق كانت المحاكمة قائمة لتبحث في تفاصيل الحدث وكيف جرى..

بلحيته وشعره المسدل على ظهره اتكأ شارلي بمرفقيه على الطاولة التي بمواجهتها الراهبة الشابة وطقم القضاة المكون من أسقف الكنيسة وأعوانه من رجال الدين.. كانت الأسئلة كلها دائرة حول كيف؟؟ ومتى؟؟ وأين؟؟

لكن هذا كله لم يسد لدى شارلي طريقة نحو الحقيقة المجردة.. هذه الراهبة تحت ضغط الفصل والتشريد أنا أعرف كم هذا قوي لا يحتمله إنسان!!

هذا ما دار بذهنه حين طرق بابها في غيبة من الناس واصطحبها إلى خارج.. أنكرت أن يكون ما تحمله بين أحشائها سفاحًا، بل إنه من زوجها قبل أن تعلن نصرها للصليب وخدمة الرب، لكن قليل من الضغط ووعد حق بأنه قادر على أن يحميها من شر من يتربص بها، فانهارت الفتاة وقالت: إن ما ألم بها من نكبتها هذه هو أسقف الكنيسة ورئيس إدارة جميعتك!!

- اعتقدت في جماعتكم ملاذًا من شر الفقر والحرمان إلا أني رأيت هول الاضطهاد والقهر والظلم وفي النهاية معاشرة دون حق!!!

كانت الصور التي التقطها المصورون في معرض الصحف لأسابيع بين زوايا لمواد الرأي والافتتاحيات قد أزعجت الكثيرين...

حتى إن هناك من تتطاول ونادى بقطع المعونة ومد المؤن إلى مصر!!!

وهذا آخر ما طالعة إسحاق ميكاروس عن جريدة الدايلي ميل البريطانية.. فكان بين فكي الكماشة أعماله الدينية ونشر دينه والإشارة بالعصاه الغليظة، وبين أعمال شريكه اشكنازكي مع المصري المفلس رؤوف، فكان هذا الاجتماع.

شارلي واشكنازكى وإسحاق ومكنمارا رباعتهم مجتمعون في بيت إسحاق بناتيسبريدج الحي الراقي بلندن.

- طبعًا لا يجوز أن نقطع ما عملنا عليه لفترة فما نحصل عليه من وراء العون أكثر من مجرد بلبلة طارئة لن تثمر بشيء...

قالها اشكنازكى لإسحاق،فرد إسحاق:

- أنا لا أرى أيضًا كيفية لقطع المعونات العينية أو النقدية.

فقال مكنمارا:

- لكن يمكن الإشارة إلى ذلك.

التفت إليه الجميع حيث أشار بأطرافه القصيرة:

- إن الهدف من القوة الناعمة هو الوغز دون ألم أو الجرح دون نزيف، فإذا أظهرت بعض الشدة لقاء أن تقلل من فرصة زيادة المعونة أعتقد أن هذا يفيد.

فقال اشكنازكي:

- أحسنت يا ماك.. أضف إلى أن صورة راهبة شارلي هذه ستزول من صفحات الورق، لكن هذا ليس الآن، فأنا على موعد مع روؤف...

قاطعه شارلي :

- معذرة سيد جاك لكن النتيجة ستأتي متأخرة.. أصوات الصحف وألسنة الناس والأقوال لها ثمنها.. فقد عزلت مدير الجمعية عن منصبه وقد كتبت الصحف هذا أيضًا لكن هل عزل هذا عن الدين؟ هل قال أحد: إن المسيحية بعيدة عن التعصب؟ أو نبذ الشذوذ والعهر؟ لابد من عزل كامل للمعونات التي تصدق بمعرفة أبي...

حاول اشكنازكي المتابعة في كلامه إلا أنشارلي واصل..

- أنا أعرف أنك لست ديني ولا تقيم للدين مقامه لكن حين تكون صاحب عقيدة ستشهر كافة أسلحتك نحوخصمك.

رد إسحاق هنا:

- لكن يا شارلي مثل هذا الأمر صعب؛ فأنا أيضًا أنتفع من التعاملات المصرفية التي تجريها البنوك الغربية مع المصرية، وهو أمر يصعب البت فيه بسهولة.

نظر شارلي حوله.. لم يجد ناصرًا له.. تذكّر كلمات ميولا أن ما من عقيدة أقوى من المنفعة، تذكّر أن ما دفع بمده الديني في البلاد المصرية ما هو إلا شرط مدفوع مقدمًا من أبيه أو منه شخصيًا، هنا قال له اشكنازكي، وابتسامته تبرز نابه الذهبي:

أمهلني ياسيد شارلي.. أمهلني، ولن تندم أعدك....

***

بعد عملية نقل الدم والتغذية التي تتلقاها هالة باتت أقرب إلى ميولا من وريدها وشريان حياتها وتاج رأسها...

حتى إسماعيل بات يمرح ويلهوكمن أتت به أمه إلى الجنة: خدم.. وطعام فاخر.. وأزياء عالمية.. وأسفار على طائرة ميولا الخاصة تارة أو على يختها الأسطوري تارة..

لم يجد أيًا من المنغصات التي اعتادها حتى إنه لم يعد في عبادته منغمسًا، كما كان، لم يعد يصلي على وتيرته المنتظمة، لم يعد يسأل الله أن ينجيه من براثن الحياة الأليمة، ونفوس الناس البغيضة، لم يعد يفكر إلا كيف يرضي أهواء ميولا ربة نعمته وواهبة نعيمه.

هذا ما دعى ميولا ذات مرة إلى نقاشها حول صورة الرب مع إسماعيل وما أضعفها في نفسه الآن كم هي فتنة الحياة لمن لم يتحلَ بالعقل والروية والفطانة إلى مظاهر الأمور؟؟

هل الأمر يحتاج إلى التفكر بعمق في وجود الله أمام تأثير الملذات؟ أم أن الفطرة كفيلة بإيصال الإنسان إلى عدم الجدالية والسقوط في شرنقة السؤال اللزج "هل الله موجود"؟

تأثير ميولا ترباتونى على إسماعيل وهالة لم يحملهما إلى وثنيين ولا إلى عقائدين، فلا تفكير ولا عقلية راجحة كافية، ولا إيمان بمقدرات الله العالية، حتى حين صارحت هالة أخاها بمضاجعتها لميولا لم يترعج بل أشاد بها وحثها على المزيد.

- ربما يكون في هذا مدخل آخر لتمسكها بك..

هكذا قالها لهالة ببساطة...

بينما هالة لم تكن تدرك خيط العنكبوت الذي التف حول عنقها، فما قالته ميولا عن اللهو وعن إرضاء النفس، وهو أعلى القيم أن يتشرب الإنسان من رحيق متعته إلى أبد الآبدين، وأن ما عدا هذا ما هو إلا عبث جدلي، لا يجدي نفعًا؛ فقد فطر الإنسان على الحاجة والعوز فإذا صليت لربك هل ينجيك من غفلة الدهر؟ أم أن في هذا جدلًا أيضًا..؟

في ظل ميولا لعب إسماعيل على أن يصبح أكثر من مجرد رجل عادي في بلاطها الإمبراطوري.. حاول أن يكون مديرًا لمقر حكمها بمصر لكن عجرفته الزائدة أوصلته لعزوف الخادمات الهنديات عن العمل في مقر ميولا.. خصوصًا حين تكون الأخيرة في أسفار أعمالها منهمكة، وطبعًا ترتبط بها هالة..

كرّر المحاولة في إدارة أحد مشاريعها التجارية إلا أن ما من خطوة واحدة وُفق فيها.. شعر بالخسارة وشعر بالندم عن افتنانه بنفسه!!!

حتى أنه ذات مساء جالس أخته يحكي لها ما حل به:

- كم هذا خانق..كم هو مثير للشفقة أن يتعثر المرء في تصنيف شخصه أين يقع؟ وماذا يفعل؟

أطرقت هالة برأسها.. حين ردت:

- أنا أيضًا لا أعرف ماذا يدور بذهني حيال هذه المرأة.. في حين كنت بكرًا عذراء لا أطأ النساء كنت أشعر ببكارة قلبي وطهارة نفسي، أشعر بسمو روحي، فحين يبيت المرء وهو قرير العين ويشعر بأريحة النفس أعتقد أن هذا أفضل.. رغم ما عانيناه أيام حياتنا في المخر إلا أن ما نحن فيه أشعر كمن يرتدي ما ليس له، أو ينتعل حياة أكبر من مقامه.

تمتم إسماعيل:

- هذا أيضًا جزء مما أشعر به.

هنا قالت هالة بسرعة:

- إذن علينا الرحيل.

قطب إسماعيل حاجبيه متسائلًا:

- ماذا..؟ نرحل عن ماذا..؟

قالت هالة بجدية:

- نعم نرحل عن هنا نرحل إلى أي جهة، حتى لو اضطرنا هذا العودة إلى المخر!!!

قال إسماعيل ضاحكًا:

- أنا فعلًا لا أعرف عن أي شيء تتحدثين، إن ما نشعر به ما هو إلا شعور عارض يجتاح من تعود على حياة البؤس، وينتقل إلى النعيم بأم عينه، ثم ما يلبث أن يعود إلى صوابه، ويعتاد الأمر، اهدأي أنا أعرف شعورك، لكن هذا ليس معناه...

قاطعته هالة بصرامة..

- أنت لا تعرف شيئًا.. أنا أعرف ما لا تعرفه أنت.. إن هذه السيدة تتغذى عليّ كطعامها، ثم إن عملية علاجها هذه قاتلة تنهك كل قواي، أضف إلى ذلك أنني اعتدت على معاشرتها معاشرة الأزواج، وكم هذا مقرف!!

قال إسماعيل ببرود:

- كما أخبرتك.. الأمر يتوقف على اعتيادك إياه.

نظرت له هالة دون أن تعلق، فتابع...

حسنًا أخبريني كيف ستكون المغادرة؟؟؟

ردت هالة وهي تحك رأسها:

- هذا ما أفكر فيه.. وعليك أن تساعدني، لقد عرفت كم هي مرتبطة بي، لكني أنفت هذا العمل و....

صاح إسماعيل بحنق:

ومن قال إني موافق على الرحيل؟ هل تودين الرحيل والعودة إلى الأحف وسعاد؟؟؟ هل تودين العودة إلى مخز الشخاخات برائحته التي ما من أبلغ منها إلا اسمه؟؟؟

هل تودين العودة إلى أناس انسلخوا عن فطرهم وأضحوا عبيدًا للأحف؟؟؟

إنهم حتى لا يصلون ولا يقيمون الصلاة إلا في وجوده!!!

ردت هالة بصياح مماثل متهكمة:

- عبيد..؟ تمامًا كما نحن الآن، أم أن انغماسك في نعيم ميولا سيجعلك تمتطي ظهري كالبهيمة السائمة كي تحيا هنا أبد الدهر.. ما حسبت أن تتغير بهذه السرعة.

قال إسماعيل مبررًا:

- بل حسبت أن يوم الحادث قد أوصد على هذا المخر إلى الأبد!!

ألا يثيرك أن تتمشي في شوارع المخر وحوانيته وأناسه.. حتى يوم الحادثة أنكر الجميع الصراخ وأصوات النباح وصيحات النجدة ؟!

صاحت هالة بحدة:

- وأين كنت حين كنت بمواجهته وحدي.. هه؟

وأشاحت بذراعيها وتابعت:

- أعرف أنك تشعر بالذنب، لكن حديثك الآن يقول: إنك برأت نفسك وغسلت ذنبك!!

ترقرقت عيناها بالدموع وارتجف جسدها فما إلا أنه أشفق عليها واحتضنها.

وقال بصوت خفيض:

- أنا آسف.. لم أكن أود التطرق إلى هذه النقطة، لكن باختصار نحن الآن في نقطة اللاعودة، صدقيني الأمر بالغ الصعوبة.

نظرت إليه هالة قبل أن تتطلع إلى معصمها الموشوم..

- سنظل على صورتنا هذه لن نتغير إما في عباءة الأحف أونعيم ميولا الزائف، سأهرب حتى لو كلّفني هذا حياتي.

***

هوت أسهم شركات رؤوف داغر ال30 بعد أن ارتفع سعر السهم بشكل خيالي، وتهافت الجميع على الشراء والبيع، وجنى الأرباح، تسارع المستثمرون إلى البيع قبل أن يقعوا في هوة السهم السحيقة ويخسروا أموالهم، لكن هذا أيضًا لم ينجحوا فيه، ولم ينجيهم من شر الخسارة وما زاد الطين بله خبر هروبه الذي تسرب بعد أن أعلنت أحد الصحف الخاصة خبرًا تؤكد فيه هرب رجل الأعمال المصري رؤوف داغر، فباتت شركاته على قيد الإفلاس.. لكن رجال الحزب نفوا هذا، وقالوا: إن رؤوف سافر في رحلة عمل طويلة، لكنه عائد دون شك.. لكن...

المحكمة أصدرت قرارًا بإفلاس رؤوف داغر عندما عجز عن سداد الديون المستحقة للدائنين، وقد حاز الحكم على قوة الأمر المقضي به؛ أي أن الحكم نهائي غير قابل للطعن فيه أو تقديم أي

استئنافات جديدة حتى لو ظهرت مستندات جديدة تفيد في مسألة سداد ديونه!!

هذا أيضًا كان على الصعيد السياسي موقفًا قاتلًا؛ فقد تم استجواب وزيري الاستثمار والمالية بالمجلس التشريعي للوقوف على ملابسات كيف تم تسريب مليارات الجنيهات ووضعها في يد شخص واحد وعلى معرفة منهما...

إلا أن الصياح والنباح والصراخ هو السائد في جلسات هذا المجلس الموقر.. هذه الأنباء كان رؤوف على دراية بها، وشعر أن مناصريه لم يتحركوا لنصرته، بل بقي وحيدًا في منزله المطل على البحيرة الهادئة...

إذن ليس أمامه إلا أن يرتمي في أحضان شركائه الأجانب، وهم أكثر رحمة، لكن في الباطن هم عليه أشد قساوة من الصخر.

سافر رؤوف إلى حيث يلتم شمل الذئاب على وليمة الشاة الهاربة!!!

***

ليك دستريكت – مقاطعة كمبريا – إنجلترا:

على طريق حصوي يخترق الوديان كانت السيارة بورشه تسير بتأنٍ..

هنا ليك ديستريكت أومنطقة البحيرات.. تقع شمال غرب الجزر البريطانية، وهي في الأصل كانت مقلعًا للحجارة خاصة الحجارة البركانية، وحجارة الأردواز التي تستعمل عادة في كساء الأسقف بل إن غالبية البيوت والفنادق تُبنى وتسقف من حجر الأردواز.. بقت هذه المنطقة مجالًا قويًا لجذب السياح لبكارتها وسحر طبيعتها ومع ارتباطها بالقطار صارت أقرب إلى العالم وبالتالي ازداد عدد الزائرين، حتى جاء عصر السيارة فأقرت الحكومة وضع المنطقة الغنية بالطبيعة البكر الخلابة قيد الحماية، فصارت محمية طبيعة مع بداية الخمسينيات لكن هذا لم يحرم المنطقة من الوفرة السكانية؛ إذ إن ليك ديستريكت تحظى بتعداد سكاني يصل إلى 220 ألف نسمة حتى إن كاتبة سلسلة الأفلام الهوليودية الشهيرة هاري بوتر بياتريس بوتر لها مسكن دائم

هناك، وبها من البحيرات الكثير وهو ما أعطاها اسمها "أرض البحيرات".

بين الوديان الجبلية الخضراء وتحت سماء صافية زرقاء كان هذا الكوخ الأردوازي فيه محل اللقاء.

كان اشكناركى يعرف جيدًا أنه بات المخرج الوحيد لرؤوف، وهو القادر على سد ديونه التي سيعجز عن سدادها، باختصار هو طوق نجاته.. لكن هذا الطوق له ثمنه.. فهو يملك مفتاحًا يلج به إلى عالم رؤوف دون مقاومة منه، وهو الأساس الذي يكرز اشكنازكى طريقه نحو فريسته.

أخذ اشكنازكى قطعة من شيكولاته (جودريه فولاراخ) الداكنة وكسر حاويتها الخزفية.. نوع من الترف المسلى..

هكذا قالها اشكنازكى ذات مرة؛ فليس الترف أن تنعم بنعمة ما لكن أن تشعر أنك تتسلى بما تنعم فهذا أعلى وأسمى!!! هنا قال مكنمارا وهما واقفان في ساحة المترل يتفحصان الأرضية الأردوازية، ويداعب حوافها الحادة بيديه حين قال:

- أعتقد أن عليك التمهل قليلا سيد جاك.

نظر له جاك وهو يأكل حلوته..

- أتمهل فيمَ..؟

تابع مكنمارا وهو يزال يداعب حواف الأحجار..

- قيمة هذه الأسهم المعروضة الآن للبيع كانت قبل الأزمة تتجاوز الأربعين مليار دولار، وكان وقتها سعر السهم يتجاوز الثلاثين جنيهًا مصريًا بعد الأزمة بات سعر السهم لا يتجاوز ثلاثة قروش!!!

إذن أين الاستثمار هنا؟؟؟

هل تبتاع شيئًا خاسرًا وتعمل على إيقاظه؟؟

لا أعتقد أن هذا من شيمك.

استحالت السماء الصافية إلى غيمة قاتمة وهبت رياح خفيفة من الأنحاء حين قال جاك باسمًا كاشفًا عن نابه الذهبي:

- هذه الأنباء سارة.. وأنا أرى فيه مكسبًا كبيرًا، وليس خسارة كما تظن، فمن خلال ما رأيت في نظام البلاد التي ترزح تحت فقر وجهل شعوبها أيقنت إلى حقيقة أن الفرد هو من يؤثر ويتأثر وبالتالي هو من يؤثر على الجمهور، هذا واضح في علم نفس الجماهير.. الفرد.. الفرد الأوحد الأشبه بالإله..

فرد تجري كل عملياته كمقدسات في معبد مظلم لا يكتم أسرارها إلا كهنة يرتدون السواد ويقودون العامة في غياباتهم إلى ظلام حالك...

نظر له مكنمارا حين كسر جاك قطعة خزفية أخرى وأخرج منها قطعة الشيكولاته، وقال:

- لا أفهم.

نظر جاك إلى السماء الغائمة وقال:

- الأمر بسيط هذه الخسارة التي منيت بها أسهم شركات رؤوف ليس لتعاملها الحقيقي في البورصة، بل إن ما فقده لا يتجاوز الثلاثة مليارات، لكن لعدم ارتباط الشركات بالعمليات الحقيقة، بل بارتباطها باسم الفرد فانكمشت الثروة إلى هذه القروش القليلة لمجرد (أنباء) عن هروبه، هروبه هذا أوقع أسهم شركاته في خسارة أكيدة...

- هل فهمت الآن ما أعنيه بكلمة (الفرد)؟؟؟

وأشار بسبابته ووسطاه من كلتا يديه حول كلمة الفرد،وتابع :

- إنها الشخصية الأهم والأعم في النظام كله، فكيف لمجرد هروبه لا ينقلب النظام وتتوقف عجلة الحياة؟

فضحكا حتى القهقة، وتابع جاك بأنفاسه المتقطعة:

- إنها فكرة القيادة.. تخيّل قطيعًا من الغنم فقدوا راعيهم أين تذهب الخراف؟؟؟

أشار إليه مكنمارا ضاحكًا:

- في أحضان الذئب!!!

هنا قال جاك بجدية:

- نعم لكني لست ذئبًا، بل إن ما أفكر فيه هو استئجار الذئب بثمن بخس ليكون راعيًا!!!

تفكر مكنمارا مليا...

- اهه...فهمت الآن!!

لم يكملا حديثهما حتى توقفت البورشة الأرجوانية أمامهما عند مدخل البيت الحصوي

- ها قد أتى الفتى الطائر بصحبة أبيه.

ترجل السيدان وأصوات الحصى تدهس تحت أقدامهما حين تصافحا، فقال إسحاق معلقًا على رداءة الطقس:

- يبدو أنها تتوعدنا بفيض من ماء وفير.

هز اشكنازكي كتفه..

- إننا على مدخل العام الجديد.. وهذا وقتها.

- قال مكنمارا ضاحكا:

- ما أفكر فيه الآن هو أن نهرب إلى الداخل.

فضحك رباعيتهم، واستقر بهم المقام أمام المدفأة.

***

أفول الأصنام

لم تظهر هالة تمردًا رغم ما أقرت به في الهرب من بلاط ميولا رغم عدم موافقة أخيها، كانت عودة ميولا من رحلة سفرها مرهقة جدًا؛ فلا زالت أعمال المنظمات غير الحكومية تطاردها لأجل رد حقوق العاملين التي تسببت في أضرار جسيمة بهم، بعضها أصبح علاجها مستحيلاً، فبقي عاهة مستديمة، بالإضافة إلى مصوري الفضائح والمشاهير، لكن الطامة الكبرى أن انهيارًا كبيرًا بأحد مناجم النحاس العائد ملكيته لها قد هوت إحدى الدعمات الفولاذية، فانحصر عدد من العاملين في الداخل، ولا يعلم أحد مصيرهم، لكن الأنباء العالمية تسلط الضوء على الظروف التي يعانيها عمال المناجم وظروف أعمالهم القاسية، فكانت عودة ميولا إلى مصر هربًا من مطاردة الصحافة أمرًا حتميًا، وهي هنا تقف في محيط قوتها تعرف كيف تدافع عن نفسها مادام توجدت في بلاد الشمس الذهبية من يأويها.

كانت إحدى الجلسات التي قامت بها هالة وميولا لنقل دم إلي الأخيرة، فكانت هالة هناك دون إثارة مشكلة أو حتى إبداء تذمر...

على عرشها المرمري جلست ميولا كحاكم للعالم والخادمات الهنديات استعاضت عنهن ببدائل من أمريكا اللاتينية، لهم في الخدمة الفندقية باع طويل وصبر على الشقاء لا يوصف، وطاقة على الجهد والكد يحسدون عليه.

كانت ميولا في حالة مزاجية غير مستقرة، وهذا ظهر بسهولة حين حاول إسماعيل أن يستأذنها في أن يرافقها في رحلتها القادمة، فقالت بحنق:

- اسمع.. إن فشلك يسبقك، وأنا لا أرى منك طائلًا.. لولا شقيقتك ما كان لك مكان هنا، أنا فقط حريصة على ألا أتخذ قرارًا وأنا في حالتي هذه؛ لذا لا تدفعني كسيارة تقف عند قمة المنحدر وإلا دهستك، أتفهم؟؟؟

طبعا هذا لم يرق لإسماعيل الذي ذهب إلى هالة يحمل في نفسه سخطًا وضجرًا كبيرين:

- أنا لا أفهم ما خطب هذه المرأة؟؟؟

- مالها؟؟؟

أشاح بيده في هواء:

- تتحدث في أمرنا كأننا قطع في أثاث بيتها!!!

ضحكت هالة..

بل أضل.. إنها تنفق علينا إلى حين ينتهي علاجها، ترتوي من دمائي حتى يتشبع جسدها ويكتفي بما يجعله طبيعيًا متوازنًا بعدها

ستتمنى أن تبقى كقطعة أثاث في بيتها، هل فهمت أنك لا يمكنك أن تقاوم فكرتي في الهرب؟

ولا يمكنك أن تنسلخ عن نفسك يا إسماعيل؟

أنت مثلي.. أرق من ندى الصباح.. مجرد كلمات محمومة بالغضب تحوّلك إلى ثائر ناقم حاقد غاضب؟ إن أولئك القوم قلوبهم كالحجر، ميولا هذه على استعداد أن تأكل رضيعًا على العشاء، وتخلد إلى نومها قريرة العين!!!

هل أنت مثلها؟

هل تستطيع أن تكون مثلها؟؟؟

طالت ملامح التفكير إسماعيل حين أكملت هالة..

- ألم تفكر يومًا في أن ما تفعله معي من امتصاص دمي قطرة قطرة تمامًا كمن يأكل من جسدي قطعة قطعة؟؟

أنت لا يمكنك أن تتصور ما يسري تحت جلدي جراء ما تتعطاه هي كل يوم من دمي وعلى أن أظل سعيدة باسمة، أرفل في جنان هذه المقيتة التي تدعى ميولا ترباتونى، أتعرف حين وطأها شعرت أنها تكبرني بألف عام كاملة، وأنها أضخم مني بمئات المرات، إنها شخص مريض بجنون العظمة، تخيل أنها تستحم بصابون مصنوع من دهون جسدها كما وصف لها أطباؤها!!!

دارت هالة بعينها بين التماثيل المرتكنة عند زوايا الحوائط وعيناها ترقرت بالدموع...

- راودتني عن نفسي حين تحدثنا عن الجنس والمعاشرة، وقالت إنها لم تمارس جنس الخناث من جهتي أنا أردت أن أروّضها وأن أكسر ما بنفسي تجاهها أردت أن أقتل الأحف فيها، أردت أن أقتل سعاد، وكل من مسني بسوء وقبلهم أبي سامحه الله – أردت الثأر لنفسي أن أغمد سيفي في أحشائها، لكن هذا الشعور لم يبلغني قط، بل على العكس تمامًا شعرت أنها تأكلني تتلذ بي كقطعة حلوى تذوب بين فكيها، إنها أكبر من أن ننظر إليها حتى يكفيك أن تسير في ركابها فقط.. صدقني أنت مثلي والهرب هو حلنا!!!

فقال إسماعيل متسائلًا:

- لكن إلى أين لم يعد لنا مأوى إلا هنا؟؟؟

مسحت عينها وقالت بتحدٍ:

- تمامًا هذا ما يخامر السجين، إن العالم كله بات أضيق من نعل حذائه.. لا تقلق إن النهاية اقتربت....

***

نوجه عناية السادة المواطنين بهطول الأمطار مصحوبةً برياح قوية، وأن منسوب البحيرات سيرتفع إلى حد لا يسمح معه عبور البحيرات بالزوارق، نرجو اتخاذ الاحتياطيات الواجبة، وفي حالة الطوارىء يرجى الاتصال (...) كونوا بمنازلكم.

كان هذا هو المذياع مشيرًا إلى تنبيه بأحوال الطقس.

- أعتقد أن رؤوف لن يحضر.

قالها إسحاق:

لكن جاك المتحمس قال، وهو يطالع الطريق الحصوي من النافذة الزجاجية التي ارتسم عليها خيوط الماء المنهمر بغزارة:

- كلي ثقة بأنها دقائق فاصلة وسيطرق بابنا.

قال شارلي وهويشذب ذقنه:

- كم يعجبني حديثك.. فأنت تقامر بأي شيء حتى في أبسط الأمور، هل هي عادة أم عناد صبياني؟؟؟

ضحك جاك،وقال:

- سؤالك خبيث ينطوي على نوع من اللبس، فأنا فعلًا لا أقامر بشيء عن علم تام وإلا ما أصبحت مقامرة، بل جزم صرف والمقامرة أيضًا تحتاج إلى نوع من العناد مع الحذر، والحذر هنا بقدر ما تكسبه أوما ستخسره.

وأشار بإصبعه الوسطى عقلته الأولى مبتورة، وقال:

- هل تعرف قصة هذا؟؟

نظر شارلي لأبيه،وقال:

- لا.. لم يسبق أن قصصت عليّ حادثة إصبعك هذا.

جلس جاك وقال وهو بمواجهة شارلي..

- هذا أول رهان قضيته في حياتي!

فأرخى ظهره كمن يتذكر، وقال:

تقريبًا كنت بعمر الرابعة عشر.. راهنت أبي على أن أمي ستأتي من الشارع الخلفي، وراهني هو على أنها ستأتي من الشارع المواجه لنافذة غرفة نومه، وانتظرنا لنصف ساعة، وكان هذا وقت الرهان ومحل الرهان هو أنملة أصبعي الصغير، كسب أبي الرهان وأصر على أن يقطع أصبعي ما صدقته أبدًا حتى رأيت عقلتي تتراقص أمامي بتشنجات عصبية ورحت بعدها مغشيًا عليّ من فرط الألم ومنظر الدماء المتطاير!!!

أطلق مكنمارا سبابًا حين قال شارلي بلهفة:

- وأمك ماذا كانت فاعلة؟؟؟

ضحك جاك لثوان..

- أمي وقتها لم تكن بالخارج، بل كانت تنعم بأحلى لحظات نومها في غرفة نومها ذات النافذة التي راهن أبي أنها ستأتي من الشارع المواجه لها، أطبق الصمت على الجميع متأثرين بقسوة الموقف وغدر الأب، لكن جاك قال:

- في اليوم التالي قال لي (هل تيقنت ما تراهنت معي عليه) هل غاضب منه؟ بل على العكس حين كبرت لم أخسر في حياتي رهانًا حتى ولو كان بسيطًا، علمني كيف أن أتعلم من الجميع ولا أثق بأحد، كيف أكتب عملي ومجهودي وحدي دون الاعتماد على أحد، وأن أكون أكثر حيطة بكل ملابسات الموقف وتفاصيله؛ لأن أبسط الأمور تحيل الموقف إلى نقيضه.

أومأ شارلي:

- تربية حسنة..

ضحك إسحاق حين قال:

- والآن ماذا لوخسرت رهانك وما محل خسارتك؟؟؟

ضحك جاك،وقال:

- أنتم تقولون: إنه لن يأتي، وأنا أقول...

قاطعه صوت رنين جرس الباب ففتح خادم الكوخ ليطل رؤوف بوجهه الذي أصابه الإعياء رغم بسمة الثقة التي ارتسمت على شفته، فصافح الجميع واستقر به المقام، فسأله مكنمارا عن سوء الأحوال في الخارج وكيف أتى إلى هنا في ميعاده تقريبًا.

قال رؤوف، وهو ينفض الماء عن معطفه الجلدي:

- الأمر في غاية السهولة فقط أبرز ثقل جيبك وستسير الأمور كما تشاء..

قال جاك متفكهًا:

- دفعت مالًا كثيرًا ليعبر بك أحدهم إلى هنا صحيح؟؟؟

هز رؤوف رأسه وقال في هدوء:

- صحيح أوصلني إلى هنا زورق صيد صغير.. تبدو قوانين المحمية هنا صارمة، فقد هرب الرجل كثيرًا بين الأركان والزوايا الصخرية غير المنظورة حتى أتى بي إلى هنا!!

ثم قال، وهو ينظر إلى الجميع:

- لولا معرفتي بالله لقلت: إن المال إله جل علاه.. فهو يدفع بالناس دفعًا، والآن ها أنا ذا كما اتفقنا كيف ستسير الأمور؟؟؟

كانت هذه أول مرة يرى فيها شارلي ومكنمارا واللورد إسحاق الذي لم يغير نظرته نحورؤوف وما يمكن تفسيرها

أنا لا أرى إلا حذاء بلا نعل أو عاهرة بلا ثدي.. كان رؤوف يجيد إلى الآن قراءة خواطر ونظرات من حوله، ويعرف أن قيمته باتت معدومة تقريبًا وأن الحل بقى بيد اشكنازكي، إما الهروب من هذا الموقف الخانق، وإما السقوط في بئر الهوية بلا رجعة...

لكن رؤوف أيضًا لن يلين بسهولة لمطالب جاك فهو يرى في عين شارلي عين المنتقم وربما يلعب اشكنازكي دور المجامل على حساب رؤوف في تلبية مطالب شارلي ما دام الأول لا يزال محافظًا على شراكته مع اللورد..

خمسة رجال ملتفون حول مائدة صغيرة من حجر الأردواز غارقون في بطون مقاعدهم الجلدية الوثيرة، يحتسون النبيذ في بطء.. جو من التوتر يشمل الأجواء، الجميع يعرف موقف الشريكين الغريمين حين قال جاك:

- الخطوة القادمة دقيقة تستلزم قرارًا صائبًا سيد رؤوف.

- وأنا لها مستعد.

قالها رؤوف بسرعة مباغتة كمن يرد دون تفكير، اعتدل جاك بمقعده ووجه حديثه لرؤوف:

- إن ما سأعرضه عليك فرصة أخيرة للنجاة لن تتكرر.. سوف أبتاع أصول شركاتك بما يفي لسد ديونك مارأيك؟

-. سداد ديوني ثمن لشركاتي، أليس هذا ثمنًا بخسًا؟؟؟

- هذا هو المعروض وأعلم أنها فرصة لا تتكرّر.

مط رؤوف شفته،ثم جال ببصره في وجوه الجميع، ثم قال بهدوء:

- وإذا رفضت؟؟؟

أشاح اشكنازكي بيده..

- ترفض ماذا؟ طوق النجاة؟؟ لا أعتقد أن ما من عرض أفضل من هذا.

هنا صاح رؤوف:

- بل إنها خدعة.. تود أن تدفع حفنة قروش لقاء أراضٍ وشركات تقدر بمليارات، كل ما أطمع فيه هو أن أسدد عجزيَ المصرفي لأبقى على السطح لا أن أخسر شركاتي ورأس مالي، أين هي إذن الشراكة؟؟؟

تبادل الجميع نظراتهم فيما بينهم صامتين حين رد جاك:

وما الدافع لتغريمي قيمة إنقاذك؟ نحن شركاء في مكسبنا حتى الفترة التي بدأت فيها الأخبار بقذف سناجها الأسود علينا، حين أخبرتك بالتوقف، لكنك أصررت على الاستمرار ومزاولة الخدمة بعبثية والنتيجة مال مهدوم، وحق محروم أنت منه، ثم إن الغريق لا يُملي شروطًا!!!

- أهذا آخر قول؟؟؟

- نعم.. وتذكّر جيدًا أن من يبتاع قيمة سداد ديونك شريكك، وليس أحدًا سواه، إنما هبة لا تُرد قبل أن تكون مسألة إنسانية.. صدقني بموجب اتفاقنا الجديد سوف ينصلح الحال.

فكر رؤوف مليًا،ثم قال:

- لا لن أقبل أن أترك حمولة تزن أطنانًا ليحملها حمار كمن على ظهره قشة، عرضك خاسر سيد جاك.

تفكّر رؤوف مليًا، ثم أكمل...

- لكن أليس من بين شروط العقد أنه في حالة عدم الربح ستدفع أنت القيمة الافتراضية.. فما بالك بالخسارة!!!!

قال اشكنازكي،وهو يشير إلى شارلي:

- أتتذكر ما قاله السيد شارلي عن تتبع الآثار سيد رؤوف؟ في الحقيقة لم أسعَ لتحصيل سقطة أو شاردة في أثرك لكن البركان لا يثور إلا وهو يقذف بحممه.

ضاقت عين رؤوف غير مستوعب ما يشير إليه، فأكمل اشكنازكي، وهو يعبث بجيب سترته:

- ما كنت أحب أن أنتقل إلى مثل هذا الأسلوب.. حسنًا ربما يخصك هذا الأمر.

وبيده مسجل صغير أداره وأمام الجميع سمع رؤوف صوت عليا وهي تتضرع باكية شاكية مايفعله زوجها بابنته.

لم يصدق ولم يفهم رؤوف كيف علم بأمركهذا؟؟؟ ومن أين تحصّل على هذا الشريط؟؟ لربما في الأمر خدعة حتى أنه وثب يخطف المسجل الصغير ويعيده مرة تلو أخرى، نعم هذا صوتها وتذكّر الموقف كلمحة سريعة مرت أمام عينه، لقد بات أمره خبرًا يُذاع على الناس،ويعرف به ألد الخصام وأصدق الأصدقاء معًا، وعلامات السخط والدهشة وعدم الاقتناع مرسومة على الجميع.. هنا اعتدل جاك في مقعده ناهضًا..

- اسمع.. اسمع يا سيد رؤوف دعني أخبرك أن طوق النجاة أضحى سرابًا.

نظرات التبلّد والوجوم على وجه رؤوف!!!

- سراب ماذا تعني؟؟؟

أشار جاك إلى مابيد رؤوف..

- القاعدة بسيطة ما الإجبار في دفع مال ما دام بالإمكان أن أحصل على ما أريد بلا مقابل أصلًا؟؟؟

- ابتزاز هه..؟

مط جاك شفته وقال مبتسمًا، وهو يشير نحوه:

- ليس بالضبط، لكن بالإمكان القول كيف أحمل على ظهر حمار أحجارًا كريمًا حين يكون بالمستطاع أن أحمله بسماد الأرض؟؟

وتابع بجدية...

- إن المعلومة تقي شر الحرب أوتنهي حربًا، هذا بين الأعداء لكن الأمر أقوى وأشد قساوة بين الشركاء، فكما الحال مع التاجر حين يكون مفلسًا يبحث في أوراقه القديمة لعله يقف على ما يُنجيه من شر الإفلاس.. المعلومة هنا تقدر بالمليارات، أليس كذلك؟؟؟

أسدل الصمت ستائره على الجميع لدقائق قبل أن يقول جاك:

- الأمر لا يحتمل الانتظار لا داعي لاستهلاك مزيد من الوقت، إن ما تحمله في يدك من السهل في غضون ثوانٍ أن يصبح على الملأ، وتخسر اسمك وسمعتك التي بنيتها كراهب في المعبد، كم أُحب الفضائح!!!

قالها ضاحكًا فرد رؤوف متشككًا ويلقي بالمسجل على الطاولة الحجرية:

- حسنًا.. ما الضامن أنك لن تفعل الأذى وتُحيل اسمي إلى غبار منثور؟؟؟

هذا بالطبع لن يحدث لأني أريدك في الخطوة القادمة.

- الخطوة القادمة؟؟؟!! لا أفهم...

نظر جاك لمكنمارا وقال لرؤوف:

- حين يكون الذئب راعيًا بثمن بخس..كم أحب هذه الحكمة!!

عقد رؤوف حاجبيه :

- ذئب بثمن بخس..لا أفهم!!!!

***

تبدو كعملية انتقامية فقد سجلنا بتر اللسان الذي تبدل لونه بين الأخضر والأزرق والرمادي البني وبسبب غازات التحلل انتفخت الجثة، وانفصل الجلد عن اللحم فباتت الأوردة واضحة للعيان نميزها بسهولة، وقد سجّلنا أيضًا اقتلاع لموضعي الثدي ويبدو أن المجني عليها رأت سواد العذاب؛ لأن البتر تم بآلة غير حادة، وهذا واضح على ملامحها بالإضافة إلى تحطيم عدد من ضلوعها أدى إلى نزيف داخلي بالرئة وتوقف القلب.

هذا ما قام محقق الأحوال الجنائية بقسم الطب الشرعي بتسجيله...

اشتكى الجيران من نفورهم من رائحة نفاذة نتنه تصدر عن الشقة المقابلة فكانت عملية البحث وجمع الاستدلالات أخذت مسارها بعد أن اقتحموا الشقة الموصدة ليجدوا امراة غارقة في حوض حمامها ودمائها مختلطًا بالماء الذي تبدلت خواصه وأضحت رائحته لا تطاق بل كانت الأبشع على الإطلاق...

هنا واصل المحقق حديثه حين أخذ آخر لقطات لصور الحادث.

- وقد نستدل من الساعة التي تحيط بمعصمها على الوقت إذ إنها توقفت في العاشرة وخمس دقائق، وهذا مايفسر أنها ما كانت لتدخل

الحمام للاستحمام رغم أن ثيابها متروعة عنها لكن واضح أيضًا – أنها متروعة بفعل الجاني الذي اغتصبها، وهذا واضح حين رفعنا عينة من أثر لسائل منوي عن فرجها.

- يبدو أن الجاني لم يكن يكترث لا لآثار ولا لبصمات ولا لأي شيء، لقد فعل فعلته تقريبًا إما دفاعًا عن الشرف أو انتقامًا لتصفية حساب قديم.

- ربما كل هذا سيكون محل تخمين، لكنها مسألة وقت وتظهر النتيجة.

في هذه الأثناء كان قد تم تدوين اختفاء أبو طرف والشيخ سليمان.. من مخز الشخاخات، أو ما كان قديمًا يُدعى "مخز الشخاخات"؛ فقد أتت جرافات وآليات عملاقة تزيل ما يعترض طريقها من مساكن أو عشش من الصفيح، هذا أمر الإزالة الصادر بحق هذه المنطقة التي كانت يومًا أحد أهم وأكبر معاقل النخاسة والدعارة.. حتى إن الحكومة لم تسأل عن حقوق المواطنين في تعويضهم أوتبديل حياتهم بأخرى،لكن الأهم هو الإزالة..

قد يكون الأمر مجحفًا ربما أو صادمًا ربما، لكن الأكيد أنه لا يتحلى لا بالعقل ولا بروّية ولا بحسن التدبير والتنظيم.. فكأنما أهل غزة من فلسطين بمحل أهل المخز والحكومة تتربص الفرصة لتضحر وجودهم وتبديد حياتهم ومعاشهم.. وبعد بحث وجهد جهيد كان القاتل لم يكن أبدًا من بين دائرة الاشتباه.. إنه فراج صبي عصارة الأحف!!!

هذا بعد أن حرضه كل من أبي طرف والشيخ سليمان على قتل سعاد الملاح، سعاد أبو سلطان سابقًا...

أما باقي التصرفات، فكانت من أعمال الرجل وتخيّلاته عن القتل والانتقام.. هذا بعد أن التقت مصالح الفريقين؛ فالرجل صُدم حين علم أن زوجته قد طال باعها في البغاء، وأيضًا فكرة السطو على سعاد كانت قد تخمرت في ذهن أبي طرف والشيخ سليمان فكانت الأداة والإرادة الآثمة حالفهما الشيطان، فكانت النتيجة أكيدة بقتل سعاد شر قتل!!!

***

كانت عليا تتناول عشاءها بالمطعم الرئيس بالفندق حين أتاها النادل يخبرها أن هناك من يريد مهاتفتها.....

التقطت عليا السماعة، وأتاها صوت سارة مرهقًا واهنًا ضعيفًا..

حاولت عليا أن تستشف كلمات سارة القليلة التي تطلب منها المساعدة، وتتضرع لها طالبة النجدة فكررت عليا أن تكون إحدى حيلها، لكن هذا لم يمنعها من أن ترى بعينها المأساة التي عانت منها الفتاة...

حين دخلت عليا إلى الداخل انقبض قلبها وعبثت ملامح وجهها....

فقد ضربت الفوضى الأرجاء، وبات الإهمال سيد المكان، لقد رحل الخدم دون رجعة، وأضحت وحيدة، انتقص وزنها، وشحب

وجهها، وضاقت عيناها، حتى إن عليا أتت على حين كانت سارة قد أفرغت ما ببطنها لتوها رائحة القيء تملأ المكان.

- أتقيأ باستمرار، وأعاني اضطرابات معوية، ثم...

لم تقوَ على الاستمرار حين سقطت في حالة من الدوار، لكن عليا شدت من أزرها وعاونتها على النهوض وأرقدتها على فراشها، ودخلت إلى الحمام تبحث في صيدليته عن علاج للقيء، فتجرعته سارة بعد أن أجبرتها عليا حين قالت بحزم:

- اشربي.. اشربي لن تقوي على المقاومة دون علاج، يجب أن نحتفظ بالسوائل في جسدك، وإلا لن يطلع ضوء النهار عليك.

في اليوم التالي كانت سارة تتدثر بالسواد، ملابس سوداء داكنة، وحجاب ونظارة سوداء كبيرة هذا ما فكرت فيه عليا وهي تقل سارة بسيارتها حين قالت الأولى:

- سريعًا ما ينتشر خبر أبيك، وتبقي أنتِ وحيدة شريدة؛ لذا من الأفضل ألا يتعرف أحد عليك...

ظلّت سارة صامتة كسمكة في الماء حين انعطفت عليا إلى مدخل فندقها المطل على النيل.

طلبت عليا من خدمة الغرف إفطارًا لشخصين، حين قالت لسارة التي ظلت تنظر إلى صفحة الماء في صمت:

- والآن ما التالي؟؟؟

لم ترد سارة، بل ظلّت على صمتها، فتابعت عليا وهي تتناول قهوتها الصباحية :

- حسنًا.. إن حدسي يخبرني أن أعرضك على طبيب، فما أنت عليه الآن ليس وعكة صحية، بل أظن أن هناك خطبًا ما...

لم تتفوه سارة بكلمة، بل ظلت كما هي ترقب المياه في صمت، وشمس العاشرة تصبغها بذهبيتها اللامعة فاستطردت عليا:

- أنا أفهم كم هو شاق عليك أن يتركك أبوك وحيدة، ويترك كل ما يتعلق به ويولي هاربًا!!

هنا قاطعتها سارة لأول مرة حين قالت في خفوت:

- أتسامحيني؟؟؟؟

أطرقت عليا وهي تنظر إلى فنجان قهوتها..

- لا تثمن الطيبة بثمنها إلا حين يستقر المرء في قاع مأزقه.. ولا تأتي السماحة إلا في طلب النجدة...

التفتت سارة وقالت وهي تتحاشى النظر إليها..

- ما دفعك كي تحملي عنى كبوتي وأنا من كنت لك ألد الخصام؟؟

أنهت عليا قهوتها وقعقعت أصابعها....

- سارة أنا أكبرك بحوالي عشرين عامًا.. قد تتعلمين الكثير حين تدركين أن رجال المطافيء لا يكافحون النار بالنار.. هذا إذا كان أحد الأطراف يود مد يده بالسلم...

هدلت رأس سارة على صدرها حين تابعت عليا.

- أنا أرى أن موقفك يجعلك الآن تحت تصرفي وفي قبضتي.. ضعيفة واهية تحتاجين إلى رعاية لا أخفي عليك أني كنت من الظالمين حين ساورني الشك في أن تكون إحدى مكائدك...

لكن ما دفعني هو ربما تكونين في محنة حقا.. تحتاجين العون أنت الآن محل شفقة، وتجوز عليك الرحمة والإحسان أو ليس نصرة الإنسان من دواعي الرحمة والإحسان؟

هوني عليكي، والآن اخلدي لنومك فعلينا الكثير نفعله في المساء.

كانت تتوقع شيئًا مماثلًا، لكن ليس بهذه السرعة تجهمت عليا حين أخبرهما طبيبتها...

- أعتقد أنها عانت من اضطراب في دورتها الشهرية، ولم تكن تعتني بهذه الناحية، وهو ما أثّر عليها سلبًا حول هرموناتها فأنقص وزنها وأضر بها، لكن الفحص المبدئي يتعرف عليه المبتدأ فورًا ولا شك في حملها.. مبروك لقد اصبحت جدة!!!!

***

كانت يده تتحسس ذقنه التي اكتست بالبياض إثر نماء شعيراتها.. لم يعد رؤوف مباليًا بما قد يحدث إثر بيع أصول شركاته فقط بما ينجيه من إشهار إفلاسه أو يكون نزيل أحد السجون باسم التهرب من سداد ما عليه من ديون.. يا للعار!!!

شعر أنه خسر كل ما طمع في جمعه، شعر أنه يقف على حافة هاوية سحيقة ولا يملك إلا أن يتقدم خطوة واحدة فقط فإلى أي شيء تقوده هذه الهاوية البعيدة؟؟؟

لكن لا مناص منها مادام لا فرق بين الموت غرقا أو الموت حرقًا...

كانت عودته إلى مصر سرًا لم يعرف أحد بها حتى المقربون، عكس ما مضى حين كانت ترسل إليه مئات التهاني والبرقيات بسلامة الوصول،ومئات الإعلانات بصفحات كاملة في جرائد قومية ومستقلة بأن فلانًا ابن فلان مالك شركة (..) يهنئ السيد المبجل رؤوف داغر!!!

كم لهذا الإطراء أثره على الإنسان!!! فرغم أنه جاء خلسة إلى مصر إلا أنه يفتقد ما اعتاد عليه، يفتقد الهالة التي تنصب لأجله، يفتقد كونه صنمًا كانت كل الخلائق العاقل منها وغير الناطق تصبو إليه طالبة الرجاء.. تتمنى الرضا والثناء...

كم هو غارق إلى فمه رأسه في الوحل.. من أتى عليه بمثل هذه الأمور؟؟؟

هل هي عليا؟؟؟

أم رجال حزبه الذين ولوا عنه حين علموا بنهايته؟؟؟

أم طمعه في تحصيل المزيد؟؟؟؟

أم كلها مجتمعة في سبب واحد تدفعه دفعًا ليسقط في بئر بلا قرار؟؟!!!

شعر أنه صنم بلا عبيد، أين الناس؟؟؟

ماذا حل بهم؟؟؟

هل فقد الساحر سحره؟؟؟

أم أن فكرة اللعب مع الشيطان قد خيبت ظنه؟؟؟

أفكاره دائمًا ماكانت ترتطم بحائط رخو لايرد السؤال بجواب، بل يرد بالصمت المطبق!!

كانت خطوات قدمه قد أتت به إلى حيث مكان عمل زوجته.. فكر في الانتقام قبل المجيء، فكر أن يلقن عليا درسًا في عقاب الخونة والخائنين، لكن هذا ليس بمكان أن يفعل فلم يعد هو الشخص الذي بمقدوره أن يكون سوت عذاب على الآخرين، بل هو من بات الأشد حاجة إلى من يلقي له بيد العون!!

جال في المكان يتطلع إلى الأشياء ليس من باب الفضول بل كنوع من استهلاك الوقت، توقف أمام صورها المنتصبة بمنتصف الحائط وقف أمامها يتفحص في تفاصيلها كمن اشتبهت عليه الوجوه، ثم داعب لوحة مفاتيح الحاسوب المنصوب على مكتبها حتى سمع صوتها وهي تتبادل الحديث مع مساعديها، فسارع إلى الجلوس على الأريكة المقابلة لمكتبها.

غريب هو هذا الشعور المتنامي بنفس رؤوف فهو ما كان ليثب ويختبئ مثل الأطفال كمن خطف تفاحة دون علم أمه!!!

هل معقول أن الشخص الذي لا يفصل عنه سوى حائط ومقبض باب يخشاه كمثل من يذهب إلى لقاء عمل لأول مرة؟؟؟

إنها زوجته وأنيسته في أيام وحدته أو هذا المفترض أن يكون...

ماعاد شيء على سابقه حتى الرجاء من زوجته.. يجب أن يحتاط لأدق التفاصيل، لعل به ما لا يعجبها فتعزف عنه، وقد تأمر بطرده.. غريب هذا الشعور على نفس رؤوف الذي كان يأمر وينهى بعد طول تفكر غير عابيء بمصائر الناس ها هو للمرة الثانية يشعر أنه ليس الوثن المعبود ولا الصنم الكائن عند محراب المصليين....

صوت صرير مقبض الباب يدور فتفتح عليا الباب لتستقر أمام رؤوف.

للحظات مرت تجمدت فيها ملامح عليا واستمرت بمكانها بينما رؤوف استقرت عينه بعينها....

يقال: إن الثلاث ثوان الأولى في عمر اللقاء الأول بين المرأة والرجل تتوقف عليه أمور كثيرة من تحديد شخص المخاطب إليه وتحديد كونه جديرًا بإقامة علاقة معه، وإلى مثل هذه الأمور، وهذا ما يسمى بالانطباع الأول.. لكن هل هذا قائم أيضًا هنا في مثل هذا الموقف...؟

شخص قد أهال عليك سوء العذاب فبرز جبلًا من الجراح تصرخ لها خلجات البشر أجمعين.. إنها الخيانة، هذا الرجل خائن، أدار بي الحياة وأنزلني لسافل أرض بعد أن كنت أحتضن عنان السماء، فهل الانطباع الأول يبقى رغم ما تتركه العلاقة من آثارها في نفس الطرفين؟؟؟

- حمد لله على سلامتك...

قالتها عليا بهدوء وبصوت خفيض وبعين جامدة لا شاخصة ولا مطرفة...

فرد رؤوف بغير محل إجابة السؤال:

- لقد وصلت اليوم.. وفكرت أن أعرج عليك أولاً...

جلست عليا بالمقعد المجاور واقترب منها رؤوف:

- عليا يبدو أني قد أخطأت في تقدير العديد من الأمور، وها أنا ذا راجع خالي الوفاض، لا أملك من متاع الدنيا ما أملكه كما اعتدت، أواعتدنا أن نفعل، لكن هذا أيضًا ليس ما عجل بمجيئي إلى هنا ولكن العفو والسماح من شيم أهل الكرم وأنا أحسب أنك من أهله.

أشاحت عليا بوجهها حين بدأ سيل الاعتذارات:

- أنا أعتذر إذا جاد الاعتذار نفعًا وأنا آمل في أن أعوض ما فاتنا وأصحح أوضاعنا ما دام لدينا متسع من السماحة وقدرة على المغفرة وتقبل الاعتذار.

نظرت له عليا طويلاً،وقالت:

- كيف أعاودك وهذا أثر فأسك؟؟؟؟!!!

أنت لا تعرف شيئًا بعدا!

ما كان يتوقع ما شاهد.. بطن منتفخ وعينان مخضلتان من أثر الحزن والدموع المتحجرة.. لم يتوقف عن التشكيك في صحة ما تراه عينه ولا يصدقه عقله...

- هذا ما اقترفت يداك.. حمل سفاح.. وبيت خرب.. وزوجة لا تكف عن تضميض جرحها..

قالتها عليا وهي تقف بين الاثنين سارة ورؤوف!!

متى يبقى الإنسان إنسانًا؟؟؟

هل للإنسان قيمة بلا عقل يتفكر أو قلب ينضح بالمشاعر؟؟؟

لا يصدق المرء مدى الخراب إذا بالغ الإنسان في دفع أطماعه والإسهاب في أهوائه وشهواته.

شعر رؤوف بغصة كبيرة تجتاح حلقه حتى أنها سرعان ما ترجمت إلى غثيان فتقيأ، لم يتخيل كيف سيكون نسب المولود الجديد؟؟؟

أهو أب له؟؟؟

أم أب وجد؟؟؟

وأمه كيف ستكون نسبها له؟ أمه؟ أم شقيقته الحامل فيه؟؟

وما هي أذيال الفضيحة؟؟

اشكنازكي بالتأكيد سيلعب على هذه النقطة أيضًا وستكون ضربة قاضية، أو أكون عبدًا له ماحييت...

حاول رؤوف أن يحتوي سارة فتركتهما عليا.. ليس من الواجب أن تجلس وتشاهد ما يدور بينهما؛ لأن أي نظرة ستترجم على الفور شماتة أو فرحة انتصار وتكون عليا من المظلومين.

خصلات شعرها المنسدل على عينيه الحمراوتين اللتين أبقى السواد تحتهما كخمار أسود من قماش ثقيل أعطى لها مظهرًا قد يئن لها قلب وحش جسور بمرارة الحزن وحسرة الندم، قد يكونان قد تبادلا همسًا حوارًا عن اللوم لكن بأي صيغة..؟

صيغة عشيقين هوى بهما القدر إلى أسفل سافلين؟

أم أب يقوم بتوجية عناية ابنته؟؟؟

أو ربما الاثنان معا؟ لكن أيًا منهما لا يهم؛ لأن وقت السؤال عن رابط هذه العلاقة قد كان منذ البداية.

بعدها كانت الفتاة قيد المنزل لا تخرج إلا في ثياب سوداء فضفاضة وتغطي وجهها نظارة شمس كبيرة وغطاء رأس حتى لا يتثنى لأحد معرفتها هذا كتدبير احترازي حتى تأتي بجنينها إلى الدنيا!!

قضى رؤوف أيامه في المنزل بلا حديث يذكر.. إلا أنه وعلى مائدة العشاء كانت لا تزال سارة لم تحضر بعد فقال همسًا:

- عليا.. قد أكون قد بالغت في هذا القول.. أعتقد أن إجهاض الفتاة أمر واجب.

قالها فلم تعلق عليا، بل اكتفت بالنظر إليه، وجلست بمواجهته دون أن تنزل عينها عنه.

- سكت دهرًا ونطقت كفرًا.. كم من لئيم إن أكرمته تمرد!!!

لكن بعد العشاء كان الحوار كوعاء به ماء يغلي..

- أنت حيوان مجنون.. تعتقد أن بفعلتك هذه تصحح ما ارتكبته من إثم؟؟

أشاح بيده في حدة...

- بل إن الإثم الأكبر أن يأتي طفل لا نسب له، الأفضل أن تُجهض!!

ردت عليا باستنكار:

- طفل بلا نسب!!! أنت من أتيت به إلى الدنيا فتصبح أنت أباه.. لكن لأصدقني القول أنت تخشى على نفسك الفضيحة وتخشى صديقك الملعون اشكنازكي، أنت لا تخشى إلا على مصير نفسك!!!

ضربت الدماء في أوردة رؤوف كمضخة هيدروليكية تدفعها حتى احمر وجهه، وقال صارخًا:

- بل أنت من دفعتيني إلى هذا المأزق الخانق، من أينٍ له بشريط تسجيل جلساتك مع طبيبتك العاهرة؟ وما الدافع أصلاً إلى إخباره بهذا، وقد تذوقت مرارة من يفشي سري؟؟؟

هنا جذبته عليا من تلابيبه..

- بل أنت من تسرعت وتعجلت بالأذى، ومالي أبقي على شيء وبه سر قويِ وعودي؟ أظن أنك الآن قدرت قيمة أن تكون من علية القوم وتصبح بعدها من العوام؟؟؟؟

- هه!!

فدفعته وتابعت..

- هل قدرت أن تحيا مطرودًا من بيتك؟ وخارج نطاق عملك؟ بل وبعيدًا عن كنف زوجك؟

- بعد هذا الشقاء تريدني أن أبقي على من أحالني إلى رماد بل أضل.. لا سيد رؤوف أنت مخطئ.. من مكمن ضعفي وجدت طريقي إلى ما أنا عليه الآن، وبالمناسبة لا تحاول أن تفكر في إجهاض ابنتك؛ لأن اشكنازكي سوف يجعل منك وجبة دسمة للصحافة الصفراء، وما أكثرها في هذه البلاد!!!

جلس رؤوف على مقعد أمام مكتبه وأطرق برأسه مفكرًا...

- لكن لم أفهم بعد كيف عدت إلى سابق عهدك؟؟؟

- الأمر ببساطة.. وجدت دعمًا مفاجئًا من أقوى الحركات المنادية بالحريات العامة وحقوق الإنسان، قد أرسلت جيشًا من رجال القضاء من محامين وحتى قضاة، وقد طعنوا في نزاهة الانتخابات وكرّرت المحاولة وكان الانتصار من نصيبي، حقيقة لا أخفي عليك صدقت أنها العناية الإلهية، وأنها نصرة المظلوم، لكن بعد أيام وصلتني رسالة مفادها أن اشكنازكي يقدّر من يلعب في ملعبه، وعرفت كم هي مفيدة هذه المعلومة!!

ربتت على وجهه

- آسفة يا رؤوف أنت من علمتني هذا...

ضحك هنا رؤوف حتى القهقهة،كمن فقد عقله...

- مقابل عودتك إلى رئاسة النادي ها أنا ذا ادفع غرامة معلومتك هذه بأربعين مليار دولار، أعتقد أنه ثمن بخس، أليس كذلك؟؟؟

قطبت عليا حاجبيها

- لا أفهم..أي غرامة؟؟؟

قال رؤوف وهو يشير في سقف الغرفة:

- الملعون اشكنازكي ساومني على أن يدفع عني سداد الديون لقاء أن يستحوذ على أكثر من قيمة النصف من شركاتي كلها بمصر، وبهذا تحق له الإدارة دون مشورة، أتعرفين قيمة ديني لا تتجاوز واحد إلى ستة من قيمة الشركات مجتمعة، البركة بالنساء...

لم يكد ينتهي منها حتى جاء أحد الخدم وقال ملتاعًا:

- سيدتي..السيدة سارة سقطت بحمام غرفتها!!!!!

***

مع بشائر العام الجديد توالت عدة أخبار بمصرنا المحروسة. ثلاث كنائس جديدة قامت جمعية ميكاروس بإنشائها رغم ما نشر بالصحف عن لقطات للصور تبين أن الراهب الناسك شارلي إسحاق ما هو إلا داعر رذيل مع عشيقته الوثنية ميولا ترباتوني...

رغم هذا كانت أعمال الصراع الطائفي ضاربة بين المسلمين وبين المسيحين والمستبشرين التي تمزق بهم نسيج هذه الأمة الواهية، لم يعبأ الناس الجوعى بصورة شارلي إذا كان وثنيًا أو ملحدًا، أو أيًا من هذه الأوصاف التي لا تعلق بذهن الواحد منهم..

حتى إن كثيرين رددوا المثل الشعبي القائل: من أكل من خبز شارلي فليحارب بسيفه.."حرب راح كثيرون ضحايا لها، لكن الإعلام الترق لم يعلق إلا على الأحضان والقبلات بين القساوسة والشيوخ واعتبروها قضية دينية أكثر منها قضية أمنية بحتة.. الهلاك يتسرب من بين عيوبكم يا أولى الألباب لعلكم تفقهون...

إسحاق ميكاروس يمضي بمعونات بالملايين لتمويل مشاريع لوجستية خطرة، منها: التعليم والصحة وإعمار القفور، وتظهر الوجوه النخرة البشعة تنفي هذا، وتكذب ذاك، وأرصدة أموالهم تزداد تخمة!!!

أثناء هذا التوتر المشوب بالقلق ارتفع مؤشر البورصة المصرية المعروف بegx30 إلى معدلات غير مسبوقة بعد أن ظهرت التعاملات الأجنبية، وحل مشكلة رؤوف داغر من سداد للديون وهو الأمر الذي أرق من يهمهم الأمر من المتعاملين في سوق الأسهم، وأشار وزير الاستثمار إلى مدى قوة الاقتصاد المصري، ومدى جذبه للاستثمار من الخارج، هذا طبعا حسب الخطة الموضوعة مسبقًا...

في الوقت الذي يعانى فيه قرابة 25مليون نسمة عدم توافر حاجتهم الضرورية وباتت معيشتهم على حد الكفاف أي دون خط الفقر!!

قبل أيام من ظهور رؤوف وزوجته إلى سطح المجتمع والأضواء، كان الحداد والعزاء على سارة التي قضت نحبها بعد أن حاولت أن تجهض نفسها، فمات جنينها بعد أن انقطعت الدماء المحملة بالأكسجين والغذاء عنه.. وجرى الخبر على صفحات الجرائد لأيام يذاع هنا وينشر هناك...

تافراوت – الرباط – المغرب

يقول الباحثون في التاريخ: إن هذه المنطقة وجدت قبل التاريخ نفسه،فبها نقوش تعود إلى الإنسان الأول، وهذا النقش المعروف بالغزالة؛ أي قبل التاريخ المكتوب والمسطور بأي لغة سواء مصورة أو بحروف وكلمات، وهو ما يدفع إليها بالسياح أفواجًا في تافراوت تشعر أن الزمن لا يغير ولا يتغير.

فسكان المنطقة يتحدثون باللغة الأمازيغية، قيل حولها الكثير، إن أصلها يعود إلى عصور بائدة، وآخرون يقولون: إنها أحد أطوار التطور الفكري لكن لم ينضج عن هذا الحد، وهو ما يزيد من أثرها كمكان أثري حي..!!!

تافراوت: هي أجمل منطقة في المغرب وتوجد على ارتفاع 1200 متر تقريبًا وسط منطقة تتكون من أحجار الجرانيت الوردي، وهي تشكل أروع المناظر الطبيعية خصوصًا مع منظر المغيب الذهبي، ورغم جوها الحار والجاف إلا أن الغابات والنباتات تفرض نفسها بقوة على "تافراوت"، فتشاهد أشجار النخيل تجاور حقول الشعير وأشجار الأركان بجانب أشجار اللوز وشجر الزيتون، ولشجر الأركان صفة

مميزة في مقاومة التصحر والحرارة الشديدة، وهو ما اعتبرته اليونيسكو عام 1999 تراثًا طبيعيًا عالميًا يستحق الزيارة...

نبيذ أحمر وشيكولاتة داكنة مُرة المذاق، هذا ما تسميه ميولا طعام الآلهة؛ لأنه يعتمد على التذوق فقط دون الشبع، هذا على متن طائرتها الخاصة التي سوف تحل على "تافراوت" بعد نصف ساعة، فقد قرّرت ميولا أن تتخذ من كوخ صخري ناءٍ تحفة أشجار الأركان مكانًا لها حتى تهدئ موجة مطالبتها حية للمحاكمة في شؤون عدة...

اعتدلت ميولا حين أتت هالة....

اسمعي يا هالة.. لقد قضيت معك وقت علاجي، وها أنا ذا عدت إلى كامل صحتي البدنية، وبات دورك الآن قيد التقاعد، لكن لعلة ما تخص هذا المركب الكيميائي الذي كنا نتعاطاه فإن آثاره قد تظهر عليك لاحقًا، وأنا على استعداد أن أباشر نفقتك إن ظهر عليك أي أثر لمرضي إذا أردت البقاء، وإن شئت المغادرة فأعتقد أنك غير موفقة؛ لأنه من المفترض قتلك لخصوصية الموقف الشديدة!!!

كم أحب ألا تعرف الموجة وجهتها، لكن لشيء لا أعلمه أخبرتك بهذا!!!

لم تعرف هالة كيف ترد ولا حتى إسماعيل، ها قد أتت الفرصة أمامها، خيار صعب: إما الموت بمرض لعين نادر، وإما القتل بلا رحمة!!!

ثم إذا حدث مكروه لها ماذا هي فاعلة؟ وبالتأكيد ميولا لا تمزح بشأن قتلها، وما أسهله!!!!

فما العمل إذن؟؟؟

بينما هي شاردة تفكّر وميولا تقضم من حلوتها النفيسة ومشروبها الروحي النادر دققت هالة في نقطة خارج الطائرة، فشاهدت كومة من الطيور تحلّق بجانب الطائرة، فانبهرت ميولا بهذا المشهد لدقائق بدورها، لكن سرعان ما تحوّل هذا الشعور إلى خوف فقد أذاع الطيار من خلال المكبر الداخلي للطائرة..

- رجاء التشبث بالمقاعد والالتزام بتعليمات الأمان، ربما نواجه مشكلة بأحد المحركات!!

لم ينتهِ منها حتى شعرت ميولا بالطائرة وكأن عملاقًا قد ضربها بحذائه، فهوت الطائرة للحظة، ثم استقرت فعاد الطيار يقول:

- اللعنة.. لقد فقدنا أحد محركاتنا بالفعل.. اللعنة على الطيور.. سنضطر إلى الهبوط!!

ملامح الذعر على وجه هالة وإسماعيل، بينما ميولا بقيت متماسكة، بل إنها حاولت أن تدخل إلى قمرة القيادة..

- يبدو أن قدرك لم يمهلك القرار ياعزيزتي هالة.

بعدها شوهد حطام طائرة قرابة السواحل الجزائرية، ولكن لم يتعرف أحد على هويتها بعد ولمن تعود..

بعدها اختفت ميولا وما عادت إلى مقر حكمها بمصر المحروسة هنا تضاربت وتبدلت الأقوال، فقد قال الطيار الذي عولج بالمشفى قبل موته: إنها هبطت بمظلة إنقاذ، وهناك من قال: إنه شاهد يختها يرسو على ميناء أحد الجزر وإن سيارتها الدقيقة تتجول في أنحاء الضواحي الأوروبية لكن لم يجزم أحد قط أنه رآها على سطح جزيرتها المفضلة سيردينيا أوترددها على مشافٍ أوبنوك مرأى العين..

هذا ما جعل من شارلي يرسل في أثرها من يتبعها، لكن بلا فائدة حتى أنه لم يعثر على فليب دروسيه وكيل أعمالها الفرنسي.. لكن أعمالها تزداد باطراد ووحشية خصوصًا بعد نجاح دوائها هذا ما يفسر بقاءها حية ترزق، لكن لا أنباء أكثر من هذا، ميولا حية أم في عداد الموتى أم المفقودين، لم يستطع أحد أن يجزم بخصوص هذا الشأن قط...

***

- أنا لا أفهم هذه الخطوة.. كيف تنصّب رجلًا عديم الخلق رئيسًا لأعمالك؟

قالها اللورد إسحاق،فرد اشكنازكي ضاحكًا:

- رغم ما أحرزته من تقدم في هذه اللعبة أراك لم تقتنع بعد.

كان هذا اللقاء الجامع بين مكنمارا وشارلي، فاقترب جاك، وقال:

- حان الآن تتويج الصعلوك ملكًا أو الذئب راعيًا، أي المسميين أقرب؟ المهم لكي تدور الثقة وتعود إلى من كانوا يتعاملون مع شركات رؤوف هذا يجب أن نحتفظ بهذه الهالة حول هذا الرجل فقط

أنتظر سماع الأنباء في الصباح حين يكون هو الراعي ستعود الأغنام إلى راعيها.. الناس هنا لا يزالون مرتبطين بشخصية الفرد الحاكم الإله، إن ما أملكه ليس إلا جسدًا بلا روح، وستسير الأمور كما مضى دفع رُشى وتلقي أخرى نفس منظومة الفساد الكائن؛ لأنه أكبر من أن نعالجه أو نُصلح منه.

كان رؤوف في غبطة السعادة لم يساعده شيء على تجاوز محنة ابنته إلا هذا الخبر.. كان المكان الشركة القابضة باسم داغر وسط سعادة العاملين والعملاء والمتعاملين عاد داغر رئيسًا، كان الجميع من الحاضرين يعرفون اشكنازكي الذي أعاد الحياة بصفته مستثمرًا أجنبيًا ملء السمع والبصر، وحان الآن اللعب على الوجه المكشوف، طالما أصبح هو من يملك كل أوراق اللعبة...

فقد اشتغل جاك اشكنازكي على ما أسماه (زاتروفا بروجيكت) هذا المشروع الذي أقيم على أراضي الدولة المملوكة لشركات داغر في سيناء، لم يطعن أحد أو أي جهة حكومية في ملكيتها لداغر رغم الغبن البين في ملكيتها له، ورغم قدرة الإله التي أفقدها اشكنازكي لداغر.

كانت فكرة المشروع قد تخمرت في رأس اشكنازكي بعد أن عرض عليه أحد الطلبة بالجامعات الألمانية مشروعًا لوجستيًا بالغ الحيوية تقوم فكرته على مبدأ بسيط جدًا.. فبعد أن نادت مؤسسات عدة حول العالم ولمدة أعوام طوال على تنقية الهواء من عوادم الوقود الحفري بمختلف أنواعه سارعت معامل الدول العظمى في إيجاد البدائل، سواء من شركات خاصة أو بناء على طلب حكومي،

فكانت البدائل أكثر فجاجة؛ فقد بنيت على ما أسموه الوقود الحيوي، وهو قائم على مزروعات حيوية معاشية هامة جدًا،مثل:الذرة والشعير...! وكم هي تشكل المحصول الاستراتيجي والغذاء لأكثرية الدول الفقيرة حول العالم،فخرجت منظمات تدفع هذا العمل الشيطاني رغم تمسك الدول الصناعية به، مادام هذا المحصول لا يمثل إلا غذاء لماشيتها!!!!

لكن العمل الدؤوب على إيجاد حلول لم يتوقف، فقال أحدهم: إن هناك ما يُعرف بنبات (الزاتروفا) لا تُمثّل ثمرته شيء الهام لا للإنسان ولا للحيوان لكن قيمته تعتلي كل ما عداه في خروجه من الزيوت التي تشتعل تمامًا كالوقود الحفري، بالإضافة إلى كون هذا النبات يقابل التصحر كبطل من الأساطير، فيبقى قيد الحياة والإثمار على زخات من ماء المطر طوال العام.

هنا بدل اشكنازكي سلوك عمله، وترك سوق العقارات والمضارابات واتجه إلى حيث أصبح أكثر الناس شهرة على صعيد العالم؛ فقد تملّك بموجب اتفاق حكومي مئات الآلاف من الأفدنة وما هيإلا أشهر قلائل حتى أضحى مشروعه الجديد يحتل العناوين الرئيسة في الأخبار والأنباء، فكانت الصور تلتقط لجاك اشكنازكي مع رجال الحزب الحاكم ورجال الحكومة من الوزراء ما دام هو منبع الثروة الجديد، وقد أضحى الشريك الأهم لكل من يود أن يقطف ثمارًا مربحة، ولم يعد داغر كما سبق الفتى المعجزة المتحكّم بالأقدار كما يشاء، بل ظل رهن إشارات جاك الذي يحركه كعروس المسرح بأنامل أصابعه...

لكن الطامة العظمى أن ما ينتجه جاك اشكنازكي على أرض مصر من خيرات وثروات أقوى وأبقى من النفط، يُصدّر مباشرة لإسرائيل كأول مشتر لهذا المنتج النقي والقوي، حتى إن أحدًا لم يجد غضاضة في أن يظهر في مشاهد مصافحة مع مسئولين إسرائيليين بشأن هذا المشروع الجديد، بل الأدهى أن فريقًا من باحثين إسرائيليين تواجدوا بأرض المشروع لتحسين وإدارة الإنتاج كيفما شاؤوا...

بناء من طابقين يتألق تحت وهج شمس سيناء بسبب الألواح الزجاجية لنوافذه الكبيرة وجدرانه المعدنية اللمعة، تحفه حديقة كروم غناء ومرأب سيارات صغير، تقف بين جدرانه سيارة (مايباخ) شهابية اللون...

هذا هو مقر إقامة اشكنازكي ومحل إدارته لمشروعه الثوري!!

كانت عاصفة من التراب المثار تلفع السيارة التي تجري بين الحقول الخضراء التي تتوسطها ممرات ترابية، وما هدأت إلا أن توقفت السيارة وترجل منها رؤوف...

كان هذا أيضًا لقاء تقليديًا بين رؤوف وجاك للإطلاع على آخر المستجدات، كانت المشاورات طويلة في التخطيط وزيادة الرقعة الخضراء، طبعًا عن طريق داغر الذي قال بجديّة، وهو يشير إلى مخطط على الورق مفرود على طاولة خشبية:

- حتى هذه الحدود تنتهي مزارعنا لكن ما تمكنت منه خلال الأيام السابقة هو أنني دفعت ببعض العرب البدو يتمركزون حول هذه المنطقة كما أشار رجال البحث ولن تتمكن الشرطة من إزاحتهم

بسبب وعورة الأرض والتضاريس، بالإضافة إلى قوة الحيازة التي يكفلها القانون بوضع اليد والاستقرار فيها بشكل يقطع الشك وواضح لا لبس فيه !

هنا ابتسم، ثم تابع...

بعدها يأتي دورنا، وندفع بالمزيد من الزراعات، وتصبح مزارعنا أكثر اتساعًا، لكن الأمر يحتاج إلى وقت...

فتعجب جاك من الفكرة..

- بهذه البساطة، ألن يكلّفنا شيئًا؟

- مثل هذه الأمور تدبرها بسيط، فكل ما يطمحون إليه هو حفر آبار للمياه ومضخات لري أراضيهم، وهذا أمر لا يُعد شيئًا بجانب ما سنربحه.

تبادل جاك وإسحاق النظر فيما بينهم،فقال جاك:

- عمل رائع يا رؤوف.. استمر أنت تبلى حسنًا...

- هذا عملي الذي أجيده...

قالها بزهو عجيب حتى إنه أثار اشكنازكي كم هو فخور يختال بلصوصيته الماكرة وسرقته لأراضي بلاده...

بعدها كان هذا اللقاء بين إسحاق ميكاروس واشكنازكي اللذين وقعا عقدًا بالتمويل للمشروع، خاصة بعد الربحية الأكيدة وضمان

استمرارها، وكانت هذه هي أول مرة يجري فيها رؤوف حوارًا مع إسحاق، رغم الخسارة إلا أن قلبه مازال ينبض بالحنين للمغامرة !

حتى كانت شمس المغيب ترسل آخر أشعتها لهذا اليوم من خلف الروابي الخضراء،فقال اللورد إسحاق:

- آه..كم هذا المشهد مثير للمشاعر!!!!

فحاول رؤوف مجاراته إلا أن إسحاق التفت له..

- أنت تحرز تقدمًا حثيثًا في مشروع اشكنازكي، هل أنت سعيد بما حققته سيد رؤوف؟

رد رؤوف وملامح الزهو لا تفارقه:

- دائمًا أحبذ الحركة في الظل، فالأمور كلها لا تظهر تفاصيلها إلا عندما تتحرك بحرص وحذر شديدين، هنا تجمدت ملامح إسحاق حين قال:

- أتعرف سيد رؤوف لازلت عند رأيي ألا أشارك أحدًا من بني جلدتك، فلولا اسم اشكنازكي وإدارته للمشروع لما أقدمت على توقيع عقد شراكة في هذه البلاد، فأمثالك ممن لا يؤمنون بالقوميات ولا بالدين، ومن لا تربطهم إلا مصالح المال والنفوذ، تعيشون في بلادكم فسادًا وشرًا وقهرًا.. وتتغنى على أنغام من يطعم بطنك التي لاتمتليء!!

حاول رؤوف أن يرد إلا أن إسحاق واصل...

- أنت ومن على شاكلتك من أعضاء حزبكم الحاكم رجال خائنون حتى إنهم تركوك بلا حول ولا قوة، وكم كنت محقًا حين أيقنت أن ما من خير في أمة يتلاعب بأقدارها رجال مثلك!!!

أنت رجل خائن.. والخائن لوطنه مثل من يسرق أباه ليطعم اللصوص، فلايسامحه أبوه ولاتكافئه اللصوص!!!!

كم أنا سعيد أني لم ألوث يدي يومًا بمصافحتك....

هذا ما كسبه جاك، أما ما كسبه شارلي هو نشره لدينه الذي رغم الصراعات القائمة بين الناس ممن آمن بشريعة شارلي، ثم رد عنها بعد حادث الراهبة التي وجدت مسفوك دمائها ومبقور بطنها بشكل وحشي، ومنهم من تعدّى على مقر الجمعية بالنهب والسرقة؛ لأن الجمعية في الحقيقة لم تمارس نشاطها كعمل إنساني، بل دفعت بالعون لمن يتبع ملتها، وهذا ما أحرق قلب الناس من المسلمين الماسكين على عروة دينهم، كمن يمسك على جمرة من النار، كما صدق وقال الرسول الأكرم خاتم النبيين محمد عليه أفضل الصلوات والتسليم.

وعادت عليا بلفاتح إلى عملها كمديرة للنادي، ولكن على اتصال وثيق باشكنازكي، فتأمن جانبه، وشر لدغته، حتى إنه ضاجعها على علم من رؤوف، وهو يدخن سيجاره الباريسي في هدوء وصمت:

أليس هذا من سياق عملكم؟؟؟

كم هو ظالم أن يتصف الإنسان الضعيف بالوهاب القدير، فلم نشهد إلا مسوخًا في أزياء بشر، ولم نعرف رجالًا لم تدفعهم إلا

أهواؤهم ورغباتهم مهما كانت نبيلة أوسامية، لم نرَ مؤسسة تحكم وتتحكم، بل على الدوام لا نسمع إلا عن أشخاص بحجم مؤسسات، بل وبحجم دول، وهوما يدفع الناس دفعًا لتبجيلهم، بل ولتقديسهم ما دام الرزق يأتي بقدومهم...

لعل الصورة تتبدّل والغيمة تنقشع ونصبح قادرين على ألا نسقط في هفوات أو نزوات غيرنا أو شرور أنفسنا.. وليسامحنا الله عز وجل.